





المركز القومى للترجمة

ميراث الترجمة

المدنية

تأليف: كلايف بل
ترجمة: محمود محمود

1346

المــدنيَّة

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣٤٦
- المدنية
- كلايف بل
- محمود محمود
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Civilization

by: Clive Bell

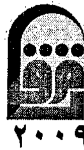
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المدنيَّة

تأليف : كلايف بل
ترجمة : محمود محمود



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بل، كلايف
المدنيَّة / تأليف: كلايف بل؛ ترجمة: محمود محمود؛
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٢١٢ ص؛ ٢٠ سم
١ - الحضارة الأوروبية
٢ - الحضارة الإنجليزية
(أ) محمود، محمود (مترجم)
(ب) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٩٠٨٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 586 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

مؤلف هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم لقراء العربية هو الكاتب الانجليزى كلايف بل ، وهو أديب معاصر اشتهر بنقده للفنون و بتقديره للجمال . ولد فى عام ١٨٨١ وتخرج فى جامعة كمبردج ، وله نظريات معروفة فى فنون التصوير والنحت والأدب ، وفى المسرحيات والموسيقى .

أخرج كتابه هذا عن المدنية عام ١٩٢٨ ، وأعيد طبعه عدة مرات . وقد أهداه للكاتبة العصرية « فرجينا ولف » . واستهله بمقدمة ذكر فيها أن قادة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فى انجلترا كانوا يزعمون أنهم يدافعون عن الحضارة . و بهذه الدعوى دفعوا الشعوب إلى القتال ، وفى سبيلها ماتت الملايين . هذه التضحية الكبرى فى سبيل المدنية هى التى دفعت الكاتب لأن يتساءل عن معنى المدنية وأن يخرج فيها هذا البحث الذى لا يطمع أن يعرّف فيه الحضارة تعريفا دقيقا ، وإنما يؤمل أن يقرب مدلولها إلى أفهام القارئين .

ويناقش الكاتب فى الفصل الأول من الكتاب بعض تعريفات

المدنية الشائعة . هل هى احترام حق الملكية ، أو ديموقراطية الحكم ، أو حب الوطن ، أو الوحدة العالمية ، أو إلتمسك بالدين ، أو مكانة المرأة فى المجتمع ، أو الخضوع المطلق لقانون الطبيعة ، أو التحلى بالفضائل الخلقية والعادات الحسنة ، أو تقدم العلوم ، أو توفيرأسباب الراحة للجميع ، إلى غير ذلك من التعريفات .

ويفندها الكاتب واحدا بعدالآخرلأنها صفات مشتركة بينالبرابرة والمتحضرين .

ويحاول بعد ذلك أن يصل إلى تعريف للحضارة يستخلصه من أهم ما يميز الجماعات المتحضرة ، وهى فى التاريخ ثلاث : أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وإيطاليا فى عصر النهضة ، وفرنسا فى القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية . والصفات المشتركة التى تنفرد بها هذه الجماعات هى : « تحكيم العقل » و « الإحساس الصحيح بالقيم » و « تقدير الفن » .

وهى مقاييس للمدنية متداخلة وإن تنوعت ، وتنبثق منها مميزات حضارية كثيرة : منها إعلاء شأن الفرد فوق الجماعة ، وإتاحة الفرصة لكل امرىء لكى يعبر عن نفسه تعبيرا حرا كاملا بغير قيد ، وتقدير المعرفة لحد ذاتها لا لما تجلبه للانسان من منافع ، واعداد النشء للحياة العقلية دون العمل الآلى ، وإعلاء الدعوة العالمية فوق الدعوةالوطنية ، وسيادة روح السخرية والفكاهة . والشخص المتمدن — عنده — لابد أن يكون متسامحا ، رحيما ، يجد متعة فى الحياة العقلية ولا يحرم نفسه

الملذات الحسية ، ولا يؤمن بالخرافة ، ذواقة للفن ، حسن السلوك ، وغير ذلك من الصفات التي يعرضها الكاتب في ثنايا كتابه في إسهاب أو إيجاز حسبما يسوقه الأسلوب والتعبير .

وهو عندما يطبق هذه المعايير على انجلترا المعاصرة يحكم على بلاده بالتخلف في ميدان الحضارة .

يرى بل أن المدنية مطلب الإنسانية ، ولا يمكن أن تتحقق إلا إذا وُجدت في الأمة طبقة ممتازة يهيأ لها جو خاص تتوفر فيه أسباب العيش كي تحيا حياة نموذجية نسعى جميعا إلى احتذائها . هذه الطبقة ينبغي أن تتفرغ طيلة العمر ، وألا تُكلف بعمل من الأعمال ، وأن تتوفر لها حرية الفكر ، وألا يسند إليها الحكم لأن السلطان يفسد النفوس . ويقول الكاتب هنا إن فرنسا كانت فيها في القرن الثامن عشر ارستقراطيتان : أرستقراطية الحكم ، وأرستقراطية الحضارة ، وكانت الثانية تظفر بتعضيد الأولى وتأييدها . ولا يرى الكاتب مانعا من عودة هذا النظام .

ولكي ننهض بالشعوب ينبغي لنا فوق هذا أن نكثر من استعمال الآلات حتى يتوفر الفراغ للناس عامة ، وأن نعمل على قلة السكان كي يرتفع مستوى العيش . ولما كانت كل جماعة لا تخلو من السفلة الأدنياء فلا مندوحة عن وجود رجال لحفظ النظام ، يكون عملهم حماية المدنية لا فرضها على الناس فرضا ، لأن المدنية لا تقوم على استبداد الحاكم بمقدار ما تقوم على إرادة الشعب .

هذه بعض آراء بل فى المدنية يفصّلها فى كتابه تفصيلا شائقا ، ويضرب لها الأمثال من الحياة ومن التاريخ فى أسلوب جزل يأتلف فيه اللفظ مع المعنى .

وللكاتب فى غضون كتابه آراء تقدمية ممعنة فى التحرر ، لا نوافقه عليها . وكانت أمانة الترجمة تقتضينا أن ننقلها للقارىء كما أوردها صاحبها ، غير أنا رأينا فى بعض المواضع أن نخفف من غلوائها ، دون أن نتحمل تبعاتها . وهى على كل حال تثير التفكير وتبعث على التأمل العميق .

محمود محمود

القاهرة — مايو ١٩٥٩

الإهداء

إلى فرجينيا وولف

عزيزتى فرجينيا :

إذا كرمت هذه الرسالة بإهدائها إليك ، فإنى أفعل ذلك فقط وقبل كل شىء لأنى بسحر اسمك آمل أن أسحر قارئيها . ولست أخجل من أن أدين بهذا أو بغير هذا من المنافع لما بيننا من صداقة . ولكن الواقع أن ما دفعنى حقاً إلى ذلك باعث أكرم وأشد تشويقا ، دفعنى إليه أنك وحدك من بين رفاقى التى شهدت مولد هذا الابن المتخلف المنكود وتابعت تقلبات الحظ معه . أنت وحدك التى تعرفين أنه أول ثمرة لكل ما تأملت فيه ، وكل ما عداه (سوى بعض مجموعات من المقالات) تفرع عنه بمعنى من المعانى . إن تاريخ التفكير فى هذه الرسالة يرجع إلى عهد طفولتنا . تذكرين يا فرجينيا ، أننا كنا فى الأغلب اشتراكيين فى تلك الأيام ، وكنا نهتم بمصير البشرية ، ومن ذلك الاهتمام نبعت الفكرة أولا ، ثم التخطيط العام ، ولما فكرت — بطبيعة الحال — أن يكون « عملى العظيم » ، وهو كتاب يعالج كل أمر هام من أمور عصرنا ، لا يغفل منها شيئا ، كتاب أسميه « النهضة الجديدة » .

« وكان خيالا صبيانيا » على حد تعبير للشاعر هود فى مكان ما كما أظن . وبرغم هذا التفكير الصبيانى فقد أدركت حتى فى ذلك الحين أن تفسير ما بلغناه يقتضى بيان ماصدرنا عنه . كان مقدرا « للنهضة الجديدة » أن يعرض صورة عن الفن المعاصر ، والفكر ، والتنظيم الاجتماعى ، وذلك بتعقب تاريخ هذه المظاهر للمدنيـة من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر — أى حوالى عام ١٩٠٩ — ولكن ما إن حل عام ١٩١١ حتى كنت قد ازددت حكمة — أوعلى الأقل كبرت سنى قليلا — فأدركت أن موضوعى لا تمكن معالجتـه . من أجل هذا ، وبوحى المعرضين الأول والثانى من معارض « ما بعد التأثريين » اجتزأت من كتابى « النهضة الجديدة » فصلا نشرته فى ربيع عام ١٩١٤ تحت هذا العنوان البسيط الشامل « الفن » .

ثم اشتعلت نيران الحرب ، فعدلت من آرائى كثيرا بما كان لها من نتائج سياسية واقتصادية — كما سوف يتبين لك بعد قليل — والواقع أن الفرق بين هذه الرسالة وبين الكتاب الذى اعتدت أن أتحدث عنه فى غرفة عملك بميـدان فتزروى إنما يعزى لهذا الحادث الفاصل . لأن المهزلة وإن تكن ما تزال قائمة ، إلا أن ضوءا جديدا قد ألقى عليها — وأقصد بالمهزلة منظر ملايين الرجال والنساء وهم يحاولون عن طريق النظام السياسى والاجتماعى أن يحصلوا على ما يعتقدون — بدرجات متفاوتة — إنهم يريدونه ، ويسمون ما يعتقدون أنهم يريدونه خيرا . وما إن حل خريف عام ١٩١٨ حتى بدأت نظرتى إلى الأمور تتغير . وتحورت آرائى ومعتقداتى . إن ما كان يبدو لى قيما كغايات ما برح كذلك ؛ إلا أن كثيرا

مما كنت أحسبه وسائل ممكنة لهذه الغايات بدا لى خلوا من المعنى . نظرت إلى المشكلة القديمة نظرة جديدة . وكانت نظرتى جادة ، وربما كانت شائقة ، فى لحظة من اللحظات . ولذا ففى ذلك الخريف أخرجت المخطوط القذر وشرعت أكتب من جديد .

وما برح القدر يترقبنى ، أو يترقب المخطوط على الأصح . ففى مستهل عام ١٩١٩ ألفيت نفسى ناقدا فنيا محترفا وأديبا محترفا — ولم يكن ذلك ذنبي . ومرة أخرى تخليت عن « العمل العظيم » . ولكنى استخرجت منه فصلا آخر ، ونشرته تحت عنوان « الحرية البريطانية » ، وكانت رسالة صغيرة — ولكنها فى رأيى تدعو إلى الاعجاب — ولم يلحظها أحد . بيد أنى وددت أن أواصل الحديث . ومن ثم حملت إلى هذا المكان الهادىء مخطوط عام ١٩١٨ واستخلصت منه مقالا من المدنية .

لن تسمعى بعد اليوم عن « النهضة الجديدة » فان ما تبقى من المخطوط بعد الذى استخلص منه استعمل منذ بضعة أشهر وقودا للنار . هنا تجدين خلاصة جدلنا المعروف القديم ، بعد أن حورته الحرب ، ولم يحوره شىء آخر ، لأنه منذ الحرب ، والثورة الروسية والانقلاب الإيطالى ، لم يحدث شىء ، ولم أقرأ شيئا ، مما يحولنى جديا عن رأيى فى المدنية أو عن الوسائل التى تتحقق بها . هنا عصارة خير أيامى وأفكارى ، مجموعة ، وأرجو أن تكون موحدة ، حسنة التغليف والطباعة بالتأكيد ، يضعها عند قدميك يا عزيزتى فرجينيا صديقك المحب .

كلايف بل

كاسس — ابريل ١٩٢٧

— ١ —

المقـــدمة

لما كانت بريطانيا العظمى وحلفاؤها تقاتل فيما بين أغسطس من عام ١٩١٤ ونوفمبر من عام ١٩١٨ من أجل المدنية فلا يمكن — فيما أعتقد — أن يكون البحث فيما عسى أن تكون المدنية غير ذى موضوع . ولقد كان الناس يحسبون أن « الحرية » و « العدالة » من الكلمات التى تكلفنا كثيرا . بيد أن كثيراً من المفكرين من دافعى الضرائب دهشوا عند ما أدركوا أن « المدنية » يمكن أن تكلف فى اليوم الواحد من الملايين مالا أذكره عده ، وأن قصة ظهور هذه الكلمة فى قة أغراض الحرب البريطانية عجيبة جداً ، أجدنى مدفوعاً إلى روايتها ، حتى إن كانت أقل صلة بالموضوع . والواقع أنى لا أستطيع أن أشرح كيف اتخذت هذه المقالة شكلها النهائى إلا برواية هذه القصة .

إن أحكم الزعماء الذين قادونا إلى الحرب وخيرهم كانوا ينادون « إنكم تقاتلون من أجل المدنية » وتلقى الجند هذا النداء فقالوا « التحقوا بالجيش من أجل المدنية » وقد أفزعتنى هذه الحماسة المباغتة لمبدأ لم يبد بشأنه الساسة وضباط التجنيد حتى ذلك الحين إلا قليلا من الاهتمام ، أو لعلهم لم يهتموا البتة به ، فناديت بدورى « وما المدنية؟ » وأؤكد لكم

إن ندائى لم يكن عالياً ، لأن النداء المرتفع بمثل هذه الأمور فى ذلك الحين كان يؤدى بصاحبه إلى السجون . أما الآن — بعد أن لم يعد السؤال جريمة أو خيانة وطنية — فإنى أعتزم البحث فيما عسى أن يكون ذلك الأمر الذى من أجله قاتلنا ومن أجله ندفع . وفى نيتى أن ألخص هدفنا الأساسى من القتال . وسنرى إن كان بحثى سوف ينتهى إلى اكتشاف ، وإن كان بين هذا الاكتشاف — إذا انتهيت إليه — وبين معاهدة فرساى أى وجه من وجوه الشبه .

دخلت انجلترا الحرب — إن صح ما أذكر — لأن ألمانيا انتهكت إحدى المعاهدات ، والرأى السائد أن حرباً أوربية أفضل من ترك الإساءة بغير قصاص — أو كما يقول المثل : لتأخذ العدالة مجراها حتى إن أدت إلى انهيار البيت . وقبول هذا المبدأ المزعج بغير تعديل ربما أثار فى العقول المفكرة إحساساً بالقلق ، وهو الإحساس الذى ربما دفع المحررين والساسة — الذين كان عليهم أن يبرروا لرواد الكنائس وقراء الصحف الأحرار إعلاننا للحرب — إلى تعزيز الباعث الخلقى بالباعث الدينى . وأياً كان الدافع ، فذلك هو ما حدث . فأعلن أحدهم ، وربما كان مستر لويد جورج نفسه ، أو على الأرجح مستر هوراشيو بوتوملى ، هذا النداء الجرىء :

« الصليب ضد كروپ » ورحبت الصحف من بداية الأمر بالحرب باعتبارها أرماجدون (أى مسرحاً للنضال العظيم بين الأمم) ، فبات من المعقول أن يكون قيصر ولهلم الثانى من أعداء المسيح . وليس من شك فى أنه كان يشبه نيرون من بعض الوجوه — ربما كان تذوقه

المزعوم للموسيقى . وكانت هناك إلى جانب ذلك نبوءات ، وشارات ، ونذر فى السماء ، وملائكة تظهر فى مونز ، وكلها تميل إلى الدلالة على أن الله فى جانبنا ، وأننا على الأرجح نقف فى وجه الشيطان . غير أن بعضنا لم يقنعه هذا التشبيه ، وقد تذكروا ما اعتاد صاحب الجلالة الامبراطورية من وضع كتيب صغير عنوانه « أحاديث مع يسوع » فى أيدى الفتيات الصغيرات . ثم — فوق هذا — هل كان من حسن المجاملة أن نصر على أن هذا الأمر يبلغ مبلغ العقيدة ، فى حين أن الجمهورية الفرنسية لا تتقيد من الوجهة الرسمية بدين ، والميكادو يتبع العقيدة الشنتوية ؟ وهل من الحكمة أن نزج بإله المسيحيين فى نزاع يتحد فيه الكفار الفرنسيون والجاحدون اليابانيون ، والمسلمون والمجوس الهنود ، والمتوحشون السنغاليون ، ضد امبراطور النمسا السابق ، وهو تلك الدعامة من دعائم الكنيسة الكاثوليكية ؟ ولذا ، ففى الوقت الذى بدأنا نتساءل فيه إن كان من الجائز أن توصف هذه الحرب وصفاً دقيقاً بأنها حرب صليبية ، اكتشف رجل حذر مثقف ، أظنه من كتاب الملحق الأدبى بجريدة التايمز ، بأن ما يهاجمه الحلفاء حقاً هو نيتشه .

وكان هذا الاكتشاف فى أول الأمر نجاحا عظيما . وأصبح نيتشه هدفاً يصوب إليه كل منا حماسته وثورته البالغة . ويكفى لإدانته من جانب رجال الطبقة الحاكمة أنه كان ألمانياً وشاعراً . وقد قيل عنه أنه يحتقر التوسط ومن ثم كان لدى الطبقتين الوسطى والدنيا ما يبرر كراهيته . ليسقط نيتشه ! وما أمتع الضرب فى هذا السافل الدنىء ، هذا الرجل الذى زعم أنه يسخر من الأحرار دون أن يعجب بالاتحاد بين الأحرار . فلقد

كان — كما يبدو — كأنه مصاب بالصرع وداء الخنازير ، ولم يكن من الرجال المهذبين . وتحدثنا عنه إلى العمال . قلنا لهم إنه نبي الامبريالية الجرمانية ، وشاعر بروسيا ، وتابع دنيء من أتباع أشراف الشبان الجرمان . وإذا كان منا من درس شيئاً من الأدب الألماني خففت كراهيته وبلغت به الخيانة الوطنية أن يجادل في عقائدنا ، وصمناه بالغدر وأسكتناه . تلك كانت خير أيام عام ١٩١٤ ، حينما كانت فرنسا وانجلترا تدافعان عن باريس ضد نيتشه . في حين كانت الآلات الروسية تدفعه من الخلف .

ومع ذلك فإن هذا التحصين ضد نيتشه لم يكن كذلك باعثاً على تمام الرضى . أولا لأنه مما يجلب على المرأ الكآبة أن يقف موقف المدافع في كل مكان . وثانياً لأنه كان من العسير أن تحكم على نيتشه . ومن الشذوذ — فوق ذلك — أن تحارب ضد رجل لم يسمع بوجوده منذ ستة أشهر واحد في كل عشرة آلاف . وقد أردنا ألا نحارب ضد أمر من الأمور فحسب . بل أردنا شيئاً نحارب من أجله . من أجل ماذا ؟ كانت بلجيكا دولة صغيرة جداً ، بل بقعة قذرة ، والمسيحية تجافي الحكمة ، وتوازن القوى فكرة عتيقة ، ونحن أنفسنا سبباً بعيد الاحتمال . تطلعنا إلى هدف سام له رنين ، وهو برغم هذا مألوف معروف ، هدف يفخر به الناس أجمعون ويسرهم أن يدفعوا غيرهم إلى الموت في سبيله ، سواء منهم المسيحيون واللادينيون والأحرار ، والمحافظون والاشتراكيون ، من يحب الحرب دائماً ومن يؤمن ببغضها . ومن يغرم منهم بماري كوريلي ومن يؤثر عليها مسترولز ، ومن يحب منهم الويسكي ومن يؤثر عليه ليدي آستور ، وبعبارة موجزة ، سواء منهم

من يستمد الرأى من « الديلى نيوز » ومن يستمده من « الديلى أكسبريس » . ثم حدث أن طرأ هذا الكشف النهائى الجميل — وهو أننا نقاتل من أجل المدنيـة — لذهن أكثر شمولا ، لذهن رجل لديه حس تاريخى وشعور بأهميته ، لذهن رئيس الوزراء أو البروفسور جلبرت مورى فيما أعتقد . ثم طرأ لذهنى هذا السـؤال العاجل « وماهى هذه المدنية التى نقاتل من أجلها ؟ » .

ولست آمل أن أقدم تعريفاً دقيقاً . فلقد كبرت الآن عن سن ذلك الوثوق الجليل الذى مكننى من أن أقول للعالم على وجه الدقة ماهو الفن فى ستين ألف كلمة . ومع ذلك ، فكما يستطيع القائد البريطانى أن يشير اعتباطاً بطرف عصاه الغليظ إلى خريطة فرنسا ، ويقول مخادعاً « إن هدفكم يجب أن يكون فى مكان هنا على وجه التقريب » فإنى كذلك ربما أستطيع أن ألوث بإشارتى مصوّراً للآراء العامة وأقول « أن المدنيـة تقع هنا على التقريب » .

ولنبدأ برأى واضح مملول . يبدو أنه من المعقول أن نفترض أن المدنية خير . فإنها إن لم تـكن كذلك لمـا كاد أن يتوقع أحـد منا أن ندفع كل هذا من أجلها . ومادامت المدنية خيراً ، فلابد أن تـكون كذلك إما كغاية أو كوسيلة . إننا عندما نتحدث عن « مجتمع عظيم المدنية » قد نقصد « مثل المدنية الأعلى » أو « الكمال المطلق » أو « السماء » وفيما عدا ذلك فإن المدنية ليست غاية من الغايات . ولما كنا عادة نتحدث عن عيوب المدنية ورذائلها ، فإن ذلك يشير إلى أنها عند أكثرنا لاتعدو أن تـكون وسيلة من الوسائل . إن السماء تتخطى حدود التمدن ، وقد

يبلغ المجتمع قمة التمدن ، ومع ذلك يقصر عن بلوغ المثل الأعلى . ويترتب على ذلك أن الأمر الذى أنا مقدم على تعريفه ، أو الذى أحاول تعريفه ليس الخير المطلق ، ولكنه وسيلة معينة من وسائل الخير . وسوف أهتم فيما بعد بتقدير قيمته . أما فى الوقت الحاضر فيكفى أن نتفق على أنه مادامت المدنية خيراً ومادامت حالات العقل الخيرة تعد وحدها عادة غايات خيرة ، فالمفروض إذن أن تكون المدنية وسيلة كحالات العقل الخيرة ، وهذا بالطبع سبب آخر يدعونا إلى الابتهاج لأن أولئك الذين كانوا يقاتلون من أجلها هم أولئك الذين فازوا فى المعركة .

وإذا قلنا بأن المدنية وسيلة للخير ، فلنذكر أن ذلك ليس معناه أنها الوسيلة الوحيدة . وأرانى مضطرا إلى ذكر ذلك لأن الرأى أخيرا قد ساد بأنه ما لم تكن الوسيلة للخير هى الوسيلة الوحيدة ، فإنها لن تكون البتة وسيلة . ومن أجل هذا لم يظفر العلم برضى جماعة من المفكرين . ولعلى أستطيع أن أقول جماعة من الكتاب ، لغير ما سبب سوى أنه من رأيهم ، بل ومن رأى أكثر الناس ، أن الدنيا التى لا يكون فيها إلا العلم دنيا تنقصها العاطفة وينقصها الجمال ، كما أن الرأى الذى يقول بأن العاطفة والجمال والعلم قد تكون جميعها خيرا رأى — لسبب لست أدريه — يمقته العقل الخيالى الجديد المفزع ، سواء فى داخل البلاد أو خارجها . فالمدنية إذن ليست بالتأكيد هى الوسيلة الوحيدة للخير . ومادامت الحياة وسيلة ضرورية لحالات العقل بكافة ضروبها ، فهى وسيلة من وسائل الخير ، وحيث أن الشمس والمطر من وسائل الحياة ، فهما كذلك من وسائل الخير ، وليس من شك فى أن الحياة والشمس والمطر هى كذلك

من وسائل المدنية ، ما دامت المدنية بغيرها لا يمكن أن تظهر فى حيز الوجود . ولكنها ليست هى المدنية ، كما أنها ليست من وسائل الخير بمقدار ما هى من وسائل المدنية فحسب . بل إن الحياة والشمس والمطر والخبز والنبيذ والجمال والعلم والمدنية هى — فى الواقع — جميعا من وسائل الخير . وما ينبغى لنا أن نذكره هو هذا : إن الجمال وسيلة مباشرة للخير ، والمدنية وسيلة وسط ، فى حين أن الشمس والمطر والحياة نفسها وسائل بعيدة وإن تكن ضرورية .

وما كنت لأنفق المداد والورق فى هذا الغرض لولا أنى أدركت أنه يؤدى إلى غيره ، مطابق له ، ومع ذلك كثيرا ما يهمله حتى أولئك الذين يقبلونه فى صيغته الأولى الجلية الواضحة ، وبخاصة حينما يستحثوننا على أن نقوم بهذا العمل أو ذاك لصالح المدنية : ذلك أن المدنية لا يمكن أن تكون من وسائل الخير إلا إن كانت وسيلته الوحيدة . وبطبيعة الحال . لو كانت المدنية هى الوسيلة الوحيدة للخير ، لاستتبع ذلك أن يكون كل أمر يؤدى إلى الخير جانبا من جوانب المدنية . وحيث أن المدنية ليست كذلك ، فحرى بنا ألا نخطىء فى الاختيار والانتقاء . ليس من شك فى أن الجن (وهو نوع من أنواع الخمر) والكتاب المقدس من وسائل الخير إذا تناولتهما أيد ملائمة فى الوقت الملائم . ومع ذلك فنحن نتساءل إلى أى مدى يبرر التجار الأوربيون والمبشرون صحة دعواهم من أن ما يحملونه إلى البلدان المتوحشة هو من المدنية . وكثيراً ما كانت العقائد التى لا تنبنى على العقل ولا تتسامح ، والوطنية العمياء والولاء وسائل لحالات عقلية سامية ، وللخير تبعا لذلك ، بيد أنها ليست بالمدنية ، بل

لقد دلت على أنها فى أكثر الأحيان معادية لها . المدنية وسيلة معينة للخير . ويجب أن نحذر من أن نزعم بأن كل ما نحب أو نقدر جانب منها . يجب ألا نزعم أنها تشمل كل الفظائع المحببة إلى نفوسنا . فقد نؤثر إيثارا كبيرا أكل شريحة من لحم الضأن المحمر على دراسة الميتافيزيقا . بيد أنه من حماقة الرأى أن نسلم — على هذا الأساس وحده — بأن أكل اللحم من بين هذين العملين العجيبين أقرب إلى المدنية ، المدنية — وهى ليست الوسيلة الوحيدة للخير ، وليست مجرد وسيلة للخير — وسيلة معينة ، نستطيع أن نعتبرها عظيمة الأهمية ، استنادا إلى رأى ساسة الخلفاء ، وإلى أسباب هى عندى أكثر متانة وأشد صلابة . ولا زلنا — برغم هذا — بعيدين عن اكتشاف ماهيتها .

إن هذه الصفة « متمدن » كما يعلم أولئك الذين قضوا خير سنى حياتهم فى دراسة هذه الأمور من الناحية اللغوية ، مشتقة من حالة للمجتمع اسمها باللاتينية civitas اشتقاقاً صحيحاً شائعاً . وحتى منتصف القرن الثامن عشر كان الفرنسيون يشتقون وصفهم «المتمدن» من الاسم اليونانى «للمدنية» وعندما نتحدث عن عصر متمدن نقصد أن المجتمع الذى يعيش فى هذا العصر مجتمع متمدن . « المدنية » — على الأعم والأصح — تنسب إلى جماعة بشرية مؤتلفة منظمة وهى — فى استعمال أقل فى عمومه وفى صحته — تنسب إلى أشخاص ، أو مواطنين . غير أن العقل الذى لم يتدرب على التصريف والاشتقاق — حتى هذا العقل يستطيع أن يدرك أن المدنية فى الواقع لابد أن تكون من إنتاج الأفراد المتمدنين ، وأن

أى محاولة لفهم طبيعة هـذه الظاهرة أو لتعليـل وجودها تؤدى حتما ومباشرة إلى البشر الذين يبدعونها ويحافظون عليها ، والإدراك العـام المجرد — فوق هذا — يدلنا على أن الفرصة أمامنا للحكم على الأفراد أجدى وأقرب إلى الاحتمال بكثير من أية فرصة نأمل أن تتاح لنـا للحكم على هيئة غامضة متعددة الجوانب كالدولة أو المجتمع . الإنسـان قريب التناول ، وتستطيع أن تقول شيئاً يقرب من التحديد عن رغبات أو ميول جون سمث أو دى سنج ، ولـكن أى شىء دقيق تستطيع أن تقول عن بريطانيا العظمى أو الصـين ؟ إذا تحدثنا عن « شرف الصين » أو « مصالح انجلترا » فمن المستحيل أن نعنى شيئاً محدداً ، ومن غير المحتمل أن نعنى البتة شيئاً . فليست لجميع سكان بريطانيا العظمى نفس المصلحة ، وليست لجميع أهل الصين نفس المشاعر . ولـكنا نستطيع أن نعين فى وثوق العاطفة التى تتحكم فى رجل صينى بعينه ، وأن نتابع فى يقين نوعاً من السلوك يكون فى مصلحة سمث . ولو أن انجلترا امتنعت عن إعلان الحرب على ألمـانيا لمـا استطاعت أن ترفع رأسها مرة أخرى كما يعلم كل منا . ولـكنى أستطيع أن أقول أن سمث يستطيع أن يشمخ بأنفه .

ولما كان الأمر كذلك ، فربما يتوقع منى القارىء أن أبدأ بحثى فى طبيعة المدنية بأن أحاول الـكشف عن العناصر التى يتكون منها الرجل المتمدن ، ذلك هو الترتيب المنطقى ، غير أن هناك مايعوق اتباع هذا الطريق . ذلك أن الرأى العام قد يتفق كل الاتفاق على أن جماعات بعينها كانت متمدنة ، بل وضالعة فى المدنية . فى حين أن الرأى لا يمكن أن يجمع بهذه الصورة على الأشخاص . ولمـا كان مرماى البعيد أن

أكشف عن ماهية المدنية ، فإن أولى محاولاتى ستتجه نحو اكتشاف الخصائص التى تتميز بها الوحدات المتمدنة باعتراف الجميع . وإذا كنت سأبحث فى « الجماعة المتمدنة » قبل أن أبحث فى « الفرد المتمدن » فمرد ذلك إلى أن لدينا عن الجماعة المتمدنة « نماذج » يقرها العالم بأسره .

ولكنى لن أبدأ بهذا أو بذاك . بل سوف أبدأ بوحدات يعدها العالم طراً غير متمدنة . إذ لو صدق حكمى على خصائص هذه الوحدات لوجب أن أصل إلى نتائج معبرة سلبية لها أهمية أساسية . فسوف أعرف ما ليس بالمدنية ، ولا يمكن أن تكون إحدى خصائص الجماعة المتوحشة مميزا من مميزات الجماعات المتمدنة . لا يمكن أن تكون إحدى تلك الخصائص المميزة التى أبحث عنها والتى تفرق بين المدنية والوحشية . ولا يمكن أن تكون من روح التمدن . ولن أحاول أن أكتشف ما هى المدنية بالبحث عن روحها فى النماذج التى يقرها العالم طراً حتى اكتشف ما ليس بالمدنية . وعندما ألتمس — ان استطعت ذلك — صفات مشتركة فى هذه النماذج لا وجود لها فى الجماعات المتوحشة أكون قد انتهيت من الجانب الأول من عملى . عندئذ أكون قد اكتشفت الصفات المميزة للمدنية .

سوف أصوغ نظرية محكمة . وإن كنت أريد أن يشاركنى قرائى فيها فلابد أن أقيمها على فروض تبدو لهم عادلة . أعنى أنه لابد لى من أن أستخلص الخصائص المميزة للمدنية من النظر فى وحدات يقر لها الجميع بالتمدن أو بعدم التمدن . والوحدات الوحيدة — كما ذكرت من قبل —

التى يجمع الرأى فيها حقا على تمدنها أو وحشيتها هى المجتمعات : ومن ثم تحتم على أن أبحث عن الصفات المميزة فى المجتمعات لا فى الأفراد . فإن وجدت هذه الصفات استطعت أن أواصل البحث فى مصدرها الذى لا يمكن أن يكون إلا فى عقول الرجال والنساء . وإن جماعة من هؤلاء — كما سيتبين لنا — لهى المنبع الحق . وإذا أرسلنا خيالنا إلى حد البحث فيما إذا كنا بتعزيز الأسباب نأمل أن نضاعف النتائج — أى هل نستطيع أن نزيد من المدنية — فلا شك فى أننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى البحث عن الوسائل التى يمكننا أن نخرج بها أعدادا وافرة من أناس ذوى مدنية رفيعة . أما فى الوقت الحاضر فلابد لى من الاتجاه إلى المجتمعات أتلمس فيها الخصائص التى أبحث عنها ، ففى المجتمعات وحدها توجد النماذج التى يجمع الرأى على توحشها والنماذج التى يجمع على تمدنها . هناك من هذه المجتمعات اثنان أو ثلاثة على الأقل لا يمارض فى سمو مدنيتها أى فرد أصاب من التعليم قدرا معقولا . وسوف أتخذ هذه المجتمعات نماذج الكمال . وهناك ثلاثة أو أربعة مجتمعات أخرى كثيرا ما عدت من بين المجتمعات ذات المدنية الرفيعة ، غير أن حقها فى هذا الوصف محل تنازع خطير يستند إلى دواع قوية . ولذا فلن اتجه إليها .

وكما أن هناك مجتمعات متمدنة باعتراف الجميع ، فهناك أخرى يتفق العالم كله على وصفها بالوحشية ، وقد تعجب بهذه المجتمعات الوحشية . وقد تعشقها — أو تحسب أنك تعشقها — أكثر مما تعشق المجتمعات المتمدنة . غير أن الإجماع ينعقد على نعتها بالوحشية حتى إن علماء الانثروبولوجيا يقصدونها ليتلمسوا فيها حال الإنسان البدائى خلال تلك

القرون البعيدة أو العصور السحيقة حينما كان ينتقل من البهيمية أو على الأقل من العصر الباليوليتك إلى العصر النيوليتك . وقد قام هؤلاء الانثروبولوجيون العجيبون بدراسات دقيقة فى عادات ومعتقدات أكثر الناس وحشية من بين هذه الأقوام المتوحشة .ومن دراساتهم آمل على الأقل أن أعرف ما ليس بالمدنية ، ولنذكر أنه ما من صفة — مهما تكن شريفة — يمكن أن تكون من الخصائص المميزة للمدنية ، إذا كانت مما تتصف به الجماعات المتوحشة . إن المجتمعات المتمدنة قد تشاطر الجماعات المتوحشة مثل هذه الخصائص بطبيعة الحال ، وقد تتصف بها إما كصفات مشتركة بين أفراد البشر جميعاً ، أو كأثر من آثار البربرية. وكذلك قد تكون هذه الصفات ذات قيمة وجاذبية ، وقد يتصف بها كثير من الشعوب ذات المدنية الرفيعة أو أكثرها ولا تقتصر البتة على المتوحشين . ولكن حيث أنها ليست خاصة بالمجتمعات المتمدنة فلن تعيننا على التعريف . ومع أن بعض الخصائص التى تشاطرها الجماعات المتمدنة مع المتوحشين تشيع بين جميع المجتمعات المتمدنة ، إلا أنها ليست من مميزاتها التى تختص بها . وإنما نبحث عن الصفات المميزة — أو الخصائص . نريد خصائص شائعة بين جميع المجتمعات ذات المدنية الرفيعة تخلو منها الجماعات المتوحشة . ولا نأمل أن نعرف ماهى المدنية إلا بعد أن نستخلص هذه الخصائص

فواجبى الأول إذن هو أن أزيل الموانع من الطريق . يجب أن أستبعد تلك الخصائص التى كان من الممكن اعتبارها من علامات المدنية لولا أن أسفل القبائل المتوحشة وأشدها تأخراً تشاطر المجتمعات المتمدنة

فيها . ولهذا الغرض ينبغى أن أكتب فصلا علمياً ، يبحث فى أسفل
صفحاته بعض القراء الذين لهم حق التشكك فى علمى عن حشد غزير
من الحواشى . بيد أنهم سيبوءون بخيبة الأمل . ففى مقالة خفيفة سطحية
كهذه لا تجد الحواشى المستفيضة مكاناً لها . ولا بد أن يوجد منها القليل ،
ولكنه القليل فحسب . وقد رجعت فى أكثر ما ذكرت فى الفصل الأول
إلى ذلك المؤلف الثبت الذى وضعه وستر مارك تحت عنوان « أصل
الآراء الخلقية وتطورها » . هنا يجد القارىء المتشكك الدليل قائما على
كل حقيقة مذكورة . بل أكثر من هذا ، هنا يجد القارىء سرداً رائعاً
لعقائد الشعوب المتوحشة وأخلاقها ، سردا يستند إلى العلم الرصين .
مؤيدا بالمراجع العديدة ، وموضحا بالطرائف التى تأخذ بالألباب .
أما عن الحواشى فإن اعتراضى عليها فى الأدب الخفيف هو أنها تصرف
العين من جهة ، وهى فى أغلب الأحيان — من جهة أخرى — حيلة
للتخلص من العمل البغيض الذى يتطلبه تشكيل كتل جامدة من المادة
الخام فى صورة مقبولة . وإذا تسامحنا فى قبول عادة تكرار طبع المقالات
وجب أن نتسامح كذلك فى هذه الحواشى المطولة المزيدة . فهى تتمة
لا مفر منها للصحافة التى تزعم لنفسها الخلود . أما فى مقال خفيف ينم
عن الصياغة المجملة من أول لفظ إلى آخر لفظ فيه فهى عادة دليل على
الضعف وأمر يشق احتماله . ولست أكره التظاهر بالمعرفة . بل إنى
على النقيض من ذلك أشعر — كما يشعر غيرى — بالروعة التى يسبغها
على الصحيفة الاقتباس الموفق أو الاسم المهيب . وكذلك لن يفوت
على القارىء المستبشر الذى يتحول إلى عقيدتى راحة الضمير وثبات

العقيدة عندما يصادفه خلال النص بعض هذه الاقتباسات والأسماء الجليلة . ولكنى عندما اضطر إلى الإدلاء برأى من تلك الآراء التى تنتزع من القارىء المعادى صيحة يعبر بها عن تكذيبه ما أذكر — عندئذ فقط سأضطر إلى الإشارة فى هامش الكتاب كى أرد عن نفسى الاتهام .

من أجل هذا حاولت أن أدخل السرور على مثل هذا القارىء بوصف مقالتى هذه بالخفيفة السطحية . وأوكد أنها ستكون خفيفة بكل ما فى الكلمة من معنى . وربما كانت كذلك سطحية . ولكنى عندما استخدمت هذه الكلمة كنت أفكر قبل كل شىء فى أحدث دلالاتها . قصدت أننى سوف أحاول أن أكون مفهوما . وإنى لأعطف على أولئك الكتاب الذين أرغمهم الفقر أو مقتضيات الخدمة الحربية على الانصراف عن التعليم ، وإنى لأدرك تمام الإدراك لماذا يعرضون عن أولئك الذين كان هدفهم التعبير عن الآراء فى بساطة ووضوح وإيجاز بقدر الإمكان . إن أمثال هذه الأساليب اليائسة تختصر أطول الكتب التى ألفها كثير من خيار أنبيائنا إلى صفحات قلائل . فإذا لم يكن لديك الزبد الذى تكسو به الخبز فإنك لا تستطيع أن تكسو خبزك بطبقة رقيقة منه . وفى مثل هذا القحط ، لا يكون بوسعك إلا أن تغوص فى الرغيف متعجبا . ويسمى هذا فى الأدب تعمقاً . وبالرغم من أن هناك من القراء من يغوص إلى أعمق الأعماق فلا يلاقى هناك أصغر ذرة من الزبد الصناعى فيتشجع على وصف هذه الأعماق بالفراغ — برغم هؤلاء نجد أن

الأسلوب العميق يلقى التقدير عادة فى أجزاء من أوربا وأمريكا يتصف أهلها بالنشاط وخفة الحركة . وعلى أية حال فإن صنات الفيران العمياء التى تثقب الأرض وعمال المناجم الذين يغوصون فيها هى عندى من قبيل التظاهر . ثم إن مقالا من هذا النوع — فوق هذا — يختلف عن الشعر الحديث والفلسفة والخيال الفلسفى الحديث فى أنه لا يأمل أن يلقى إعجاباً من ذلك الجمهور الضخم الذى يغفل — خلال بحثه عن الحياة — كل الفوارق الدقيقة بين الكلام المعقول والكلام الفارغ . إنى لا أجرؤ أن أكون عميقاً . وأصارحكم القول أن كاتب هذا المقال كان يود أن يدبجه بكل ما أوتى منتسكيو وهيوم وفلتير من وضوح قليل الغور لو أنه عرف سر سطحيتهم .

وسوف أحاول أن أكون مفهوماً لأنى أود أن يدرك القارىء ما أقول . ولنفس هذا السبب سأكرر ما أقول ، وكان من الممكن أن أتعلم من لوحات الإعلانات — من زمان بعيد — إن تكرار القول هو وسيلة الإقناع . ولكنى فى حداثتى كنت غراً لا أفهم الناس ، فكنت أعتقد أنى لكى أنقل إليهم ما أريد ليس علىّ إلا أن أذكره مرة واحدة فى وضوح . وكان فى دار النشر لأصحابها السادة شاتو وونديس رجل فى مثل سذاجتى ، اطلع على مسودات كتابى الأول عن « الفن » فأشار فى رقة بالغة إلى أننى فى نقطة من نقاطه — تعريف العمل الفنى — ربما بالغت فى التكرار . نعم لقد فعلت : و « القارىء » كفرد فقد كان مصيباً كل الصواب ، ولكنه كان مخطئاً باعتباره ناشراً ، بل إنى لم أكرر القول بالقدر الكافى للجمهور . وما برح النقاد والأكفاء فى انجلترا وأمريكا

حتى اليوم يذكرون أنى قصدت « بالعمل الفنى » ما قلت على وجه الدقة مراراً أنى لا أعنيه . ومن ثم فإنى أرجو أى قارىء يلاحظ أنى فى هذا المقال أكرر القول مراراً أن يتفضل بنسبة ما عند المؤلف من إملال إلى خصيصة من خصائص القراء عامة — خصيصة لست بحاجة إلى أن أقول أن السيدة أو السيد الذى تسوقه المصادفة إلى مطالعة هذه الكلمات لا يتصف بها .

— ٢ —

ما ليس بالمدنية

ليس احترام حقوق الملكية من خصائص المجتمعات المتمدنة وحدها.
حقاً إن الحيوان ليس لديه هذا الاحترام ، كما أنه ليس لديه آلات من
حجر الصوان . وعند الإنسان المتوحش هذا وذاك ، وهذا ما يميزه من
الحيوان ، ولكن لا يجعله إنسانا متمدنا . إن آلات الصوان واحترام
حقوق الملكية قد تكون من وسائل المدنية ، غير أن الإحساس بهذه
الحقوق لا يمكن أن يعد خصيصة من خصائص المدنية ، شأنه فى ذلك
شأن آلات الصوان. بل إن كثيرا من الأغنياء والمفكرين اعتنقوا رأيا
يناقض هذا الرأى . غير أن وستر مارك يقول لنا إن قبائل متوحشة
عديدة عندها من دقة التفرقة بين « مالى » و « مالك » ما عند قاض
انجليزى ، وتكاد السرقة أن تكون مجهولة بين هنود أمريكا الشمالية حتى
جاء الجنس الأبيض الذين من الإنصاف أن نذكر أنهم بذلوا قصارى
جهدهم فى موازنة أى ضرب من ضروب الانحلال الخلق ربما أدخلوه
معهم بإرسال المبشرين يذكرون الأهالى بأن العقوبة الأزلية تنتظر أولئك
الذين يخالفون الوصية الثامنة. وعلى أية حال يجب ألا نظن أن الاعتقاد
فى الله والحياة الآخرة مقصورة على المتمدنين — وليس هذا الاعتقاد

هو خاصيتهم الأولى . بل على نقيض ذلك ، نجد أن لدى معظم الأجناس المتوحشة عقيدة حية فى الالـه ، وكثير منها يأ كله . وأحط سكان الغابات بإستراليا — وربما كانوا أشد المتوحشين توحشا — يعتقدون فى وجود كائن أعلى يضع القوانين الخلقية ويحكم بينهم ، بل إنهم ليسمونه « الأب » ويعبدونه فى صورة سيد عجوز . إن المتوحشين قلما ينكرون وجود الله . وهم مثلنا يتطلعون إلى مستقبل أعظم .

وفى المجتمعات العامة سمعت السيدات يقلن إن مقياس مدنية الشعوب هو المكانة التى تخص المرأة بها . ترتفع المدنيـة أو تنخفض بارتفاع مكانتها أو انخفاضها ، غير أن هذا يخالف الواقع . فإن للمرأة عند سكان جزر اندمان ، وعند البوشمان والفيدا — وليس بين الناس من هم أقرب منهم إلى الحيوانية ، كما يقول وسترمارك — اعتبارا أكبر مما كان لها عند الأثينيين لعهد أرسطو . وبينما نجد أن الذكور فى كثير من القبائل المتوحشة — برغم حيوانيتهم يستكينون لزوجاتهم ويضعونهن فى مستوى يدنو من مستواهم ، كان الصينيون فى عصر تانج وعصر سونج — وهما العصران اللذان اشتهرا بالمدنية — لا يرفعون زوجاتهم فوق قدر الماشية إلا قليلا . ومن الواضح حقا أن كثيرا من أكلة لحوم البشر يمتلكون عددا لا يحصى من الفضائل العائلية ، إذ يتصفون بالرفق والأمانة والجـد ، والكرم مع أفراد قبيلتهم ، والجود مع الإغراب . ويترتب على ذلك فيما يبدو أن ما عند عامة البريطانيين من فضائل ليس خاصا بالجماعات المتمدنة . وكثيرا ما أذهل المكتشفين صدق المتوحشين . ويقال إن الفيدا من أهل سيلان نماذج تحتذى فى الصدق ، والاندامان الجـزريون والبوشمان « يعتبرون

الكذب إثما كبيرا » فى حين أن سمعة الإغريق وأهل كريت سيئة فى هذا الصدد ، وفى حين أن سكان قارة أوربا يصفون بريطانيا العظمى بصفة خاصة ، إذ يطلقون عليها «الغادرة» . وكثير من المتوحشين لا يتصفون بالصدق فحسب ، بل يتصفون كذلك بالنظافة . فالميجى ، وهم شعب ساحل الذهب البائس ، الذين يخضعون لأولئك المتوحشين المعروفين باسم منبتى « يغتسلون مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم » ويغتسلون اغتسالا كاملا. فكم أوربى من نهاية الإمبراطورية الرومانية حتى اعتلت الملكة فكتوريا العرش اغتسل اغتسالا كاملا مرة فى كل عام ؟

كما أن عادات كثير من الشعوب المتأخرة فيما يتعلق بذلك الموضوع الهام — موضوع الأخلاق الجنسية — ليثير فينا الحقد إزاءهم . إن شأنهم فى ذلك شأن بزول « ينظرون إلى الزنا بعين الفزع » فالقبائل التى تقطن غابات البرازيل — على سبيل المثال — تتزمت فى التزام الزواج من واحدة ، وكذلك يفعل الكثير من قبائل كلفورنيا . ومن المؤلم بل ومن العجيب أن البروفسور وسترمارك - برغم هذا يصف هذه القبائل بقوله «إنها من جنس منحط وضيع .. وهى من أحط القبائل على وجه الأرض» « والكاردوك لا يسمحون بتعدد الزوجات حتى لزعمائهم ، وقد يمتلك الرجل ما يستطيع شراءه من إماء ، إلا أنه يجلب على نفسه العار لو أنه عاشر أكثر من واحدة» . فإن ذلك يشبه عندهم أن يضاجع الرجل المتزوج طاهيته . ولست على ثقة تامة بما يعنى الأستاذ وسترمارك بقوله بأن الزواج من واحدة بين قبائل الفيدا والاندمان الجزريين قاعدة يصر الرجال على التزامها بصرامة إصرار الرجال فى أية بقعة من بقاع أوربا ،

ولكن الأهالى فى كارنيكوبار — على الأقل — لا يجلبون اللوم على أنفسهم فى هذا. فالرجل من هؤلاء المتوحشين المحترمين له زوجة واحدة ، ويعتبر انعدام العفة إثما مميتا، ويعاقب عندهم — وعند كثير من القبائل المتوحشة الأخرى — من يخالف هذه القاعدة بالنفى أو بالموت . يقول وسترمارك « مما يستحق الذكر إنه ينتمى إلى هذه المجموعة من الشعوب (المجموعة ذات الإحساس الرقيق فى هذه الأمور) متوحشون من طراز منحط كالفيدا من أهل سيلان ، والايجوروت من أهل لوزون ، وبعض القبائل الاسترالية » . وكان يحق له أن يضيف إلى ذلك أنه مما يستحق الذكر أنه بينما يعتبر أسفل المتوحشين انعدام العفة جريمة شنيعة ، فإنها كانت تعتبر فى أزهى عصور التاريخ زلة صغيرة على أسوأ تقدير . وخلافا لما كان عليه أهالى كارنيكوبار كان أعمق الناس فكرا وأشدهم حساسية فى ألمع العصور التاريخية يغضون الطرف عن خطيئة الزنا الشنيعة . بل لقد نادى أفلاطون بشيوعية النساء . وكان للعفة وزن خفيف فى حلقة القبياديس ، وبلاد هادريان ، وحدائق مديشى ، وفى الصالونات التى صاغ فيها فولتير وهلفيشيس وديدرو نمطا عقليا جديدا بشروا فيه بفلسفة اللذة . ويبدو أن سقراط وشيكسبير ورفائيل وتيتيان وقيصر ونابليون ودوق ولنجتون وجورج اليت ذاتها قد عاشوا حياة تجعلهم غير صالحين لأحسن مجتمعات إيجوردت فى لوزن . ولم تكن الحال خيرا من هذا فى العصور العظيمة من تاريخ الصين . ولذا ، فحيث أن أهالى كارنيكوبار يعتبرون انعدام العفة إثما مميتا ، فنحن مرغمون على الحكم بأن العفة ليست خصيصة من الخصائص المميزة للمدنية .

ودعنا لا نداهن أنفسنا فنحسب أن حب الوطن فضيلة من فضائل

المدنية المميزة لها . فقد عرف بها هنود أمريكا الشمالية ، حتى لقد قال كارفر عن النودواسيس : « إن أول عاطفة وأقواها تملكا لقلوبهم هي الشعور بشرف قبيلتهم ، وسعادة أمتهم » . وكتب ماك جريجور عن اليوروباس في غربي أفريقيا يقول « ليس بين البشر جنس أشد منهم إخلاصاً لبلده ، ومع ذلك فهذه القبيلة — إن صح ظني — قد اتهمت بأكل المبشرين ، وكذلك « كثيرا ما يموت السلومون الجزريون من الحنين إلى الوطن وهم في طريقهم إلى مزارع فيجي أو كوينزلاند » وطبقاً لما يقول مستر وليامز أخذ أحد أهل فيجي عند زيارته للولايات المتحدة — بناء على أمر من سيده — يعدد الأوجه التي تتفوق فيها هذه البلاد على بلده ، فأسكته على الفور المستمعون من أهل وطنه ، وصاحوا قائلين « إنه رجل ثرثار وقح : اقتلوه » ومهما يكن من الأمر في موضوع العفة ، فإنه من الواضح أن شعلة الوطنية تتأجج ناصعة في جزر فيجي كما تتأجج في أي جزء من أجزاء أوربا . وبالرغم من أنه قل من الأمم الحديثة من يتعلم منهم الكثير ، فإن كثيرا من الشعوب المشهورة من قديم ربما أفادت من مثالهم . فأهل الصين مثلا سرعان ما تعلموا — بعد عهد كنفيوشس — من فلاسفتهم أنه يجب علينا أن نحب الناس جميعاً على السواء . « وطبقا للكتاب الهندى المسمى بانشا تنترا أنه لا يعتبر الرجل واحداً منا أو غريبا عنا إلا ذوو العقول الضيقة » . وقد قال ديموقريطس الأبدرى « إن كل بلد مطروق عند الرجل الحكيم ، وأن الأرض بأسرها وطن كل من كان له قلب كريم » . كما أن القورنيائيين والكلبيين الأواخر عدوا الوطنية سخرية من السخريات ، وتطورت

عقيدتهم إلى تلك العالمية الرواقية المتسامحة التى اعتنقها سنيكا وابكتيتس وماركس أوريليس . وكان حكم فلتير النهائى وهو يتكلم عن الحرب « أنه من الجلى أن بلدا من البلاد لا يكسب إلا إذا خسر الآخر ، ولا يستطيع أن ينتصر دون أن يخلف كثيرا من البائسين » .

وأعتقد أنه يجب أن نقر أن الإحساس بحقوق الملكية ، والصدق ، والنظافة ، والاعتقاد فى الله والحياة الآخرة والعدالة الأبدية ، والشهامة ، والعفة ، بل والوطنية ، ليست جميعاً بين الصفات المميزة للمدنية ، وإن تكن — برغم هذا — من وسائل المدنية ، بل ومن وسائلها القوية الفعالة . ومن الواضح أن روح المدنية شىء لم يحققه المتوحشون ، ومن ثم فلا يمكن أن يتوقف على الفضائل البدائية ، وأن المفارقة بين المتوحش النبيل والرجل المتمدن التى جرت على الألسن فى المائتى سنة الماضية لتدل على إجماع الرأى على أن المدنية ليست إنتاجا طبيعياً . ويجب أن نتوقع أن يكون لها شأن بالصفات التى اكتسبتها الإنسانية أخيراً — الشعور بالذات وروح النقد . يجب أن نتوقع أن تكون نتيجة من نتائج التربية . فالمدنية شىء مصطنع .

غير أن هناك رأياً متخلفاً يستند أساساً على علم ناقص يتمشدق به المدّعون وأنصاف المتعلمين . والمدنية بناء على هذا الرأى تتوقف على الخضوع المطلق لقانون الطبيعة [1] . والشعار الذى ينادى به أصحاب

(١) يؤكد لى صديقى مستر ريموند مورتمر الذى تخرج فى اكسفورد من وقت ليس بالبعيد إن أصحاب هذا المذهب لا وجود اليوم لهم . وقد يكون مصيباً . وأرجو أن يكون مصيباً . غير أنى أؤكد أنى حينما كتبت هذا كنت أفكر فى جيل سابق كما أفكر فى حالة عقلية كانت تسود منذ خمسة وعشرين عاماً .

هذا الرأي هو « خل الطبيعة وشأنها » : إن مملكة الحيوان ومملكة النبات هما مثال التمدن . وهم يقولون بأن الإنسان قد أفسد الأمور لأنه لم يسمح للأصلح بالبقاء : ولن نكون حقاً متمدنين حتى نترك الضعيف للموت وحتى نقر بصفة رسمية أن القوة هي الحق . عندئذ يرث الأرض الصالحون. وهنا يتبادر إلى الذهن بالطبع هذا السؤال: ومن هم الصالحون ؟ إذا كان الناقصون من الناحيه الجسمانية قد نجحوا في تنظيم المجتمع بحيث أصبح طلبة جامعة لندن لا يخشون بأس رجال الشرطة الذين يحدقون بهم ، أفلا يجوز أن يكون ذلك لأن الناقصين من الناحية الجسمانية هم المتفوقون في الناحية العقلية ؟ وإذا وثقنا فيما روته كتب المراجع فقد كان التطور نتيجة للسكر كما كان نتيجه لقوة الأعصاب . ألم يكسب الإنسان ذلك الحيوان الثدي الضعيف في معركة البقاء مالم يكسب الماموث الضخم العظيم ، وحتى بين بني الإنسان ربما لم يبق إلا من كان أصلح للبقاء . يبدو لي أن حجة الطبيعيين متناقضة ، إذا كان بقاء الأصلح من قوانين الطبيعة ، فإنا نستطيع أن نفترض أن الأصلح للبقاء هم الباقون فعلا . وليس من غير المحتمل أن تصبح الحرب الحالة الطبيعة للبشر ، وإذا كان الأمر كذلك فإن المستقبل سوف يكون مع أولئك الضعفاء الماكرين الذين يكيفون أنفسهم لظروفهم بابتداع الوسائل التي يتحاشون بها الخدمة العسكرية ، كما حدث في العصر الجليدي أن بقيت تلك الأنواع التي عرفت كيف تحمي نفسها من حدة المناخ . يقول طلاب العلم « لقد تدخلتم مع قانون الطبيعة » ، ونجيبهم بقولنا « هذه هي طبيعتنا » .

وأخشى أن يطرق أذن العالم البيولوجي المتحمس كلامي هذا كما

لو كان سفسطة وشراً. وإذا ما أدرك أنه ينهزم فى الجدل فالأرجح أن يلجأ إلى قواعد الأخلاق. وقل من يستطيع أن يتكلم بنغمة خلقية عالية مثل رجل العلم الذى لم يتم نضوجه. فهو يصم — وضميره مطمئن — بالميوعة والتقلب والخيانة والجبن والوضاعة والسخف والاندفاع وراء العاطفة والشر المطلق — يصم بهذا كل من يعتقد أن من واجبنا ألا نهمل الكسيحين من الأطفال حتى الموت، وألا نخنق الفنانين المصابين بالدرن، وألا نكل إلى البروفسور راى لانكستر اختيار حبيباتنا. يقول هؤلاء العلماء ساخطين « ينبغى لنا »، ولكننى أتساءل أليسوا فى هذا أيضا متناقضين؟ ليس فى الطبيعة ما « ينبغى »، وإنما فيها ما « يكون ». حينما يقول العالم البيلوجى إنه لاينبغى لنا ألا نتدخل مع الطبيعة، فهو يزن الرأى وزنا خلقياً لا طبيعياً. وإذا كانت المعايير الخلقية تتخذ أدلة فى صالح قانون الطبيعة، فهى يمكن أن تتخذ أدلة ضدها بنفس القوة، فنستطيع أن نقول إنه مما يؤذى حسنا الخلق أن نقتل الأطفال والشعراء والمصابين وكل من يفقد الأمل فى بلوغ المستوى (ب — ١) من الكفاية، فإن مثل هذا العمل لايؤدى فى حكمنا إلى حالات عقلية طيبة. ويقول طالب العلم عابساً « حسنا. ولكن ثقوا أن الإنسان إذا رفض أن يطيع قانون الطبيعة لابد أن يهلك». فنجيب قائلين: وإذا كانت الغاية والغرض الوحيد من وجود الإنسان ليس إلا أن يحافظ على نوعه، وإذا لم تكن للفرد قيمة إلا أن يكون وسيلة لهذه الغاية، فهل يكون ذلك أمراً ذا بال؟ إنه إذا تحتم على أى نوع من أنواع القردة أن يفنى فإن ذلك لا يعنى البتة شيئاً، وإذا كان الإنسان لايعيش لأى غرض سوى مايعيش من أجله القردة فإن استمرار

بقائه يصبح كذلك عديم الأهمية . أما إذا سلمنا بأن الإنسان يعيش من أجل غرض آخر غير الاحتفاظ بنوعه انهار البناء الشامخ كله من أساسه. إذ ربما كانت من أجل هذه الأغراض الأخرى عينها حمايتنا للضعيف واحترامنا للفرد .

إن المشكلة التي أردت أن أجلوها لمصلحة طالب العلم في ساوث كنزنجتن هي هذه : إما أن يكون الحق فيما هو كائن ، أو أن الإنسان أوسع معرفة من الطبيعة ، وليس في الحالة الأولى مايدعو إلى الاعتراض أما في الحالة الثانية فإن لدى العالم البيولوجي مجالا أوسع للاعتراض . فالماستدون (حيوان منقرض يشبه الفيل) بعدما فشل في نضاله من أجل البقاء ، تلاشى من الوجود ، وأخذ مكانه نوع آخر يحمل رسالته، رسالة الاحتفاظ بالجنس ، وهكذا سارت الأمور سيراً حسناً . وكذلك إذا فنى جنس علماء سوث كنزنجتن ، وحل محله جنس آخر أقدر منه كفاية من الناحية البيولوجية ، فماذا يكون الضرر من ذلك؟ إن الأمور هكذا تسير كذلك سيراً حسناً ، ويتحقق غرض الطبيعة . لماذا نأخذ على عواتقنا الاحتفاظ بعلماء سوث كنزنجتين مالم نعتقد أن هدفهم يختلف عن هدف الطبيعة ويدق عنه ؟ هنا يقاطعني القارىء متسائلا : « لماذا تفضح نفسك بهذا الانفعال وتلك الإطالة ؟ لا شك أن عبارتين اثنتين كانتا تكفيان لإقناع أي فرد بأننا لا نعني بالجماعة المتمدينة نوعاً كامل التنظيم لمجرد الاحتفاظ بنفسه ؟ أليست النمال كذلك ؟ .

بقي أمراً أو أمران آخران يصح أن نشير إلى أنهما ليسا من المدنية .

فهناك مثلا الحيل الميكانيكية المعقدة . إنها ليست من روح المدنية كما ظن بعضهم . ومن الغباء والخيانة الوطنية أن نحسب أن ألمانيا قبيل الحرب كانت أرقى مدنية من فرنسا برغم أن الألمان فى تطبيق العلوم على الصناعة كانوا يفوقون كل الأمم ، ربما باستثناء شعب الولايات المتحدة . ولا يتصور أحد أن ملبورن تبلغ اليوم ما بلغت أثينا فى عصر بركليز . ونحن على ثقة من أن آخر من يقع فى مثل هذا الخطأ هم أرقى المتعلمين من أهل هذه المدينة العظيمة المضاءة بالكهرباء ، والتى يسير فيها القطار والترام . إن كثيراً من الفرنسيين يقرون مرغمين أن باريس نفسها فى الوقت الحاضر أقل مدنية من أثينا لعهد بركليز ، والفرنسيون جميعا ، بل وكل المتعلمين من الأمريكان ، يتفقون على أن باريس الحديثة أرقى مدنية من نيويورك فى حين أن أحداً لا ينكر أن باريس متخلفة فى طرق النقل والمواصلات ، وفى الإضاءة والتنظيمات الصحية .

اعتدت بعد الحرب الروسية اليابانية مباشرة أن أتناول عشائى فى مطعم بحى سوهو ، حيث اعتادت فئة من صغار الشبان المثقفين أن تجتمع مرة كل أسبوع بأحد الضباط البريطانيين الجذابين المتواضعين الذين عاشوا طويلا فى عالم من واجبهم أن يتغابوا فيه حتى ينسوا تماماً مبلغ ما لديهم من ذكاء . وأذكر أننا شرعنا نناقش موضوع هذه المقالة « ما هى المدنية ؟ » وكانت الفابية متقدمة جداً فى ذلك الحين ، وأكد بعضنا أنه لا يجوز أن يوصف المجتمع بالمدنية إلا أن عنى بالفقراء والمرضى والمجانين ، ورأى بعضنا (وكانت الجماعة تضم بعض السيدات) أنه ينبغى أن يكون فى الجماعة المتمدنة صوت لكل من يبلغ سن الرشد .

ورأى آخرون أن الشعب المتمدن حتماً يجب أن يمنح كل شاعر وفنان خمسمائة جنيه فى العام ، وأن ينشىء معارض للصور فى مدن الأقاليم — ورأى آخرون غير هذا وذاك ، ولكن ربما لم تعد لآرائهم من الأهمية اليوم ما كان لها فى ذلك الحين . وأما الضابط فقد قال : « لا أستطيع أن أقول لكم ما هى المدنية ، ولكنى أستطيع أن أقول لكم متى يقال عن الدولة أنها متمدنة . إن أولئك الذين يتفقهون فى هذه الأمور يؤكدون لى أن اليابان كان لها خلال مئات السنين فن رائع وأدب عظيم ، ولكن الصحف لم تذكر البتة أن اليابان متقدمة فى المدنية حتى اشتبكت فى حرب انتصرت فيها على دولة أوربية كبرى » . وكان لهذه السخرية موضعها ، ولكن الضابط الهمام نفسه ربما كان آخر من يعتقد أن الكفاية فى التسليح هى فى الواقع مقياس للمدنية . وإنى واثق من أنه يستنكر أشد الاستنكار أن يكون البرابرة الذين اجتاحوا الامبراطورية الرومانية قوما متمدنين ، أو أن التتر الذين قهروا أسرة سنج وهدموا فى أواسط آسيا الثقافة الإسلامية كانوا أكثر من زمرة من الوحوش الضارية . وكنت أستطيع أن أقنعه ببعض الأمثلة . وكنت أستطيع أن أجابه أولئك المحبين للبشرية بهذه الأمثلة التى تحير اليوم — أو ينبغى أن تحير — كل من يقيس التمدن بالتقدم الآلى . أما ذلك الذى (أو تلك التى) يعتقد أن المجتمع المتمدن هو المجتمع الذى يكون لكل بالغ فيه صوت فإنه (أو فإنها) إنما يتحدث كلاما خلوا من المعنى بشكل جلى . إن النظم السياسية قد تكون من وسائل المدنية وقد لا تكون . ولكنها ليست من روحها . وكثير من القبائل المتوحشة يحكمها زعماء مستبدون فى حين

أن غيرها يبدو ديمقراطيا ، وقد كانت أثينا فى أزهى عصورها أوليجاركية من المواطنين الأحرار يعيشون على كدح عبيد ليس لهم حق التصويت . وكادت فرنسا فى القرن الثامن عشر أن تكون ملكية مطلقة . فنحن على ثقة من أن المدنية تتعلق بشيء أبعد غورا من أشكال الحكومات .

لقد نجحت الآن — بدرجة ارتاح إليها — فى أن أبين أن بعض الصفات التى يظن فى بعض الأحيان خطأ أنها من خصائص المدنية ليست — فى الواقع — منها فى شيء . وقد حاولت أن أستبعد كل ما ليس بالضرورى . ورأينا أن الفضائل البدائية لا تتنافى وحالة الهمجية ، وأن الأسماك الهلامية تطاوع قانون الطبيعة . ورأينا أن المجتمعات المتمدنة — أو المجتمعات الهمجية — لا يسودها نظام معين من النظم السياسية ، كما رأينا أن القبائل المتوحشة قد أحرزت انتصارات عظيمة وتغلبت على دول قوية . ورأينا أن تلك الجماعات التى يقر لها الرأى العام بين المتعلمين فى العالم طرا برقى المدنية لم تبلغ فيها جميعاً المخترعات الميكانيكية أو النظم التى تؤدى لخير الإنسانية درجة من الكفاية المرموقة — وإن كنت فى هذا أمس موضوعا يتعلق بفصل آت من فصول الكتاب . وسأبحث فى الفصل الآتى عن الصفات المميزة المشتركة التى تتصف بها الجماعات التى يقر لها الرأى العام المثقف فى العالم طرا برقى المدنية . وسوف أعتبر هذه الصفات أسس المدنية . ولذا فإن كل من لا يشاطر الرأى العام المثقف الاعتقاد فى المدنية الرفيعة لدى هذه المجتمعات سوف لا يجد ضرورة لما أصل إليه من نتائج ما دام ينكر ما ابتدأت به من مقدمات . وسوف لا تكون لهذه المقالة عنده قيمة أكثر من أهميتها من الناحية العلمية .

وإنى لأزعم — بناء على إجماع الرأى العام المثقف الذى يكاد أن يكون شاملا — رقى المدنية فى مجتمعات ثلاثة مختلفة .

ولست أزعم ، بل ولا أحلم أنى أزعم، أن هذه المجتمعات وحدها هى المتمدنة . إنما اخترت المجتمعات الثلاثة التى يبدو لى أنه ليس على رقى مدنيتها أى نزاع ، والتى تصادف إنى أعرف عنها بعض الشىء . هناك مجتمعات لها حق قوى فى أن تعد من المجتمعات المتقدمةفى المدنية، غير أن هناك من يدلى إزاء هذا الحق بحجج قوية تنافيه ،ومن الواضح أنه لا ينبغى لى أن اتجه إلى هذه المجتمعات باحثاً عن مميزات المدنية، كما أن هناك مجتمعات أخرى ، نسلم جميعاً بتمدنها ، بيد أنه عند البحث يتبين لنا أنا لا نعلم عنها إلا القليل حتى أنا لا نكاد نستطيع أن ننسب إليها صفات معينة ونحن واثقون . وإنى لأشعر — رغم هذا — أن كثيراً من الناس يصرون على الإضافة إلى القائمة التى تخيرتها . وإنى لأرجو هؤلاء الناس ألا يعارضونى فيما وصلت إليه من نتائج حتى يتثبتوا من أن الصفات المشتركة بين المدنيات الثلاث النموذجية التى تخيرتها لا تشاطرها المدنيات التى يودون إضافتها .ولست أرى داعياً لأن نعتبر ما بيننا خلافاً أساسياً ، حتى إن هم رأوا من الضرورى أن يدخلوا بالإضافة أو بالنقصان تعديلا فى القائمة التى قدمتها عن صفات المدنية . فسوف يظل بيننا ميدان مشترك يكفى لتدعيم تعريفى . وسوف نرى .

— ٣ —

نماذج الكمال

اعتاد المؤرخون الذين ينهجون النهج القديم ، والذين يتميزون بأسلوب منمق ممتع فى معالجة الماضى أن يحددوا فى بيداء التاريخ أربعة عصور من المدنية الرفيعة : العصر الأثينى (بل يجب أن أقول العصر الأيونى، إذا أردت الدقة ، ولكنى لا أعتزم أن أكون دقيقاً) من موقعة ماراتون فى عام ٤٨٠ ق.م حتى وفاة الإسكندر فى عام ٣٢٣؛والقرنين الأول والثانى من الامبراطورية الرومانية،وإيطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر،وفرنسا من نهاية الفروند (١٦٥٣) حتى عصر الكاتب، إن كان الكاتب — مثل فلتير — يكتب فى القرن الثامن عشر ، وحتى الثورة إن كان يكتب فى القرن التاسع عشر . ولا أحسب أن شخصاً متعلماً من الأحياء — رجلا كان أو امرأة — ينكر رقى المدنية فى ثلاثة من هذه العصور الأربعة . ولكن كثيرين يترددون عند ذكر اسم روما،وآخرون يحبون أن يضيفوا تانج وسنج ، وما يعرف معرفة غامضة ، أو يُتحدث عنه باسم المدنية الفارسية. ويكاد الكل أن يجمع على أن يضع المدنية الأثينية على رأس القائمة ، غير أن بعضهم يحدد هذه التحفة الاجتماعية بذلك المدى الضيق الذى يمتد خلال ستين عاما مشرقاً ما بين ٤٨٠ وعام ٤٢٠ ،

ويطلق عليه عصر بركليز ، في حين أن بعضهم الآخر يطيل المدى حتى أرسطو والاسكندر ، ويمده إلى الوراء حتى سولون . إنني لا أرضخ لأحد في إعجابي بالقرن السادس فيما بلغ من فن النحت الذى أعده أعلى مظهر من مظاهر عبقرية الفنون التشكيلية عند الإغريق ، وإعجابي بالحركة العقلية القوية التي منها ينحدر كل تفكير حديث جدى ، وبرغم هذا فإني أشاطر الرأى العام عزوفه عن وصف القرن السادس بالمدنية الرفيعة . في حين أني أخلع هذه الصفة دون تردد على القرن الخامس ، وبغير تردد شديد على القرن الرابع . وينطوى هذا الاحساس — الذى أعتقد أن أكثر المتعلمين يشاطروننى إياه — على أهمية كبيرة : ذلك أننا نحس أن مدنية عصر من العصور لا تقاس كلية بجمال فنها أو بروعة فكرها . إنا نشعر — أو أنا على الأقل أشعر — أن عصر المدنية الأثينية الرفيعة لا يبدأ قبل ماراتون ، في حين أني لا أستطيع أن أقر بأن هذا العصر ينتهي قبل موت أرسطو في عام ٣٢٢ ، وإن كان يؤلمني أن أعرف انحطاط الفترة التي تلت الحرب في يتمظتها العامة ، وفي المذاهب الخاصة وأن يكن ذلك بدرجة أقل . أما الفترة التي تقع بين سولون واندحار الفرس نهائيا فهي تبدو لى — كما تبدو لأكثر الناس — فترة عظيمة ، ولكنها ليست كاملة التمدن . في حين أن الفترة التي تقع بين سقوط الديمقراطية الأثينية وغزوات الإسكندر فهي أقل عظمة ولكنها أرقى في سلم المدنية . ومهما يكن من أمر ، فانه لا يحتمل الآن أن ينكر أحد ذلك الشرف الذى قد تخلعه هذه العبارة « المدنية الرفيعة » على عصر أفلاطون ، وما تلاه من عصر أرستوفان وبراكسيتيلس وأرسطو . وقل من ينكر أن هذه الفترة جزء لا يتجزأ من المدنية الأثينية العظيمة التي سوف أعود إليها

بين الحين والحين ، والتى لا بد بحق أن يدرسها فى تعمق وبعقل متفتح كل من يأمل أن يكتشف طبيعة المدنية .

ومن المؤكد أن حق أى فترة من فترات التاريخ الرومانى فى احتلال مكانة بين عصور المدنية الكبرى — من المؤكد أن هذا الحق يلقى اليوم اعتراضا حارا ذا أثر بالغ . ولن تجد بين النماذج الكاملة للمدنية التى أقدمها فترة رومانية . ولو أنى لخصت هنا الحجج التى أقنعتنى أنه لا يجوز قبول إحدى هذه الفترات ، فمن الواضح أنى أتعجل بذلك فى ذكر نتائج أرجو أن أبلغها بعد قليل . وما دمنا لم نقرر بعد ما هى صفات المدنية فلا أستطيع أن أزعم أن روما كانت تخلو من هذه الصفات ، وكل ما أستطيعه أن أشير إلى الدليل الذى حدا بى إلى إساءة الظن بالعقل الرومانى والإحساس الرومانى . ولنذكر أن ذلك كله لا يقوم دليلا — ولا ينبغى حقا أن يكون — ضد حق روما فى المدنية الرفيعة . ولا يصرفنى عن النظر فى تاريخها إلا أن كثيرين ممن لا يمكن أن نغفل إنكارهم للمدنية فى روما ينازعون نزاعا جديا حق الرومان فيها . وعلى أية حال فلن تبلغ بى قلة الصراحة أن أزعم أنى لا أشاطرهم سوء الظن بتاريخ الرومان . وسوف أبادر إلى ذكر الأسباب أو بعضها التى تدعونى إلى ذلك . أما لماذا — على وجه الدقة — أحسب أن روما لم تكن قط رفيعة المدنية فسوف لا يتضح تماما إلا خلال مقالتى .

يعتقد فولتير أن الثقافة الرومانية بلغت أوجها فى القرن الأول من الامبراطورية . غير أن المعجبين بالرومان اليوم يؤثرون فيما أحسب أن يقفوا عند القرن الثانى . وقد اتضحت للمؤرخين منذ زمان بعيد

البربرية والهمجية والوحشية التى اتصفت بها الجمهورية ، وبلغ من وضوحها أن بدأ الطلاب الأذكياء يرتابون فى العصور المتأخرة . وما إن بدأ الباحثون يتساءلون إن كان من المحتمل أن تكون مغامرات قيصر أو مروءات كاتو قد غيرت نوع الحياة تغيرا أساسياً ، ما إن بدأوا يتساءلون فى هذا حتى اكتشفوا أن المجتمع الرومانى بقى — إلى حد كبير — تحت حكم الأباطرة الرومان الأوائل على ما كان عليه فى أيام الجمهورية . من أجل هذا تعتقد الأقلية الصغرى — التى مازالت تؤمن بعظمة روما — أن القرن الثانى ، فى السنوات التى تقع بين اعتلاء نرفا العرش وموت ماركس أوريليس ، كان عصر نور وعذوبة . وهناك مدرسة أكبر وأحدث ، أزعم لنفسى فيها مكانة متواضعة على مقعد التلميذ ، تعتقد أن روما فى كل تقلباتها السياسية بقيت همجية تافهة فى أساسها . لا نجد فى آدابها وفنونها وفكرها وثقافتها العامة شيئاً ذا قيمة ليس صدى مملا للإغريق ، ويبدو لنا أن الغالبية العظمى من الكتاب اللاتينيين لم تعتقد قط أن لغتها تصلح وسيلة للتعبير الذاتى ، وإنما استخدموها كما يستخدمها طلاب الصف السادس فى المدارس إلى حد كبير ، يترجمون إليها بدلا من أن يعبروا بها عن أنفسهم . إنك تلمس فى أكثر الأدب اللاتينى طابع التمرين الذى لا يخطىء . وقد كان الكتاب الرومان فى أكثر الأحيان يأملون أن يصدروا كتباً تشبه الكتب . أما أن يكتب المرء ليعبر عن رأيه أو إحساسه الخاص فقد كان بالنسبة إليهم أمراً غير طبيعى . ومن ثم كان الانتقال من هومر إلى فرجيل ، أو من سوفوكليز إلى سنكا ، كالانتقال من كتاب

« رحلة الحاج » إلى موعظة من مواعظ الكنائس الصغرى ، فقد كتب هومر وسوفوكليز لأن لديهما ما يقولان ، أما فيرجيل وسنكا فقد كتبا لأنه بدالهما من الصواب أن يقولا شيئاً ما ، وإذا استثنينا كاتلس ولوكريشس ، فمن من المؤلفين اللاتينيين حمل إلينا معنى يدل على خبرة حقة ؟ هناك — ولا شك — واحد أو اثنان ، وهل هناك نحات روماني واحد عبر عن أى معنى من المعانى ؟ ليس هناك من أعرفه ، وأن الفلسفة الرومانية لتذكر المرء بنقاش مرتفع المستوى بدرجة استثنائية فى مجلس العموم . مثل هذا النقاش — بصفة عامة — يتجه وجهة طيبة ، ولكنه لن يقرب المرء من قلب الموضوع — والفلسفة التى لا تحاول حتى أن تبلغ اللب قمينة بأن تكون تافهة ، وإذا كانت فلسفة الرومان (مثل دى اميكاتيا ، أودى بروفد نشيا لسنكا) تذكر المرء بالمناقشات البرلمانية ، فإن رسائلهم الخاصة تذكر بأحاديث شيوخ عهد فكتوريا فى حجرات التدخين ، فهى ودية ، معقولة ، طريفة ، ولكنها ليست البتة قلبية ، أو فطنة ، أو خيالية ، ومن أن تاستس كانت له أمثال ، ومع أن هجاء جوفنال صادر من صميم القلب ، وفيه فطنه وخيال ، إلا أن الرومانيين عامة كانوا لا يدرون شيئاً . كانوا يستطيعون أن يتكلموا كلاما معقولا عن الأمور العملية ، ولكنه كلام العرفاء فى المدارس الخاصة . كانت لهم نكات ، وآراء ، وضروب من السخط ، وكانت لهم شهوات ، وكانوا يحترمون — كما يفعل خيار رجال الأعمال من الانجليز — تلك الواجبات الودية النبيلة التى تربط الإنسان بالإنسان فى المكاتب والمحاكم وفى عربات القطارات وفى الملاعب ، ولكنهم لم

يقتربوا البتة من أى أمر ذى بال ، ومن أجل هذا كانت رائحة روما النفاذة تذكرنى — وهى تخترق العصور — فى أحسن حالاتها بمجلس العموم وحفلات العشاء السياسية . وفى أسوأ حالاتها بالبترول وبرائحة النبات والنسيج والجلد الجديد .

كان الرومانيون فيما أرى عاجزون عن الحب العنيف لأى شىء ، وعن الإحساس العميق بالجمال ، وعن التفكير الدقيق ، والحديث الساحر ، أو الرذائل الجذابة . لم يكن لديهم إحساس بحقيقة عالم الفكر والشعور ، وما استطاعوا أن يحصلوا من ثقافة حصلوه فى القرن الثانى ، وكان إغريقياً خالصاً . وأن حفنة من الكتاب والمفكرين الإغريق لتمثل هذا العصر تمثيلا غامضاً . ونستطيع أن ندرك كيف أن هذا التفكير لم يتغلغل فى كتلة الشعب الرومانى لو علمنا أن الخرافة بلغت فى ذلك الحين مبلغا عظيما حتى إن خير العقول — كما يقول رينان — مالت قبل كل شىء إلى المسيحية نظراً للأساس العقلى الذى تقوم عليه نسبيا . ولم يتخذ القانون الرومانى — وهو أعظم وأنفع ما أخرجته الامبراطورية — صبغته المألوفة إلا فى القرن الثانى — وهو لم ينسق فى شكل قانون بطبيعة الحال إلا بعد أكثر من ثلثمائة عام . والقانون الرومانى — كما نعرفه — إغريق أساسا ، ذلك أن الفقهاء البارزين ، لم يكونوا سوى رواقيين ، يعدلون ويطوّرون النظريات الرومانية القديمة على الأسس التى يشير إليها مذهبهم الفلسفى ، ويستبدلون قانون الشعوب بالقانون الجمهورى .

أما من ناحية الذوق الرومانى ، فإن مما يعلمه كل إنسان عابر أن

هادريان — وهو من أكثر الحكام الرومانيين تهذيباً وتشبعا بالروح الهلينية — شيد لنفسه فى تڤولى ڤلا من عجب تذكر المرء بوصفها بأسوأ ما شيد لنفسه مليونير حديث من مأوى ، وقد كان ذلك مما يدعو إلى تحمس جريجور فيس ، ذلك الرجل الطيب ، فهو يقول « . . . إن هذه الڤلا التى بناها هادريان وفقا لتصميمه ، ليست سوى صورة وانعكاس لأجمل ما أعجب به فى هذه الدنيا ، وقد أطلق على أجزاء معينة من الڤلا أسماء بعض المبانى فى أثينا . فاشتملت على ليسيوم ، وأكادمى ، وبريتانيم . وبوسيل ، بل وعلى وادى تمبى يتدفق فى ثناياه پينيس ، وكذلك اليزيم وترتارس . كما خصص جزءاً لعجائب النيل وأطلق عليه اسم كانوبس وهو اسم ملاعب اللهو الساحرة للاسكندريين . . وبإشارة من الإمبراطور كانت هذه الكهوف والأودية والقاعات تنبض بميثولوجيا أولمبس ، وتحج مواكب الكهان إلى كانوبس ، وتسكن تارتارس واليزيم صور من هومر ، وقد تتجول زرافات من المعربدين خلال وادى تمبى ، وربما سمعت جوقات من يوريبديز فى المسرح الإغريقى . وقد تعيد الأساطيل معركة زركيس فى قتال صورى . ولو أن الكهرباء سرت فى كل الأرجاء لبلغت حد الكمال .

ولا ينكر أحد أن تأثير روما على العالم كان بالغا . ولا ينكر أحد أيضا أنه كان كذلك تأثيرا نافعا من وجوه كثيرة . غير أن هذا لا يدل على أن الرومانيين كانوا على مستوى عال من المدنية ، إذا أدركنا أننا نستطيع أن نحكم على البرابرة الجرمان الذين اجتاحوا الامبراطورية وخربوها حكمنا عليهم . إن ما ندين به لروما على وجه الدقة لا يزال

موضع نزاع . غير أنه مما لا جدال فيه أن كثيراً من ذوى الرأى الأكفاء ينكرون عليها رقيها فى المدنية . ومن ثم فإنى لا أستطيع — إن أردت — أن أستخلص من تاريخها حقائق يقبلها الجميع .

وفيما بين وفاة بوكاشيو فى عام ١٣٧٥ وغزو روما فى عام ١٥٢٧ يقر الباحثون عامة أن الإيطاليين بلغوا قنة عالية من قنن المدنية ، وإنى لا أجد فى هذا الرأى بالتأكيد أى مأخذ . نعم هناك من يشكو أساليب السياسة فى هذا العصر . ولكنى أقول لهؤلاء أولا أننا لسنا على ثقة بعد بأن الأخلاق السياسية ظاهرة ضرورية من ظواهر المدنية الرفيعة . وأقول لهم ثانيا أن الاغتيال السياسى قد يحل محل الحرية ، وإن قتل الفرد أفضل عادة من قتل الألوف . وليس من شك فى أن الأذكياء والمثقفين من الإيطاليين لعهد النهضة كانوا أشد من الإيطاليين لعهدنا الحاضر ازدراء للقوة الوحشية ، وهى مقارنة لا تمت فيما أحسب إلى موضوعنا بسبب كبير .

ولا ننكر أن الكتابة الايطالية فى القرن الخامس عشر — ولا يزال جانب كبير منها باللاتينية — كانت تعانى من تلك العيوب عينها التى أخذناها على الرومان . فبدلا من أن تكون وسيلة للتعبير أمست عملا ثقافيا ، وأداء علميا ، بينها وبين الأدب نفس العلاقة تقريبا التى بين قراءة الصلوات فى الأسرة وبين الدين ويقول العارفون « القرن الثالث عشر يتكلم والرابع عشر يهذر » ومن المؤكد أن من كتاب القرن الخامس عشر من قصد نفس المعنى من أمثالى بيداردو ، وبوتشى ، وساشتى ، بل ولورنزو نفسه .

أما الفنون البصرية لعهد النهضة فأظن أنها لا تحتاج إلى تبرير . غير أن الناس ينسون فى سهولة جدية محاولة العصر أن يعطى العلوم أساسا فى الواقع . وقد عاد الأوربيون إلى دراسة الطبيعة والطب والتشريح، وعندما قارب العصر الانتهاء كادت العلوم أن تبلغ الحد الذى أوصلها الإغريق إليه . درس العلماء الطبيعة والهندسة إلى الحد الذى بلغه هذان العلمان ، ثم تابعا تقدمهما . وقد فهمت كذلك أن علم الحيوان وعلم النبات أخذا مرة أخرى مأخذا جديا . وإذا وازنا بين النهضة والعصور الوسطى رجحت الأولى رجحانا كبيرا . ولكنك إذا امتلكت الشجاعة لكى تدرس محاولة الأفلاطونيين الميديشيين التوفيق بين مختلف المذاهب الفلسفية وجدت أنهم — برغم سخافاتهم — يخفون تحت الحجب الكثيفة من دخان الميتافيزيقا تشبثا صبيانيا بالحق يميزهم عن مجهودات الفلاسفة الرومانيين الذين يكتفون بتكرار المغالطات المألوفة بروح الرجل الذى يؤدى واجبا خلقيا يجد فى أدائه مشقة كبرى وراحة للضمير. ولم يكن لوكريشس نفسه مبتكرا ، غير أنه كان رجلا استثنائيا . ومن الحق إجمالا أن رجال النهضة ونساءها كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بالأمور التى لها وجود حقيقى فى عالم الفكر والشعور السامى الذى نسميه عالم الروح . فى حين أن كل ما كان ذا أهمية فى الفكر الرومانى يكاد أن يكون جميعه متعلقا بالأمور العملية . وإذا استبعدنا الاستثناءات النادرة ، فإن مغامرات العقل الرومانى فى الآفاق البعيدة كانت فى امتاعها تشبه ما يشعر به السائحون عند زيارتهم لمعارض الصور من نشوة روحية .

وقد يعترض معترض فيقول إن عصر النهضة كان عصر خرافة ، يؤمن بالتنجيم وبكلام لا معنى له من هذا القبيل . وفى هذا من الحق مافى القول بأن الروح العلمية كانت فى ذلك الحين أشد يقظة مما كانت عليه فى أوربا منذ القرن الرابع قبل الميلاد . وقد وقف أصحاب العقول الممتازة — فوق هذا — موقف المقاومة . ففى القرن الرابع عشر وقف بترارك موقفا له أثره ، وفى القرن الخامس عشر حمل بيكودلا ميراندولا الرأى العام على متابعته فى هجومه المشهور على مروجى الأباطيل . أما الروائيون ، وفى مقدمتهم الأمير فرانكو شاستى ، فقد سخروا من العرافين والدجالين . يقول جيوفانى فلانى « لا تستطيع مجموعة من النجوم أن تخضع حرية الإرادة عند الإنسان أو ما يقضى به الله» .ويقول جوكسباردينى « ما أسعد المنجمين الذين يُصَدَّقون إذا هم قالوا صدقا واحدا إزاء مائة أكذوبة ، فى حين أن غيرهم من الناس يفقدون كل تقدير إذا هم قالوا أكذوبة واحدة إزاء مائة خبر صادق » . واضح إذن أن أثر النهضة بوجه عام كان إثارة « الشك » ، والصعوبة هى تحديد مبلغ هذا « الشك » على وجه الدقة . وكانت محاكم التفتيش تسميه «إلحادا» . وقد استبعدته بغير مبالاة بعد عام ١٥٢٧ بمساعدة الأسبانيين السود. ولو أمكننى أن أصدر حكما عاما من الحوادث الفردية التى أعرف عنها شيئا ما (غير أنها حوادث جميعها فرنسية بطريق المصادفة) قلت إن هناك ضربين من التشكك فى عصر النهضة . مذهب فولتيرى وهمى لا يتعارض وقدر من الخرافة الخفيفة التى يصلح بونافنتير دى بريبه أن يكون مثالا له ، ومذهب الحادىّ جاف جامد ، يخلو خلوا تاما من الاعتقاد فى كل ما ليس بالأمر

الطبيعى ، وإن يكن لا يخلو من الخرافة التى تحث على حب البشر . ويصلح أتيـن دولية — وهو من شهداء الحق ، لو كان للحق شهداء — أن يكون نموذجا لهذا المذهب . وكان دولية — طبقا لما يقول كالفن — يعلن احتقاره للانجيل « وقد صرح بأن « حياة الروح لا تختلف فى شىء عن حياة الكلب أو الخنزير » . ولكن برغم الخرافة أو الرذائل الأخرى فإن حق النهضة الإيطالية فى الحضارة الرفيعة ليس عليه — فى الواقع — اعتراض جدى . ويستطيع مسيو دى جوبنو — الذى لم يفهم أحد الحياة العقلية لهذه النهضة مثله — أن يضع على لسان لوكريزيا بورجيا الحكم التالى : « ليس فى هذه الدنيا ما هو أعظم من حب الفنون ، ومن حب ما يتعلق بالروح ، حب هؤلاء الذين نحبهم » وكانت لوكريزيا فى هذا تعبر عن عصرها .

والمثل الآخر الذى أستطيع أن أسوقه دون أن أخشى كثيرا أن يُعترض علىّ هو المدنية التى انتعشت فى فرنسا خلال « القرن العظيم » والقرن الثامن عشر . إن الفترة التى تقع بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٩ عصر من التاريخ أقل مجداً من عصر بركليز ، ولكنه لا يكاد يقل عنه شهرة . ويجمع الرأى — ولهذا الإجماع دلالته — أن النصف الثانى من القرن السابع عشر وطلائع القرن الثامن عشر أعظم من بقية العصر ، فإن النصف الثانى من القرن الثامن عشر (الذى ينتهى فى عام ١٧٨٩) أرقى مدنية . وهنا نجد دليلا آخر أن المتعلمين يميزون بين عصر عظيم وعصر متمدن ، أو يدركون — على الأقل — أن العظمة والمدنية ليسا مترادفين ، وإن لم يكن بينها تعارض . وفوق هذا ، فمن المحتمل

أن تكون انجلترا قد لعبت فى العالم دوراً عظيما كما لعبت فرنسا خلال النصف الأول من هذه الفترة — ما بين عودة الملكية ووفاة جورج الأول — ولكن برغم هذا ، وبرغم أنه من المؤكد أن انتصاراتها العقلية وإنتاجها الأدبى كانت على الأقل فى مستوى واحد مع ما كان يتحقق فى أى مكان آخر ، وبرغم أن ما حققته من الوجهة الحربية كان جليلا ، فإن أحدا لا يحلم بحسبان انجلترا فى ذلك الحين قد بلغت من رقى المدنية ما بلغته جارتها . ويمكننى أن أذكر عرضا حقيقة لا تمس الموضوع ، ولكنها لا تخلو من الطرافة ، وهى أن انجلترا لم تكن مثلما كانت فرنسا قوة استعمارية كبرى، خلال الجزء الأول من هذه الفترة ، حينما كانت انجلترا من ناحية الابتكار والتفكير أكثر من صنو لمنافستها فرنسا. إن فرنسا لم تتفوق فكريا إلا بعد صلح باريس فى عام ١٧٦٣ ، بالرغم من أن امبراطوريتها قد سقطت فى أيدى الانجليز الذين استولوا على الهند وأمريكا فكانتا لهم عوضا عن فقدان ملتن ودريدن وكنجريف ومارفل وبرير وبوب وسوفت ونيوتن وبوبل وبنتلى ولوك .

وهناك فترتان أو ثلاث عرفت بالمدنية الرفيعة ، لم يذكر عنها المؤرخون الأوربيون إلا قليلا لأنهم لا يعرفون شيئا عنها . فالظاهر أن الصينيين قد بلغوا مستوى رفيعا من التهذيب تحت حكم أسرة تانج (فيما بين عامى ٦٠٠ — ٩٠٠ تقريبا) بل وأكثر من ذلك تحت حكم سنج (٩٦٠ — ١٢٧٩) . غير أن علمنا بهذين العهدين ضعيف ، يخلو من التفصيل خلوا شنيعا ، فلا يحاول أن يستنبط منهما الخصائص المميزة للمدنية إلا صحافى نصف متعلم يزعم أنه مؤرخ فيجرؤ على ذلك . فلدينا

الفن الصينى — التصوير والنحت وصناعة الخزف — وفى الحق أنه من الإنصاف أن نفرض أن الرجال الذين أبدعوا هذا الفن — بل وأكثر منهم الرجال والنساء الذين قدروه — بلغوا أقصى درجات المدنية. لأن الفن الصينى، وبخاصة فى عهد سنج، لم يكن فنا رائعا فحسب، بل كان كذلك متمدنا — وهى تفرقة سوف تنال جانبا من اهتمامى بعد حين. ولدينا نصوص مترجمة من الشعر الصينى وشىء من النثر. بيد أنى — من ناحيتى — لا أود أن أبنى أحكاما على مترجمات، لأن أحدا لا يستطيع أن يعرف مقدار ما أدخله المترجم الحديث من نفسه على النص القديم بطريق لا شعورى. والواقع أن تاريخ الصين الاجتماعى والسياسى قد أهمله العلماء الأوربيون. ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نؤمل فى تكوين فكرة واضحة من نتف المعارف التى تلاقينا عن الأسلوب الذى كان يفكر به الرجل الصينى أو السيدة الصينية لعهد تانج أو سنج. أو كيف كان — أو كانت — يحس إزاء الأمور التى لها مساس أو اهتمام. وذلك لأن زواج أهل الصين ونظرتهم التى لا نألفها البتة تحيرنا وتضللنا. ومن الطفولة أن نزعم أنا نستطيع من قليل من الأوانى الخزفية والصور والقصائد وقصص الرحالة والكتابات التاريخية (وهى أيضا مترجمة) أن نكون رأيا صحيحاً عن أسلوب الحياة وعن العادات العقلية عند الرجل الصينى أو المرأة الصينية. أما عن حياة المواطنين فى أثينا لعهد بركليز، وحياة أهل فلورنسة لعهد النهضة، وأهل باريس فى القرن الثامن عشر، أما عن هؤلاء فمعرفتنا تمكننا — مع بذل الجهد فى التصور — من أن نكون لأنفسنا صورة. بل إنا لنستطيع أن نكون فكرة عامة كيف

كانت تكون حياتنا لو عشنا بين ظهرانيهم. نستطيع أن نتصور بيئتنا. وربما استطعنا أن نتصور كيف يتحدث أصدقاؤنا وكيف يسلكون ، وكيف كنا نستجيب لما يفعلون ومايقولون . إن مثل هذا الخيال ليس بالمستحيل برغم مشقته . ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن الرجل من أهل الغرب فى العصر الحديث يكلف خياله مالا يطيق لكى يتصور نفسه — فى دقة وفى ثقة — وهو يحتسى الشاى ويتبادل الحديث مع جماعة من الموظفين الصينيين وزوجاتهم الشابات فى نحو عام ١١٥٠ فى مدينة هانجشاو المقدسة .

ومثل هذه الاعتبارات تحول بينى وبين البحث عن أمثلة فى تاريخ الفرس . ومن الجائز بل ومن المحتمل أن يكون فيما نسميه على وجه التقريب بالفرس عصر أو عصران من المدنية الرفيعة . غير أن تكوين صورة محددة عن الحياة فى أصفهان أو الرى أو بغداد (وأود أن أذكر عرضا أنها ليست فى بلاد فارس) أبعد من محيط معرفتى وفوق قوة خيالى. وقد لاحظت أيضا أن أولئك الذين يستخفون بهذا العمل ليست لديهم أحيانا فكرة دقيقة عن المكان الذى تقع فيه أو الزمان الذى عاشت خلاله بلاد فارس هذه التى يحلمون بها . إن الدولة العباسية كانت فى أوج مجدها تمتد من بخارى إلى البحر الأبيض ومن القوقاز إلى أقصى حدود البلاد العربية . وهذه الدولة التى كانت تتركز فى بغداد والتى حكمها هارون الرشيد حوالى عام ٨٠٠ قامت بها مدنية لها شأنها . وهذا أمر واضح جدا عند المدرسة التى تؤمن بمجد الشرق ، وربما لا يكون أقل وضوحا عند أولئك المدققين الذين يميزون بينها وبين مدنية أخرى

تختلف عنها كل الاختلاف انتعشت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وعملت على ازدهارها مدرسة الفردوسى وعمر الخيام . وماذا نعرف عن هذه أو تلك ؟ هناك أدب غزير ، ترجم بعض منه . بيد أنى أعتقد أن الترجمات التى اطلعت عليها لا يمكن أن تطابق النص ، مادامت سمة الشعر الفارسى عظيمة عند أولئك الذين يعرفون الفارسية . وقد وضع جونز — ذلك الرجل الذى يستحق الإعجاب — فى القرن الثامن عشر أساسا يمكن أن يستند إليه التاريخ الفارسى ، ولكنى لا أعرف كاتبا حديثا كتب فى تاريخ الفرس الوسيط ونجح فى جعل الموضوع حقيقة واقعة حتى لنفسه . وأستطيع أن أقول إن المرء يكوّن فكرة عن سير الأمور فى القرنين العاشر والحادى عشر فى بغداد أو أصفهان من كتاب « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » لمؤلفه مسيو دوزى أصح من الفكرة التى يخرج بها من أى كتاب حديث يزعم أنه يعالج شئون آسيا . هل كان هناك فن عظيم ؟ أجل ، ولكنه لسوء الحظ إنتاج عصور وثقافات مختلفة . هنالك الفن الساسانى فى القرنين الخامس والسادس ، الذى استمر فى منسوجاته الرائعة بعد الغزو العربى فى القرن العاشر بزمن طويل . وهناك صور قليلة رائعة من القرن الثالث عشر — عصر جنكيزخان — يبدو فيها أثر سنج وساسان وكذلك كانت طلائع القرن الثامن عشر عصر الخزف خزف الرى المعروف ، وفى القرن الرابع عشر نجد فنون تيمور وحافظ وسلطان أباد . غير أن الفن الفارسى العادى الذى يعرفه حق المعرفة أكثر الناس هو الفن الصفوى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا الفن ولبلاط شاه عباس فى القرن السابع عشر

يتجه أولا مؤلفونا الفنيون ومصورونا ومديرو المسارح لتصوير الحياة الفارسية . ويخلط هؤلاء بين فارس والخلافة ، ويمزجون بين منسوجات ساسان فى القرن السادس عشر وشعر سامان فى القرن الحادى عشر ، ويزجون بصناع الخزف من الرى وحافظ فى بلاط شاه عباس ، ويخلطون بين الشاه والمغولى الكبير . ومن هذا الخليط يحصلون على مركب حلو مائع يسعدهم أن يطلقوا عليه المدنية الفارسة . ويودون لو استطاعوا أن يعودوا إلى ديارهم من الليفانت ببعض الملاءات التركية والسراويل يرتديها زوجاتهم فى حفلات العشاء ، كأنهن أميرات من فارس . ولكنى لجهلى بالفارسية ، ولعلمى بهذه الأشياء ، يتعذر على بل يستحيل أن أكون فكرة عن المدنية الفارسية . ومن ثم فإنى خلال بحثى عن صفات المدنية المميزة لن أذكر شيئاً عن شجر اللوز فى سمرقند أو عن البلابل التى لا تفتأ تترنم فوقها .

وبناء على ما قدمنا ستتخذ أثينا فى القرنين الخامس والرابع ، وإيطاليا لعهد النهضة، وفرنسا من الفروند حتى الثورة نماذج للكمال، فإن حقها فى المدنية الرفيعة غير منازع، كما أنا نعرف عنها لحسن الحظ بعض الشيء . وما أهدف إليه أولا هو اكتشاف الصفات المشتركة بينها والتى لا تتصف بها القبائل التى عرفت بالهمجية والتوحش . وإن كنت لا أبوء فى بحثى هذا بالفشل فذلك لأنى مهدت لرأيى تمهيداً كافياً . وقد ذكرت عند مناقشة مميزات المتوحشين الأدنياء ـــ ولم يعترض على أحد فيما أحسب ـــ أن الخطوة الأولى التى يتخذها الهمجى نحو المدنية ـــ وكنت بطبيعة الحال أتحدث عن المميزات الخلقية ـــ هى اكتساب الشعور بالذات وعادة التأمل . وليست هاتان

المميزتان هما الصفتان المميزتان للمدنية الرفيعة بطبيعة الحال. فقد شاعتا شيوعاً كبيراً . ومن الحق أن نقول إن انعدام الشعور بالذات انعداماً يكاد يكون تاما — ولا أقصد ذلك الشعور بالذات الحيوانى الذى يبديه الكلب أحيانا حينما يدرك أنك تحملق فيه — بل وانعدام روح النقد الساذجة هو ما يميز أسفل البرابرة عن بقية الجنس البشرى . وهو تمييز انثروبولوجى عريض الخطوط يوازى ذلك التمييز الذى يقيمه علماء الحياة بين النبات والحيوان ، ولا يعنينا إلا كنقطة ابتداء ، ولكننا لو هذبنا هذه الصفات وجدنا أن الشعور بالذات — الذى يؤدى إلى فحص الحالات العقلية والموازنة بينها — ينتقل بنا إلى الإحساس بالقيم ، فى حين أن روح النقد إذا طبقت فى كافة الميادين تؤدى إلى تحكيم العقل باعتباره الحَكَم النهائى فى المسائل التى تمس الواقع . هاتان صفتان لايتصف بهما المتوحشون ، بل ولا تتصف بهما جميع المجتمعات المختلفة ، وعند بحثى فى نماذج كال المدنية التى تخيرتها للعثور على صفات مشتركة خاصة أتوقع أن أجدها جميعا منبثقة من هذه الصفة أو تلك .

ومن رأيى أن « الإحساس بالقيم » و « تحكيم العقل » هما الصفتان الأساسيتان للمدنية الرفيعة ، والبحث عن المميزات الذى أنا مقدم عليه سوف ينتهى بى إلى البحث عما تتمخض عنه هاتان الصفتان . ومن المحتمل جدا أن يكتشف أحد من الناس أنى — رغم التزامى الطريق القويم فيما سرت إليه — لم أتابع المسير بعيدا ، فهناك صفات أساسية أخرى تتولد عنها صفات ثانوية جديدة. بيد أن ذلك لا يدحض حتما ما بلغت من نتائج. إن المعترض يبرهن بذلك على أن مقالتى ناقصة ولكنه لا يبرهن حتما على

خطأ ما فيها . ولو أن أحدا من الناس — بعد دراسته لما قدمت من مميزات — يكتشف غيرها من مميزات تشترك فيها المدنيات الراقية وتختص بها ، فمن الواضح أن يكون من واجبي ضمها إلى قائمتي . ولن يدفعني إلى تغيير موقفي إلا البرهان على أن بعض ما تشتمل عليه قائمتي من مميزات تشترك فيها الشعوب المتبربرة .

إن الإحساس بالقيم — كما أفهم هذا التعبير — لا يكون إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يضحوا بالخير الواضح العاجل فى سبيل الخير الخفى الآجل . فالأفراد الذين ضحوا بالراحة قصدا فى سبيل الجمال — دون أن تكون أمامهم غاية عملية أو خرافية — يبدو لى أن لديهم إحساسا بالقيم . وإيثار التربية الحرة على التربية الفنية العملية ، إيثار التربية التى تعلمنا كيف نعيش على التربية التى تعلمنا كيف نكسب ، هذا الإيثار ظاهرة أخرى من ظواهر هذا الحس المتمدن الرفيع ، والعقل عندى تكون له السيادة إذا شاع الرأى بأن كل أمر يتطلب تفسيرا وتبريرا من العقل ، ولا بد فى النهاية أن يسمح بهذا التفسير وذلك التبرير. ولكن يجب ألا نفترض أنى حينما أصف بالعقل مجتمعا من المجتمعات ، أو حينما أقول أن لديه إحساسا بالقيم ، أقصد أن كل الأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع يعملون ويفكرون عادة على أساس من العقل ، أو يحسون إحساسا دقيقاً . فقد يسود العقل فى مجتمع تؤمن فيه مئات الألوف بأشنع الخرافات . إن وصف شعب من الشعوب بالعقل أو القدرة على التمييز حكم عام لا يزيد دقة على وصفه بالبياض أو بالسواد . كما أن سيادة العقل تؤدى إلى نتائج تختلف باختلاف الظروف . فقد أدت

فى أثينا إلى تأمل مبدئى فى معنى الخير وطبيعة المادة ، وأدت فى القرن الثامن عشر إلى الشك الدينى وإلى تذوق الاقتصاد السياسى . وإن ما نحن مقدمون على الخوض فيه هو ما تتصف به بعض الوحدات — أو المجتمعات — غير المحدودة من ميول واتجاهات . ولذ فإنا لا نأمل أن نصدر أحكاما عامة لا تسمح بالاستثناء .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه لم تنشأ فى التاريخ مدنية كاملة . وإذا تصورنا أن الإحساس بالقيم وتحكيم العقل هما الصفتان الأساسيتان اللتان انبثقت منهما مميزات المدنية ، وجب علينا أن نشبه هذه المميزات بسلة مليئة بالكور المرمرية الزلقة الصغيرة تغترف منها كل مدنية ما استطاعت . وقد تولدت عن الإحساس بالقيم وروح النقد إمكانيات كثيرة : بعضها لم يمكن قط أن ينال وبعضها نالته كل جماعة ارتفعت بنفسها قليلا فوق مستوى الهمجية المجردة . وقليل منها — وهى فى أكثر الأحيان تهذيب للصفات التى تشبثت بها كل المجتمعات المتمدنة — مصقول مراوغ إلى حد يجعلها تنزلق بين أكثر الأصابع ، ولو أن أيادٍ قليلة ممتازة قد أمسكت بها على درجات متفاوتة من الثبات . هذه الأيدى الممتازة القابضة هى الجماعات ، أو المجتمعات ، التى اتفقنا على أن نصفها « بالمدنية الرفيعة » . وأنا مقبل على التحدث عن الكشف عن الصفات النادرة المراوغة التى تمسكوا بها ، وتملكوها لفترة من الزمن ، وتحليل هذه الصفات ، ولنذكر هنا أن القبائل الممعنة فى الهمجية لم تتمسك بأية صفة من هذه الصفات .

إن إعلاء العقل حتى يصبح الحَكَم الأول فى الحياة أمر مستحيل فى

الجماعات الهمجية لأسباب عدة ، لعل من أوضحها أن الظروف فى الجماعات الهمجية شديدة التقلب ، وتنازع البقاء — على وجه العموم — جاد جدا لا يسمح بصورة إخضاع غريزتى الاحتفاظ بالذات والاحتفاظ بالأسرة . والواقع أن الرجل الذى يحمل البندقية أحسن إعدادا — إلى درجة كبيرة — لحفظ الذات من الرجل الذى يحمل الهراوة . غير أن الرجل الهمجى لم يعش قط فى تلك الظروف التى تشجع على ذلك التأمل المتواصل النافذ الذى يستطيع وحده أن يؤدى إلى مخترعات ميكانيكية معقدة كالبندقية . والهمجى الذى يقف لكى يفكر يتعرض بدرجة قصوى إلى خطر الوقوف الأبدى . ولذا فان شأنه شأن الطيور وشأن سيرجون فولستاف ، يعمل بإملاء الغريزة . وهو يعتمد على الغريزة إلى حد لا يجعل للعقل سوى فرصة يسيرة جدا لكى يكون ذا أثر فعال . إن إعلاء الغرائز قاتل للعقل . وكذلك لا يمكن للمتوحشين أن يتصفوا باحساس رقيق للقيم . فإنك لن تجد رجلا من الإسكيمو يمكنه أن يدرك أن القيمة البعيدة للأنشودة أكبر من قيمة البيضة المحمرة ، لأن القيمة المباشرة عنده للبيضة المحمرة محسوسة جدا وضرورة ماسة . ومن العبث أن تبين لرجل يعيش معرّضا فى حاضره للموت جوعا أو من برد الصقيع أن التربية الحرة أرقى من التربية العملية البحت ، إذ لا بد له قبل أن يقدر لبعض الحالات العقلية قدرها أن يكون على درجة من الأمان لشخصه . ومن ثم كانت أحكام المتوحشين غريزية جدا ، وعقائدهم تقليدية ، وأذواقهم تستند إلى تجارب معدودة لا تسمح بدقة التمييز . والرجل الهمجى الذى يبدأ فى نقد عادات قبيلته وتقاليدها نقدا عقليا

سرعان ما يقضى على وجوده ويقضى على همجيته ، فقد خطا نحو المدنية خطوة كبيرة . وكذلك يخطو نحو المدنية خطوة كبيرة من يبدأ فى إدراك أن قيمة الأشياء الحقيقية فى قيمتها كوسائل لحالات معينة من العقل ، حتى إن كان إدراكه هذا على كثير من الغموض . ولكن طالما بقى الإنسان على الطبيعة ، يسير وراء غرائزه ، فلن يتقدم نحو المدنية . إن المدنية وليدة التأمل والتربية . إنها مصطنعة .

— ٤ —

مميزاتهم : الإحساس بالقيم

لو سألت إثنى عشر رجلا متعلما تعليما كافيا (ولعلى أصبحت مملا بعض الشيء فى استعمال هذه الصفة « متعلم » ، ولكنى إن تخليت عنها أضعفت حجتى) لو سألتهم أن يعينوا لك أبرز صفة فى العقل الأثينى ، فمن المحتمل أن يجيبك منهم أحد عشر بأنها « حب المعرفة » أو « الحق » أو « الاستطلاع » أو « الإيمان بالعقل » أو المعقولية أو ما يشبه ذلك . أما الثانى عشر فبروح المدقق المتعالى ربما أكد لك أن ما يجعل الأثينى أثينيا (من اتكا) هو إحساسه بالقيم إحساسا دقيقا . بل إن الأحد عشر رجلا — بعد أن تهدأ غضبتهم التى نلتمس لهم فيها المعذرة — يكادون أن يتفقو قطعاً أنهم جميعاً محقون ، وأن التعقل والإحساس بالقيم صفتان توأمان لأثينا فى مجدها . والكلمتان اليونانيتان اللتان تعنيان « التعقل الحلو » و « الجد الملائم » كانتا هما الصفتين اللتين تميزتا بهما الحياة والفكر والفن الإغريقى — كما يتعلم ذلك كل صبى يبدأ فى تعلم المواد الكلاسيكية . والصفة الأولى هى العقل يحليه الإحساس بالقيم ، والثانية هى الإحساس بالقيم يثبته العقل ويحدده ، بل إن كلمة كلاسيكى ذاتها ومعناها الأول فى قاموسى « ما يتعلق باليونان القديمة أو روما (التى تحاكيها) » ، هذه الكلمة تؤدى معنى التعقل والتذوق ، وهاتان الصفتان ، وما تولد عنهما ،

اللتان كانتا الصفتين المميزتين لأثينا ، سوف نجد أنهما كذلك — ما لم أكن مخطئا — ميزتا كل عصر من عصور المدنية الراقية .

إنا جميعا نتحدث عن تقدير أثينا للفن والفكر . وقصة النحات الذى اتهم بتعذيب شاب — والتعذيب فى أعين الأثينيين كان جريمة شنيعة — وأقر على نفسه الاتهام ، ولكنه قدم دفاعا عن نفسه التمثال الرائع الذى عاونه فى إخراجه ما عاناه نموذجه الحى ، فحكم عليه بالبراءة — أقول إن هذه القصة — وإن تكن خرافية — توضح الأثر الذى تركه على كر العصور حب الاثينيين للجمال . وفى لزبس كانت صورة سافو — وهو الاسم الذى يذكر بالاشمئزاز فى أرفع البيوت الانجليزية — تزين قطع العملة . لأن أهل لزبس كانوا يعدون « أعلى رأس فى الغناء » أسمى أمجاد الدولة . وأذكر عرضا أن رأس سلفاتور روزا — المصور الوحيد ، لا أقل الذى كان ممتازا بل أقول الذى كان معروفا ، ممن أنجبتهم نابلى ، لا يزال يزين العملة الورقية التى يصدرها بنك نابلى ، وهذا أثر جميل للمدنية الإيطالية نتبينه فى جلاء . وتقدير أثينا للأمور العقلية ظاهرة معروفة ساءت سمعتها . فقد كان من أعمالهم الرئيسية أن يناقشوا أية مشكلة تدور برؤوسهم نقاشا عقليا عنيفا حرا . يقول ميشليه : « إن هذا الشعب الضاحك المتطلع يقدر السخرية السقراطية أكثر مما يقدر أى لعبة رياضية . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى ذلك الأمر العجيب الذى وقع فى أثينا عام ٤٠٤ ق. م . وهو تمثيل لسستراتا على مسرح الدولة وعلى حساب الشعب ؟ لم تكن أثينا فى ألم مما يمكن وصفه الآن وصفا صادقا بالنضال فى سبيل الحياة أو الموت فحسب ،

بل كانت كذلك تعانى الكارثة الساحقة التى لحقتها من سرقسطة مما أدى إلى انهيارها فيما بعد نهائيا . وكانت حمى الحرب على أشدها . وبرغم ذلك قدمت الدولة فى أثينا على مسرح الشعب وعلى حساب الشعب هذه المسرحية المتطرفة فى معارضتها للروح الحربية والروح الوطنية . ولم يكترث أحد بالسخرية من الجيش والاستهتار بالعواطف الوطنية والاستهزاء بمن يتعقبون الجواسيس ويلتهمون الأسبرطيين ، ونقد زعماء الديمقراطية نقدا لا هوادة فيه . وإنما كان الناس يتساءلون : هل لسستراتا أفضل كوميديا فى هذا العام ؟ إن كانت كذلك فينبغى أن تظفر بالجائزة وأن يشهد الجمهور تمثيلها ، وقد مثلت . ولا أستطيع أن أذكر حادثا فى التاريخ يدل على الإحساس العام بالقيم أكثر من هذا جلاء .

وفى أثينا كانت الأموال التى تخصص للسرح مقدسة لا يجوز المساس بها . وربما لم يكن من غير الطبيعى لشعب يستطيع أن يقدر أعمق المآسى وأدق الملاهى أن يجعل للفن النصيب الأول من خزانة الدولة . ولم يبخل المواطن الذى كان يعيش فى بيئة ساذجة ، يعتبرها عامل المناجم فى انجلترا محطة بكرامته الإنسانية ، لم يبخل بشىء ينفق على إخراج المسرحيات ، وإقامة التماثيل ، أو إنشاء المعابد . ويذكرنى هذا بشىء كان ينبغى لى أن أذكره فى الفصل الأول . وذلك أن الراحة من بين الأشياء الكثيرة التى ليست بالمدنية . إن عيشة المتوحشين حياة لا راحة فيها لا تدل على شىء . ولست أقول إن انعدام الراحة دليل على المدنية ولكنى أقول إن الراحة ليست من مميزاتها ، فقد كانت حياة الإثينى — برغم غزارتها وتعقيدها فى الفكر والشعور — فى أكثر

النعم المادية — ناقصة بدرجة مشينة . إن المدنية — كما يفهمها رجل السوق — لم يحقق الاثينيون منها شيئا . ويسرنى أن أعرف أن المستر ولز بلغ به الصدق أن يقر باحتقاره لهذا الشعب الذى لم يتهذب . إن أغنى المواطنين كثيرا ما كانوا ينامون فوق مقاعد حجرة الطعام — وكانت فى الكثير الغالب مقاعد خشبية — لا يتلفعون إلا فى معاطفهم كالكثيرين من ركاب الدرجة الثالثة . وكانت بيوت الاثينيين صغيرة ، مبسطة ، تخلو من أدوات توفير العمل اليدوى . ولم تكن هناك أسباب للراحة المنزلية . والأثاث والأدوات المنزلية شحيحة ساذجة ، تثير الإشفاق وحب الرعاية والحنق عند جامع القمامات الذى يحس إحساسا طبقيا . ولم يكن عدم الاكتراث بالراحة هذا خاصا بالمواطنين أصحاب المدنية الرفيعة فى أثينا . فمن ذا الذى لم يسمع السائحين الانجليز والأمريكان يعيبون على القصور الإيطالية ما فيها من أسباب انعدام الراحة ووجود التيارات الهوائية فى الحجرات وقلة وسائل التستر ؟ كانت النهضة تتميز بالترف والفخار ، ولكنها لا تعنى إلا قليلا بالراحة . ولم تصبح للراحة أهميتها إلا بظهور الطبقة المتوسطة . وفى القرن الثامن عشر احتفظت الارستقراطية الفرنسية بتقليد العناية بالطراز مع إهمال ما كانوا يسمونه « بالراحة الانجليزية » . وقد عمت الشكوى منذ ثلاثين عاما من أن السياحة فى فرنسا كان يفسد متعتها انعدام أسباب الراحة المنزلية . أنهم يغيرون كل ذلك الآن ، وليس هذا — على أية حال — من شأنى فى الوقت الحاضر . وما يهمنى أن أذكره هو أن عدم الرغبة عند المتحضرين فى تضحية الطراز فى سبيل الراحة نتيجة لا مفر منها للإحساس بالقيم .

وليس ما كان يضفيه الإيطاليون لعهد النهضة من شرف زائد على الشعراء والمصورين والفلاسفة والعلماء بأقل اشتهارا من حب الاثينيين للجمال وللتعقل . وكان أهل فلورنسة — وهم فى ذلك الوقت أشد الأوربيين تحمساً للسياسة — يحسون أن فنهم هو أعظم مجد من أمجاد دولتهم . وفى تسكانيا كان القوم يتجادلون فى مزايا المصورين والنحاتين كما يفعل أهل يوركشير بالنسبة للاعبى الكرة وراكبى الخيول . ولا تستطيع إيطاليا بأسرها أن تقدم لبترارك وبوكاشيو وبرونليشى ومانتجنا وبمبو وببيينا وبوليتان وأريستو ورفائيل وميشيل انجلو وتيتان ما يستحقون من تقدير . وليس من المبالغة — حقاً — أن نقول إن الايطاليين فى أوائل القرن السادس عشر — على الأقل فى روما وفلورنسة — قد اعتبروا رفائيل وميشيل انجلو أرقى مظهر من مظاهر العبقرية فى بلادهم ، وذلك برغم معرفتهم وتقديرهم لشخصيات ممتازة مثل لورنزو العظيم ، وسافونارولا ، وقيصر بورجيا ، ويوليوس الثانى ، وليو العاشر . كان الرجال من أمثال رفائيل وميشيل انجلو يفوقون الملوك والأمراء فى تقديرهم . وأهم من ذلك أن الفن — وأقول الفن ولا أقول الفنانين — كان يتفوق على التجارة والسياسة والحرب فى التقدير ، ودعنى أقرر تواً أن الولاء للأفراد كان مفرطا ، فى حين أن تقدير الفن والفكر كان عادلا كما كان عظيما . فكيف لا يمكن لعصر كان من إحدى خصائصه المبالغة فى تقدير الفرد أن يؤله عظماء رجاله ؟ ولم تكن المبالغة فى تقدير الشخصية كذلك أمرا لا محل له بين قوم لم ينقض عليهم طويل وقت منذ تخلصهم من ظلم العصور الوسطى ومعرفتهم — فى عبارة ليون باتستا البرتى — أن « الناس يستطيعون القيام بأى عمل إن

أرادوا » . وقد رزحت أوربا خلال ألف عام ثقيلة تحت عقيدة تحتم على الإنسان أن يعتبر نفسه مخلوقا مرذولا بائسا يعجز بطبيعته عن التفكير أو الإحساس أو العمل السليم . كان الإنسان يلقن فى غضون ألف عام أن إنسانيته ممقوتة ، وتقرير شخصيته جريمة كبرى . أما الآن فبعد اكتشاف الفن والفكر الإغريقى بغتة فقد أدرك أن الإنسان هو مقياس كل شىء ، وأنه يستطيع — بل ينبغى — أن يفكر وأن يشعر وأن يعمل لنفسه ، وأن عليه أن يخلق لنفسه ، ظروفه ، وأن يتسلط على الطبيعة بابتداع التجارب الواسعة والأخذ بها . فأى عجب إذن إذا كان المرء بعد أن أدرك بغتة أن الإنسان فى العالم القديم كان سيد مصيره ، وأن بوسعه أن يكون كذلك فى العالم الجديد ، وأن العقل البشرى هو وحده الفيصل فيما هو حق ، وأن إرادة الإنسان تستطيع أن تصنع القوانين والتقاليد كما تستطيع أن تتحلل منها ، وأن تغير ما كان يبدو أنه نظام الكون الذى سبق تقديره — أقول أى عجب إذا كان الإيطاليون لعهد النهضة ، بعد أن أثملهم ما كشفوا من أن الإنسان هو سيد كل شىء ومعيار كل شىء ، يكرمون إلى حد يقرب من التقديس تلك المثل الرائعة من بنى جلدتهم الذين تقع عليهم أعينهم ، وهم يخلقون الجمال ، ويشتتون الجهالة ، وتفيض بهم القوة ، فيغيروا ظروف الحياة نفسها ويزيدون من خصب مشتملاتها .

إن إيطاليا لعهد النهضة — فى إحساسها بالأهمية القصوى للفن والفكر ، وهى أولى النتائج وأصدقها للإحساس بالقيم — تكاد لا تقل فى ذلك عن أثينا شأنا . وسيبقى شعارها أبداً « أن ليس فى هذه الدنيا

ما هو أعظم من حب الفنون ، ومن حب ما يتعلق بالروح ، ومن حب هؤلاء الذين نحبهم » . ومع أن الاتجاه العقلى فى القرن الثامن عشر لم يختلف عن هذا الاتجاه فى أساسه ، إلا أن هذا العصر كان على خلاف مع النهضة أوعصر بركليز فى ناحية واحدة هامة . لم يكن القرن الثامن عشر عصر ابتكار إلى درجة كبيرة . وإنما جاء الدافع إلى الخلق قبل ذلك — فى القرن السابع عشر . أما الفترة المتأخرة حينما بلغت المدنية أوجها فقد كانت أميل فى اتجاهها إلى ناحية التأمل والتدبر . وهنا دليل آخر على أن الصفة الأساسية للمجتمع المتمدن مدنية رفيعة ليست فى القدرة على الابتكار ، وإنما هى حسن التقدير . فالشعوب الهمجية تبتكر فى عنف شديد . ولقد كان القرن الثامن عشر يدرك أهمية الفن . وكان ذوقه نقيا ، وإن يكن محدودا . وكان يستطيع دقة التمييز فى الفنون الصغرى والفنون المنزلية . والأغنياء يقبلون على أداء ما يكلفه الجمال لا بالمال فحسب ولكن بالوقت وتحمل المشقات كذلك . وكان الموسرون من الرجال والنساء فى القرن الثامن عشر يهذبون أذواقهم . أما الفقراء — كما سوف أبين فيما بعد — فيسهمون إيجابا فى بناء صرح المدنية بما يؤدون من عمل ، ويسهمون فيها سلبا بمقدار ما تتلون آدابهم وعاداتهم وآراؤهم وعواطفهم بآثارها — وذلك لأن الفقر معناه عدم التحرر وعدم التعلم. ولو أردنا أن نتلمس الصفات الإيجابية الأكيدة للمدنية فمن العبث أن نبحث عنها عند العبيد الآثينيين أو الفلاحين الفرنسيين . وإلى أى حد يمكن فى المستقبل لمجموع السكان أن يتمدحوا موضوع لابد لى أن أستبقيه للفصل الأخير .

والآن أعالج القرن الثامن عشر ، وهو عصر ومضت فيه النار في الطبقات العليا وأرسلت أشعتها إلى المتقدمين من الطبقة الوسطى وربما ألقت شيئا من دفئها على من دونهم من تلك الطبقة ، ولا أحسب أنها سرت إلى أبعد من ذلك وإن كان بَكـل — الذى يمكن أن نعده حكما عدلا لم يتحيز لعصر غير عصره — يرى « أن إحدى الصفات الأساسية للقرن الثامن عشر ، وهى صفة ميزته قبل كل شيء عن كل ما سبقه ، تعطش للمعرفة من جانب تلك الطبقات التى حبست عنها المعرفة حتى ذلك الحين[1] » . كانت المعرفة هى أكبر الأمانى : كان القرن الثامن عشر يقدر الفن ، بيد أنه — برغم هذا — توجه بأقصى حماسته نحو ما يتصل بالعقل من أمور . لقد تفوقت أثينا فى الأدب ، وفى الفنون التشكيلية ، والعلوم ، والفلسفة . وكانت حماستها لكل ذلك لا تحد . أما النهضة التى تفوقت فى الفن المنظور وفى الدراسات فقد وجهت أشد إعجابها إليهما . فى حين أن قلب القرن الثامن عشر السمح خضع لنفس الغريزة ، وكان أشد ما اهتز له ما حققه العقل المتأمل . فبرزت فى الصدارة البحوث الرياضية والفلسفية والعلمية . وفى عصر كان يفخر بحب البشرية تعمق هذا القرن بطبيعة الحال فى علوم السياسة والاقتصاد — وهى دراسات ما عتمت فى طفولتها الغضة الجذابة — إذ اعتقدوا — وربما لم يكن ذلك على غير أساس من العقل — إن فى ثنايا هذه العلوم تكمن المفاتيح التى سوف تفتح أبواب العالم المثالى فى يوم من الأيام . إن قصة شهرة دافيد هيوم فى باريس تعطينا فكرة عن تهذيب المجتمع ، فإن تعيينه سكرتيرا للسفارة البريطانية كان حدثا دوليا . باريس بأسرها كانت

---

(١) تاريخ المدنية ، الجزء الأول ، صفحة ٤٣٠ .

عند قدميه ، وربما أغضب ذلك مستر والبول قليلا ، الذى يبدو أنه أحس أن هذا المجتمع الرفيع المدنية ربما لم يقدر جودة النطق والعلاقات الارستقراطية حق قدرها . ولن أؤكد هنا التكريم الذى ناله فلتير وبفون أو ذكرى نيوتن . غير أنى لا أتردد فى أن أذكر قرائى بأن هؤلاء السيدات والسادة الفرنسيين كانوا بالفعل يقرأون للمؤلفين الذين يعجبون بهم .

ومن هذا الإحساس بالقيم ، ومن التطلع العقلى عند الطبقة الراقية ، نجمت نتيجة حببت الشعوب المتمدنة دائما فى القرن الثامن عشر . ذلك أن هؤلاء السيدات والسادة المهذبين لم يخضعوا لتهديد أو إملال . لم يكونوا من ذلك النوع الذى يحتمل الأساليب التى يسلكها خفاف العقول أو الثرثارون المتشدقون بالعلم . وأصروا على أن يعبر أساتذتهم عن أنفسهم فى لغة واضحة شائقة — وكانت كاترين العظمى تغرم بتلقيب نفسها بتلميذة فلتير . وكان الناس يتوقعون أن ينقاد العلم للجهال ، أو على الأقل للذوق السائد . كان للقرن الثامن عشر مقاييس يود أن تنال حقها من التقدير . ولم تكن هذه المقاييس قاصرة على كتابة النثر . وإنما كانت للقرن الثامن عشر مقاييس فى الحياة . وفى الحق أن مما يميز العصور المتمدنة أنها تتمسك بمقاييس لا ينبغى أن تهبط عن مستواها الأمور . ويرجع ذلك إلى وجود الإحساس بالقيم[1] .

ألم تستمع قط إلى رجل فكه عظيم ، وقد امتلأت معدته بعشاء باهظ التكاليف فى مطعم يسترعى النظر بسوء تأثيثه وشدة إضاءته وقد

(١) بحثت هذا الموضوع فى مزيد من الاستفاضة فى مجموعة «منذ سيزان» فى مقال أستبيح لنفسى أن أقتبس منه .

أثمله النبيذ (الذى اشتهر باسم پرييه جويه فى عام ١٩١١) ، وحديث تافهه طويل لا يقرع سمعك إلا بعض كلما تهوقد أغرقته موسيقى أعلى منه فى ضوضائها ، ألم تستمع إلى مثل هـذا الرجل يقول وقد سمح للمناول المشعث أن يختار له أطول سيجار « هذه تناسبنى يا بنى ، وإنى ليرضينى دائماً أغلى السجائر »؟ إن مثل هذا يحدث حينما يفقد الناس مقاييسهم، وليس فى لندن ـ كذلك ـ سوى مطعم أو مطعمين العشاء فيهما متعة غير مشوبة. إن الرجل الذى يحمل ميزان المقاييس لا يرضيه دائماً أحسن الموجود. إن هذا الرجل يعرف تماما ما يريد ويصر على الحصول عليه . والظاهر أن الرجل الانجليزى الحديث ليست لديه معايير . وكل ما يستطيع عمله هو أن يتوجه إلى أحسن المحلات مظهرا ليشترى منه أغلى ما فيه. أما منذ خمسين عاما فقد كانت ربة البيت الرقيقة تفخر بأنها تعرف المكان الصحيح لكل شىء . ففى شارع خلفى رجل صغير يستورد صنف البن الذى تحبه وهناك آخر يخلط الشاى خلطاً هو أكمل ما يكون ، وثالث يعرف سر لحم الخنزير المدخن . كل ذلك اختفى اليوم . ولا تفعل ربة البيت سوى أن تذهب إلى المخازن. ولم يعد لغز « مارش هير» لغزا غامضا . ولم نعد نصر على الحصول على ما نحب، وإنما نحن نحب ما نحصل عليه. وربما كان من توافه الأمور أنك قد تتناول عشاءك فى أحد المطاعم الستة الأنيقة فى لندن، وأن تدفع جنيهين ثمناً لوجبتك ، وأنت تعلم عن يقين أن وكيلا من وكلاء التجار المتجولين الفرنسيين نشأ على المعايير القديمة لما ألف فى الريف، ربما أرسل فى طلب الطاهى ووجه إليه قارص الكلام. ولكن فكر فى الدوافع. إنها لا ترجع إلى أن أغلى المطاعم الانجليزية تقصر فى استخدام أعلى الطهاة الفرنسيين أجورا . إنهم يستخدمونهم ولكنهم سرعان ما يهبطون

عن المستوى لأن المطعم لا يتردد عليه أحد ممن يرفعهم دائما إلى هذا المستوى . إن الزبائن ليست لهم معايير . تقول هذا أمر تافه ، وأقول ذلك ما يؤدى إلى الهمجية .

إنى حينما أقول إن المدنية تحتم قيام المقاييس لا أقع فى ذلك الخطأ القديم الذى يفرض أن المدنية شىء يفرض على الفرد التشابه البغيض . كان النقاد والعلماء لعهد فكتوريا من الخشونة وانعدام الحس بحيث لا يقدرون راسين وبوسان ، ويعللون انحطاط شأن هذين الفنانين عن تنيسون وتيرنر بأنهما من ثمرات المبالغة فى المدنية التى جعلت التعبير الشخصى الحر أمراً مستحيلا وعارضت معارضة مطلقة فى التجريب والتطوير . ويزعم الزاعمون أن العصور ذات المدنية الرفيعة تحتم التشابه المطلق ، فتصبح جافة جامدة ، والواقع أن الفنانين كانوا أحراراً فى تجاربهم فى العصور المتمدنة كما كانوا فى غيرها من العصور . وتستطيع أن تجد الأمثلة أنّى شئت ، ففى أثينا فيما يزيد قليلا عن مائة عام حدث انقلاب من الأسلوب العتيق فى النحت إلى الأسلوب الفدياثى ، ومن الفدياثى إلى البراكسيتيلى . وفى الأدب من إيسكلس إلى سوفوكليز ، ومن سوفوكليز إلى الكوميديا الجديدة . وفى إيطاليا شهد مطلع القرن الخامس عشر ثورة فى التصوير — نهاية حركة جيرتو واكتشافات ماساشيو وجاستانيو ومانتنيا ، فى حين أن رفائيل وميشيل انجلو كانا قد أدخلا تعديلا على تقاليد الفن وأسسا مدرسة جديدة قبل نهب روما ، وكل طالب للأدب الفرنسى يعلم أن المعجبين بكورنى قد أدهشهم ، بل أغضبهم ، أسلوب راسين ، كما يعلم أن تطور النثر من القرن السابع عشر إلى

القرن الثامن عشر أمر لا يرضى المحاضر (لغير طلاب الجامعة) الذى يستعرض تاريخ الأدب أن يجهله ضحاياه الطلاب . كما أن ظهور مدرسة عاطفية طبيعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر موضوع يستفيض فيه عادة — بدافع من الغرور الوطنى فيما أظن — أولئك النقاد أنفسهم الذين يعيبون على ذلك العصر ما فيه من تشابه ثابت . أنهم ربما لم يكونوا على علم أن جلك (Gluck) وأتباعه كانوا فى نفس الوقت يطورون التقاليد الموسيقية تطويرا بالغا مثلما فعل ڤاجنر بعد ذلك بمائة عام .

إن العصور المتمدنة تميل من غير شك إلى احترام التقاليد فى الفن وفى غيره من الأمور . وهناك ما ينذر بالخطر من أن يتدهور احترام التقاليد إلى عبادة العرف ، وهو لا يعدو أن يكون الحيل والعادات لماض قريب توحدت لتعميم استعمالها — مخالفة فى ذلك التقاليد ، وهى التعبير عن التجارب المتجمعة . وهناك من ناحية أخرى فى العصور المتمدنة جمهور حساس مثقف ، يعطف على الفنان ، ويميل إلى أن يهيىء له أن يعرف على خير وجه خير الأمور بالنسبة إليه . ومثل هذا الجمهور لا يخدع فى سهولة فيظن خطأ أن الصيغة المقبولة هى التقليد العظيم . إن ماساشيو وأتباعه ، وكذلك مدرسة الكتاب الثائرين فى مطلع القرن الثامن عشر ، والرومانتيكيين الأوائل فى أخريات هذا القرن ، إن هؤلاء لم يضطروا إلى الاشتباك فى معارك حامية كالتى نشبت حول أسماء هوجو وڤاجنر وروزتى وما لرمى وسيزان . ذلك لأن الجمهور فى العصور المتمدنة يتفوق فى حسه كثيرا عن الجمهور فى القرن التاسع عشر ، لأن الظروف كانت أشد مواتاة وأقل ضيقا ، وقلما كان الفنان يندفع فى احتجاج

عالى الضجيج أو مضيع للوقت والجهد . أن الفنان الحق لا يكون بطبعه محتجا ، ولا يلعب هـــذا الدور إلا بضغط من حقد معاصريه . والاحتجاج آفة الفن ، لأن من يشرع فيه يتعرض لخطر الوقوع فى الهاوية . المدنية تميل إلى أن تجعل الاحتجاج أمراً لا ضرورة منه .

والتشابه كما هو فى العصور ذات المدنية الرفيعة ربما كانت له مثالبه التى لابد لى أن أتعرض لها بعد قليل ، ولكنه ليس تهلكة للفن . وهو من ناحية — ولا ريب — نتيجة لرأى عام متنور له خطره ولا يقبل أن يستخف به . وهو ينتج — إلى حد كبير — من أن الفنانين بعد ما وجدوا أنفسهم فى عالم متزن قد تخلصوا من ضرورة القيام باحتجاجات يتظاهرون بها — وبين الفنان والجمهور فى المجتمع ذى الحضارة الرفيعة مجال مشترك لا يجد الفنان لديه مبررا لأن يرتاب فى خيانته أو لأن يحتقره لاحتمال عقمه . بل على العكس من ذلك نراه يفترض العطف وحسن الإدراك . ولأن الجمهور المتمدن أقل من غيره احتمالا لأن يحسب بقايا حركة تحتضر تقليدا من التقاليد ، نراه لا يحس بالخوف الشديد الذى لا يحتمل من أن يغل العرف يديه . ففى العصر ذى الحضارة الرفيعة لا يعادى الفنان التقاليد ولا يعدم الثقة فيها ، وإنما يتناول منها فى حرية كل ما يستطيع أن تقدمه . ومن أسباب التشابه الظاهرة فى العصور ذات المدنية الرفيعة خصيصة أخرى من خصائص المجتمع ذى الحضارة الرفيعة ، وهى خصيصة تنشأ من ناحية عن الإحساس بالقيم — ومن ناحية أخرى ، تنشأ عن التعقل ، وترتبط ارتباطا وثيقا

بإصرار المدنية على المعايير: وتلك هى أن المجتمعات ذات المدنية الرفيعة مجتمعات مهذبة .

إن آداب السلوك نعمة لا يغض من قيمتها قوم عندهم إحساس بالقيم . غير أن آداب السلوك تترتب كذلك على التعقل ، وهو الصفة الأولية الأخرى من صفات المدنية ، لأن التعقل يؤدى إلى تفتح الذهن ، وإلى الرغبة فى الاستماع إلى ما يقوله الآخرون ، وإلى النفور من الوسائل الدكتاتورية . وحيث أنى الآن أحاول أن أصف العوامل التى تتفرع من الإحساس بالقيم فلن أعتدى على الموضوع الذى أعتزم أن أتعرض له فى فصل آخر . وإن شئتم تركنا التعقل وما يتولد عنه وشأنه . ومن الواضح أن الإحساس بالقيم الذى يسعى لأن يستخلص من الحياة خير ما تعطيه — هذا وحده يكفل أدب المعاشرة أو التهذيب — والخير هنا ما لا يتخلى عنه الفرد لما هو دونه[1] . وكذلك تجد أن من يملك الإحساس بالقيم لا يقصر فى تقدير التفوق الجوهرى المجرد الذى تتميز به المجاملة فى السلوك على الوقاحة السليطة . أما كيف يؤثر هذا الذوق المتمدن الذى يؤثر دماثة الأخلاق فى الفنانين الناشئين المبتكرين المبتدعين فتيوقف إلى حد ما على أمزجتهم . غير أن هنالك دائما طريقتين

---

(١) يشير بركليز فى رثائه بصفة خاصة إلى رقى آداب السلوك عند الاثينيين . يقول ثيوسيديد فى ص ٣٧ من الجزء الثانى « الأدب فى الحياة الخاصة هو ما يضمن لنا الانسجام » .

ولكى نعرف الأهمية التى كانت تعلقها النهضة على آداب السلوك انظر كتاب كورتيجانو باسم Cortigiano Passim (أى رجل البلاط) واذكر أن هذا هو الكتاب الذى تداولته الطبقات المتعلمة .

لإحداث أى تغيير ، إحداهما فطنة لبقة ، والأخرى سافلة صخابة . والمتمدنون يؤثرون الطريقة الأولى .

ولم يبلغ بى السخف بطبيعة الحال أن أزعم أن الفنانين فى العصور المتمدنة يتفوقون على الفنانين فى العصور غير المتمدنة . فالفن قد يزدهر فى هذه العصور أو تلك . وقد يستفيد من هذه أو من تلك . وإنا لنشعر أن بعض الفنانين متقدمون فى المدنية ، مثل فدياس وسوفوكليس ، وأريستوفان، ورفائيل ، وراسين ، وموليير ، وبوسان، وملتن ، ورن ، وجين أوستن ، وموزار ، وإنا لنشعر أن غير هؤلاء لم يضربوا فى المدنية بسهم وافر ، مثل مشيّدى الكاتدرائيات الغوطية ، وفيلون ، وشيكسبير ، ورمبرانت ، وبليك ، ووردزورث ، وأميلى برونتى ، وهويتمان ، وتيرنر ، وڤاجنر ، وصانعى الأوثان فى الكنغو . إننا لا نستطيع أن نقول إن إحدى المجموعتين أرقى من الأخرى . والواقع أن الفرق بينهما ليس أساسيا . إنه فرق فى الوسائل وليس فى الغايات . إن غاية الفن هى بعينها فى كل مكان وزمان — هى التعبير الكامل عن حالة معينة من الإحساس الجمالى ، أو لعلى أستطيع أن أقول إنها خلق صورة لها دلالتها . ولا يختلف الفنانون المتمدنون عن الفنانين غير المتمدنين إلا فى الوسيلة التى يحققون بها هذه الغاية ، أو فى موقفهم من المشكلة أو معالجتهم لها . الفن أحد أمرين فى هذه الدنيا لهما صفة ذاتية جدا . ومن ثم فإنه لكى تقدر خصائص الفن المتحضر قدرا كاملا ، يجب أن ننظر فى خصائص الفرد المتحضر . وحيث أنا سنفرد لهذا الفرد فصلا بأسره بعد قليل أرى أن نسمح للفنان المتحضر بانتظار دوره . ويكفينى

الآن أن أذكر أنه من الحماقة أن نفترض أن الفنانين المتحضرين أرقى أو أحط من الفنانين غير المتحضرين . وليس أحكم من ذلك أن تقرر أن المدنية تلائم أو لا تلائم نهوض الفنون . ومن المجتمعات الثلاثة المثالية اخترناها ، اثنان مبدعان إبداعا استثنائيا ، وثالث مبدع إبداعا عاديا. المدنية لا تشجع ولا تثبط ، ولكن ، لما كانت الأمزجة المختلفة تنتعش فى الأجواء المختلفة ، فيبدو أن المدنية — على الأرجح — إما مشجعة أو مثبطة لبعض الفنانين المعينين. كم من أمثال ملتن ورفائيل وموزار، ممن لم يرتفع لهم صوت ، ولم يجر على اللسان لهم ذكر ، ما كانوا ليفقدوا الأمل أو يُهملون فى جو الفزع والهمجية الذى ساد العصور المظلمة ؟ وهل لم يكن من الجائز أن يسحق القرن الثامن عشر — الذى قص جناحى بليك — الأمل المرفرف لعدد من العباقرة ذوى العقول الغوطية، وأن يسخر من فنان مثل ڤاجنر أو وبستر ولا يقدر البتة فكرة تنادى بالتعبير الذاتى ؟

إن النظرية الشائعة التى تقول بأن المدنيات الرفيعة تفرض على الأفراد بالضرورة التشابه والمساواة ، هذه النظرية هى ما تقول به عادة النظريات الشائعة : وانظر إلى عهد النهضة تجد الدليل ، ومن الواضح — برغم هذا — أن الشخص الشاذ يكون فى الوسط الذى يرتقى فيه معيار الثقافة والذكاء أقل ميلا وأبعد احتمالا لتمييز نفسه عن الجوع منه فى الوسط الذى ينحط فيه هذا المعيار . ومن ثم فربما ظهر الميل إلى التشابه . وهذا خطر من أخطار المدنية . غير أن مجرد نظرة إلى التاريخ تكفى لأن تبين لنا أن هذا الميل إلى التشابه ليس خصيصة من خصائص المدنية.

ولكن الخطر قائم على كل حال . وحيث أنى أحب الإنصاف ، وحيث أنى قد أكدت منذ البداية أن المدنية ليست هى المثل الأعلى ، فإنى أستميحكم العذر فى أن أخصص بضع صفحات أحاول فيها أن أبين بالمثال مبلغ هذا الخطر على وجه الدقة . ولنبحث فى حالة فرنسا وانجلترا .

إن الرجل الانجليزى إذا كان على جانب من الاستعلاء يجب أن يقف على قدميه ، إذ أنه لا يجد حوله ما يستطيع أن يتفضل بالاستناد إليه[1] . لابد له أن يشق طريقه الخاص ، لأن الطرق العامة جميعا تسير خلال أرض كئيبة لا تطاق وتؤدى إلى مناطق مقفرة من الحياة العقلية وإلى قرى الضواحى . إن حياة الرجل الانجليزى أو المرأة الانجليزيةمن ذوى المواهب تأكيد مستمر متواصل لشخصيته أو شخصيتها فى وجه ظروف لا تعطف عليه بل تعاديه معاداة إيجابية . الطفل الانجليزى الذى يولد بشعور رقيق ، أو إحساس خاص بالفنون ، أو ذكاء خارق مطلق ، يجد نفسه منذ البداية فى خصومة مع العالم الذى ينبغى له أن يعيش فيه . فهو لا يفكر فى قبول تلك المواضعات القومية التى تعبر عن أحقر ما فى مجتمع كريه . وهو منذ البداية لا يتوجه أيام الآحاد الى الكنائس أو المعابد . وربما اختلف الأمر لو كان التوجه الى القداس الكاثوليكى . كما أن المواضعات القومية التى تحدد الحياة العائلية والتى تكاد أن تجعل من المستحيل قيام علاقة وثيقة أو دقيقة ،

---

(١) إننى أكرر هنا ثانية ما ذكرت من قبل فى مقال لى عن « النقد » .

هذه المواضعات لا تثير فيه سوى التشوق إلى الفرار . إنه ربما ينشأ فى جو تُزدرى فيه كل فكرة لا تؤدى إلى غاية عملية ، أو لا تظفر على أحسن تقدير بأكثر من اطراء متكلف . وذلك حينما يشتهر عظيم من العظماء فى أوربا بأسرها برغم المعارضة الشديدة التى يلاقيها ، فيكافأ بحق بلقب من الألقاب أو بعمود من أعمدة النعى فى صحيفة «التيمس». أما الفنانون فما لم ينجحوا نجاحا تجاريا أو يظفروا باعتراف معرض عام من معارض الصور ، فمن المؤكد أن يصبحوا سخرية أسراتهم . وهكذا يُثار دائما كل ما لديه من إحساس رقيق ، فيحيا حياة شاذة مستوحشة خجلة ، و « جون بول » تحت أنفه و « پنش » فى زاوية غرفته ، حتى يلتحق بمدرسة خاصة ، وعندئذ إما أن تحطم روحه الألعاب الإجبارية وتقاليد أرنولد أو أن تجعل منه ثائرا مدى الحياة .

إن أى شاب انجليزى موهوب جدا ، صلب الرأى فى معارضته العنيفة لأكثر ما يحيط به ، يحتمل أن يزداد تنبهه إلى نفسه وإلى عزلته . فى حين أن زميله الفرنسى يمحو شذوذه برفق عن طريق اتصال ميسر ، وهو يزداد إحساساً يوماً بعد يوم بتماسكه مع شركائه فى سر عجيب جليل . إن فرنسا — فى الواقع — ما زالت لها مدنية . أما الفتى الانجليزى فهو يزداد إحساسا بفرديته . يزداد شذوذا يوماً بعد يوم ، كما يزداد حباً فى المغامرة ، وتزداد شخصيته وضوحاً إنه يقصم كل روابط العرف فى يسر وسهولة، ويتعلم أن يعتمد على نفسه إعتمادا كليا ، فلا يثق إلا فى تقديره الخاص لما هو خير وما هو حق أو جميل . هذا التقدير الشخصى هو كل ما يتعقبه . وفى غضون تعقبه لا يلتق بعقبة من العرف يحتاج لحظة واحدة إلى التردد

فى هدمها . المدنية الانجليزية ، أو ما يسمى بالمدنية الانجليزية ، متكلفة منافقة ، أبعد ما تكون عن التهذيب ، وهى فى أعماقها وحشية ، حتى إن كل انجليزى من ذوى المواهب يصبح حتما من الخارجين على العرف والقانون . إنه ينمو برفض ما يحيط به ، وتترعرع شخصيته ، لا يراعى عرفاً ولا يتمسك به ، ولا يعوقه كثيراً — وهذه نقطة هامة أيضا — عسف الحكومة وتعقبها له . لأن الرجل الانجليزى — حتى بداية الحرب على الأقل — الذى كان يجرؤ على تحدى العرف كان أقل من الفرنسى خشية من القوانين . من أجل هذا كله ، كانت انجلترا بلداً لا يسر العيش فيه رجلا لديه إحساس بالجمال أو بالفكاهة ، أو يتذوق الملذات الاجتماعية ، أو ذو حس رقيق . ومن ناحية أخرى لدينا تلك الفردية العظيمة التى لا تحد ، وذلك الاستقلال ، الذى مكّن لبعض أفراد من الانجليز ذوى العبقريات أن يبدعوا أعظم أدب فى التاريخ بأسره ، وينشئوا أكثر الأفكار الحديثة ابتكارا وعمقاً وجرأة .

وإذا كان التشاجر لا يتم إلا بين اثنين ، فكذلك التبادل لا يتم إلا بين اثنين . وحتى إذا كان خير الفرنسيين يرغب فى الاتفاق مع المجتمع ، فلابد أن يكون ذلك لأن المجتمع لديه ما يقدمه لهم مما يستحق القبول . وما عند المجتمع الفرنسى للتقديم هو المدنية الفرنسية . العرف قيد للفكر والشعور والعمل . ولما كان كذلك ، فهو عدو الابتكار والشخصية ، ومن ثم كان مقيتا عند الرجال ذوى المواهب الممتازة فى الابتكار أو الشخصية . غير أن العرف الفرنسى يسوده جو بهيج من التحرر ، وتقدم فرنسا لأولئك الذين يتقيدون به المشاركة فى أقرب

المدنيات الحديثة إلى الكمال. وهى رشوة مغرية. كما أن جرعة الدواء نفسها مشوبة بالحلاوة بدرجة مقبولة. تقول التقاليد الفرنسية: هكذا تشعر، وهكذا تفكر، وهكذا تعمل، وليس ذلك لأسباب خلقية، وأبعد من ذلك أن يكون لأسباب نفعية، إنما هو لأسباب جمالية. ألزم القاعدة، لا لأنها صواب أو لأنها نافعة، ولكن لأنها لائقة — بل جميلة. إننا لا نقول لك كن محترما، وإنما ندعوك ألا تكون فظاً غليظاً. إننا نقدم لك بغير مقابل علامة لها قدرها فى أنحاء العالم بأسره. كم من أجنبى يود لو يقدم عينيه لقاء أن يقال له أو لها «كم أنتَ — أو أنتِ — فرنسية!» .

وعند ذكر ما ينجم عن احترام الفرنسيين هذا للقاعدة، يجب علينا أن نسجل ما له من مزايا وما عليه من مثالب. إن ما فقدته فرنسا فى اللون ربحته فى الخصوبة. وإذا سجلنا قائمة عالمية للشرف للتفوق العقلى والفنى وجدنا عدد الأسماء الفرنسية يزيد كثيراً عما يتناسب مع مساحة البلاد ومقدار ثروتها. ثم إن هذا الأساس من التقاليد هو الذى رفع الثقافة الفرنسية إلى مستوى الامتياز. إن فرنسا لم تكن قط بغير معايير. ومن ثم تطلعت بقية القارة الأوربية إلى فرنسا دائما تلتمس مقياسا للتفكير الدقيق، والحس الرقيق، وما يستمتع به الناس كافة من ملذات. ولولا العرف الفرنسى لكان بقاء فرنسا هذا الأمد الطويل مركزا للمدنية أمرا مشكوكا فيه. بيد أنه من الحق — من ناحية أخرى — أن الصورة التى يعرضها التاريخ الفرنسى لا يظهر فيها نسبياً إلا القليل من الأعمال الضخمة أو الشخصيات الهائلة. وليس من شك فى أن فرنسا كانت شحيحة فى هذه الشخصيات. وقد كان أكثر العظماء — وكثير من

الطبقة الثانية — من الكتاب والمفكرين والفنانين الانجليز «شخصيات» عظيمة ، فى حين أن الحياة الأدبية والفنية فى فرنسا كانت تتسم بإدراك صحيح وتهذيب مشوب بشىء من الملل الخفيف ، ولا يشذ عن ذلك سوى القليل من الشخصيات الضخمة المدهشة . ولست أشك فى أن بعض الفرنسيين يولدون بموهبة تبشر بالقدرة على الابتكار العظيم ، ولكنهم لا ينجحون البتة فى أن يحيوا حياتهم أو يعبروا عن أنفسهم تعبيرا كاملا ، لأن التقاليد الفرنسية تستميلهم إلى قبول العرف واتباع القاعدة. وسرعان ما تقفز إلى ألسنة الفرنسيين من ذوى المواهب العقلية والمتفوقين فى الثقافة عبارات مثل هذه « ذلك هو العرف » أو « هذا غير مقبول » ، وذلك لأنهم لم يرغموا قط ، كزملائهم الانجليز ، على أن يفكروا ويشعروا ويشقوا لأنفسهم طريقاً محتملين فى سبيل ذلك أن يقضوا حياتهم محبوسين — كالمذنبين من أهل الصين — فى صندوق لا يستطيعون فيه أن يرقدوا أو يجلسوا أو يقفوا أو يميلوا أو يرتعوا أو يفعلوا أى شىء آخر سوى أن يتمرغوا ، ولذا فإنى أقر بأن الموهوبين من الشبان الفرنسيين يقبلون العرف وقواعد الحياة ، لأن هذا العرف وتلك القواعد ليست — فى فرنسا — مخيفة أو فظيعة بدرجة كبرى ، وهى ليست كذلك — فى يقينى — لأنها بقايا تقاليد متمدنة ، أما ما لست أقره فهو أن يكون ذلك من عيوب المدنية الكبرى .

وإذا انتقلنا من فرنسا الحديثة وتدبرنا عصر اليونان العظيم وجدنا أنه لا يقل فى خصوبته عن انجلترا فى القرن السابع عشر فى الشخصيات الحية المبتكرة. وكذلك لم تكن إيطاليا لعهد النهضة مثلا واضحالا تسّباع

القواعد الخلقية والعقلية . وإذا كانت فرنسا – التي كانت خلال الثلاثمائة سنة الأخيرة – أرقى أقطار أوربا مدنية – تبهرنا بالوفرة في العقول الممتازة وانتشار الثقافة أكثر مما تبهرنا بالعقول النابغة والشخصيات الباهرة ، فربما كان مرد ذلك إلى مزاج الجنس وإلى غير ذلك من الأسباب . ومن المحتمل ألا تكون زيادة المدنية في فرنسا سببا في تخلفها في هذا الاتجاه أقوى من أن نقص المدنية في انجلترا كان سببا في تفوقها فيه . فالهمجية لا تحث من تلقاء نفسها على ظهور العبقرية وقوة الشخصية والاتجاه نحو التعبير الذاتي في اللغة . ولكن انجلترا – حتى ذلك الحين – شجعت صفة من الصفات ربما كانت هي أقوى الأسباب في ذلك ، وتلك هي احترام الحياة الخاصة احتراما يفوق كثيرا ما كان يتمتع به الناس في أقطار القارة الأوربية . إن الرجل الانجليزي الشاذ ، أو النابغ ، أو العبقري ، الذي يقذف به الجو السائد إلى الكهوف والأركان المنزوية ، كان في تلك الكهوف والأركان يجد مجالا للبقاء والتطور إلى أي حد يريد . ومن هنا كان اشتهار انجلترا كدار لاحتضان روح الابتكار والشخصيات الفذة ، ومن هنا كان حقها في أن تكون بعيدة الصيت في هذا الاتجاه . ولا تزال انجلترا تشتهر بذلك ، ولكنها ربما لا تكتسب هذه الشهرة بعد هذا ، فهناك حركة تميل إلى الغض منها . لأن الاعتراف بالشذوذ خاصية ارستقراطية . وعلى الانجليز أن يتعلموا اتباع القواعد ، وعليهم وجوب التطور بحكمة في أخاديد مرسومة . وقد باتت الطاعة والخضوع والانصياع أكثر قبولا في انجلترا منذ أن قبلت الخدمة الاجبارية مستخفة في ذلك بتقاليدها القديمة . ومن المحتمل – إذا ما بلغ

حاملو تذاكر الاشتراك من ناحية ، ونقابات العمال من ناحية أخرى ، أقصى آثارهم السيئة — أن تفقد انجلترا — خلال بضعة عقود من السنين — من فوق هامتها العباقرة ، والشخصيات ، وروح الابتكار ، فتبدو عارية فى همجيتها المعهودة ، وأن تصبح موضع السخرية والازدراء فى العالم طرا . إنها بذلك تستبعد فرديتها ، دون أن ترتفع فى سلم المدنية .

إن من يملك الإحساس بالقيم لا يمكن أن يكون من السوقة . إنه يقدر الفن والفكر والمعرفة من أجل ذاتها ، لا من أجل احتمال نفعها . وحينما أقول من أجل ذاتها أقصد بطبيعة الحال أن تكون وسائل مباشرة لحالات عقلية طيبة هى وحدها الغايات الطيبة . فإن أحدا لا يتصور اليوم أن قطعة فنية ملقاة فى جزيرة غير مأهولة لها قيمة مطلقة ، أو يشك فى أن قيمتها الحقيقية تنحصر فى أنها تستطيع فى أية لحظة أن تصبح وسيلة لحالة عقلية تتفوق فى امتيازها . ولما كانت الأعمال الفنية وسائل مباشرة لمتعة جمالية فهى وسائل مباشرة للخير . والبحث وراء الحقائق العلمية والفلسفية وإدراكها ، بحثا وإدراكا مجردا عن الغرض ، هذا البحث وذلك الإدراك يمكن اعتبارهما كذلك وسائل مباشرة للخير ، لأنهما يثيران حالات عقلية مشابهة تتصف بعمق الشعور . بيد أن قيمة المعرفة تختلف عن ذلك . فالمعرفة ليست وسيلة مباشرة للخير ، وعملها بعيد عن هذا المحيط . فالمعرفة الدقيقة بتواريخ ملوك انجلترا وملكاتها لا تستثير النشوة فى أحد . المعرفة غذاء له قيمة كامنة لا حد لها ، ويجب أن يتمثلها العقل والخيال قبل أن تكون لها قيمة إيجابية . ولن تصبح المعرفة وسيلة

مباشرة لحالات عقلية طيبة إلا بعد تمثلها . إلا أنه بغير هذا الغذاء يميل العقل والخيال كلاهما إلى الضمور والالتواء ، بل يتعرضان لخطر القحط المميت .

ليس فى المعرفة عند أصحاب الإحساس بالقيم ما يستحق التقدير إلا دسامتها . وإن يكن من الواضح أن لها كذلك أهمية عملية . المعرفة تمكننا من صنع السيارات وإصلاح السيقان . وإنما يميز الشعوب المتمدنة أولا أنها قادرة على أن تدرك قيمة المعرفة كوسيلة لبلوغ حالات نفسية رائعة ، وأنها تقدر هذه القيمة ثانيا قدرا يفوق أية فائدة بعيدة نفعية أخرى . والجمال بطبيعة الحال ليست له البتة قيمة عملية . والصورة الحسنة قد تحث على سلوك نافع ، ولكن الصورة السيئة كذلك — بل وأكثر من ذلك — تؤدى إلى نفس هذه النتيجة . ومن علامات الرجل الهمجى — أو السوقى — أنه لا يملك الإحساس بالقيم ، ولا يستطيع أن يميز بين الغايات والوسائل ، وبين الوسائل المباشرة والوسائل البعيدة ، فهو لذلك يريد أن يعرف ما للفن والتأمل والعلم البحت من فائدة . فإن أجبته أنها وسائل مباشرة — أو تكاد أن تكون كذلك — لحالات وجدانية لها أكبر القيمة وأعمق الغور لأسباب واضحة جلية ، لم تقنعه ولم تبعث فى نفسه رضى ، مالم تقل له أنها المفاتيح التى يفتح بها أبواب الجنة ، ومالم تستطع بطريقة ما أن تقدم له ثمار الفردوس . وكيف تستطيع أن تقدم له هذه الثمار ؟ إن ذلك لا يكون — فيما أحسب — إلا بتمكينه من مشاهدة الفردوس . وأؤكد لكم أننى لا أعرف كيف تستطيع أن تمكنه من هذه المشاهدة ، بين أنى أتصور أن هذا ما ينبغى

أن تقوم به التربية . إذا استطاع المعلمون بطريقة ما أن يجعلوا البنين والبنات العاديين يدركون هذه الحقيقة البسيطة : وهى أن الدنيا ربما لا تقدم له (أولها) شيئا أفضل من المال اليسير والعمل الكثير ، إلا كلا منهم يستطيع إن أراد أن يحيا حياة مليئة بالملذات المستساغة . إذا استطاع المعلمون أن يجعلوهم يدركون أن المتعة التى يظفر بها المرء وهو وحيد فى غرفة متواضعة ، هى غرفة نومه وغرفة جلوسه فى آن واحد ، بعقل متنبه مدرب مزود بالمعرفة ومعه كتاب ، أكبر من متعته بامتلاك اليخوت وجياد السباق ، وأن النشوة التى يحسها من صورة عظيمة أو رباعية من رباعيات موزار أشد من نشوته من الجرعة الأولى من زجاجة الشمبانيا (وأن يصدر ذلك عن ذواقة مخلص) . إذا استطاع المعلمون هذا ، لحلوا — فيما أظن — عقدة المشكلة الإنسانية . أنا لا أستطيع أن أحل هذه العقدة . ولا أستطيع إلا القول بأن الشعب الوحيد الذى يملك مفتاح قصر الملذات هذا هو الشعب الذى يعرف كيف يقدر الفن والفكر لذاتهما والمعرفة كأداة للثقافة .

إن السوقة يعيبون على الإغريق فى بحثهم وراء الحقيقة خلوهم من الغرض . لقد دفع الإغريق التأمل الرياضى ودراسة الهندسة إلى حد لا يزال يدهش له أولئك الذين يقدرون على قياس الأرض المحسوسة . وهم أساتذتنا فى التفكير المتافيزيقى والخلق والسياسى . فى حين أنهم بلغوا فى النظريات الميكانيكية حدا مكنهم من أن يخرجوا بطريقة غير مباشرة نموذجا للآلة البخارية . ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة استغلال هذا الاختراع، مما أذهل العصور التالية . إنهم لم يصنعوا إطلاقا قاطرة،

أو بارودا ، أو حتى دولا باللغزل. إنهم كانوا يبحثون عن الحقيقة لذاتها، وكوسيلة للثقافة ، لا كوسيلة للسلطان والراحة . وأهم من ذلك أنهم كانوا يزدرون أولئك الذين يبحثون عنها لفائدة مادية أو لكسب شخصى ، لاعتقادهم أن هذه البواعث الدنيئة أحط من كرامة الأحرار ولا تتفق والحياة المهذبة . بل ربما أدهش بعض العلماء أن يعرفوا أن الأثينيين كانوا يحسبون الاشتغال بالتجارة مخلا بالشرف . ومع ذلك فإن أفلاطون وأرسطو كليهما يؤكدان ذلك .كان الاثينى يؤثر أن يحيا حياة غنية على أن يكون غنيا . ومن أجل هذا نعد الأثينيين أرقى الشعوب حضارة فى التاريخ .

كان يمر بخاطر الأثينيين أحيانا أن الشىء الجميل يحتاج إلى مبرر آخر غير جماله ، وربما يرجع السبب فى ذلك أولا إلى أنه قل من الأفكار ما لم يخطر للعقل الأثينى .

أما الإيطاليون لعهد النهضة فكانوا أقل من الأثينيين تفكيرا فى الأمر . بيد أنه ينبغى لنا أن نعترف أن الفرنسيين فى أخريات القرن الثامن عشر أساءوا استخدام فن التصوير بغير خجل . فكانت صور جروز مثلا توصف دون حياء لإنهاض الروح المعنوية ، فهى تنبه الحس، وتثير الشفقة . وترتب على ذلك أنك تجد حتى اليوم بعض ذوى الأذواق ممن لا يستطيع أن يدرك أى مصور بارع كان جروز حقا . إن القرن الثامن عشر — كما قررت آنفا — كان أصح موقفا فيما يتعلق بالحق منه فيما يتعلق بالجمال ، كما كانت النهضة أصح موقفا فيما يعلتق بالجمال منها فيما يتعلق بالحق . ومع هذا فإن تقدير النهضة للدراسة الخالصة التى

لا تهدف إلى غرض كان تقديرا صادقاً ، وقد جعل ذلك براونتج حقيقة مسلما بها فى شعره الخيالى الذى قال فيه :

هذا الرجل الوضيع يبحث عن عمل قليـل يؤديه
فيلقاه وينهيه
وهذا الرجل الرفيع ، يتابع أمرا جليلا
فيموت قبل إدراكه
هذا الرجل الوضيع يجمع واحدا إلى واحد
فسرعان ما يبلغ المـائة
وهذا الرجل الرفيع يهدف إلى المليون
فلا يبلغ غايته
هذا عالمه هنا — فهل يحتاج إلى العالم الآخر ؟
إن هذه الدنيا ترعى شئونه
وذاك يتوجه إلى الله ، ودون أن يساوره قلق
يبحث عنه حتى يلقاه
وفى نضاله ، تهبط عليه أيدى الموت الخانقة
وتزهقه وهو وراء قواعد النحو يعدو .
ووسط الضجيج ، يبحث فى أنواع الكلام
إنه يضع قواعد النحو وهو فى نطقه يتعثر
بعد ما يصيبه فى نصفه الأسفل الشلل المميت .

ومهما يكن من الأمر فذلك اتجاه لا يسير فيه السوقة . إنها حياة ينفقها صاحبها فى متابعة « العلم الذى لا ينفع » . إن النحوى يروعنا ويثير فينا قليلا من السخرية فى آن واحد . وهو لا يثير سخريتنا لإهماله للقيم العامة ، وإنما يثيرها فينا تركيزه الجنونى على موضوع واحد قيم مع إهمال كل موضوع آخر . إن المتخصص لن يكون إنسانا كامل المدنية . وربما كان القرن الثامن عشر عصرا غير عملى كعصر النهضة . ولا يزال من المألوف بين أبناء الطبقة الدنيا من أصحاب الاتجاهات العقلية أن يعتبوا على ذلك العصر الساحر انكبابه كله على علوم تأملية بحت مثل الرياضيات والهندسة واهتمامه بها أكثر من اهتمامه بعلوم نافعة كعلم الحياة والكيمياء . لقد تمت فى عصر العقل مكتشفات ميكانيكية هامة ، غير أن أحسن العقول لم تهتم بها إلا قليلا . والعلوم « النافعة » ، التى حظيت باهتمام شديد هى علوم السياسة وعلم الاقتصاد وحدها . ولا زلت من الطراز القديم الذى يعدها نافعة . وقل من المؤرخين من لا يعزو إلى اشتغال هذا القرن بالمعنويات ما اتصفت به الثورة الفرنسية من الاهتمام بالأمور النظرية . وهم يرون أن جيلا نشأ على آراء داروين وسبنسر لا يمكن أن يطمئن إلى التحيز العلمى أو إلى الدراسات النظرية البحت . ولست أدرى ماذا عسى أن تقول البقية الباقية من الطبقة البروجوازية الروسية فى هذا الصدد .

وعن الإحساس بالقيم تنشأ تلك الرغبة وذلك الاعتقاد فى التربية الحرة التى لم يخل منها عصر من العصور المتمدنة . إن غاية ما يشتهيه كل إنسان متمدن أن يظفر بأغزر وأوفى حياة ممكنة ، حياة تضم أقصى

ما يمكن من التجارب الحية الرائعة . ولما كانت تلك هى رغبة الإنسان المتمدن فإنه يهدف إلى تطوير نفسه تطويرا كاملا وإلى التعبير عن ذاته تعبيرا تاما : ولا يستطيع تحقيق ذلك إلا من تعلم التفكير ، والشعور ، والتمييز ، ومن تعلم أن يترك العقل حرا فى معالجة كل موضوع ، وأن يجعل مشاعره تستجيب استجابة صحيحة لكل باعث . والمعرفة مطلوبة فوق هذا ، لأن العقل بغير معرفة يبقى عبدا للهوى والخرافة ، فى حين أن المشاعر لا تتغذى عندئذ إلا بطعام وحشى رتيب . إن الرجل المتمدن يتطلب تعليما يكون بقدر الإمكان وسيلة مباشرة لما هو وحده خير كغاية من الغايات . إنه ينمى قواه فى التفكير والشعور ، ويتابع الحقيقة ، ويكتسب المعرفة ، لا لأية قيمة عملية قد تنطوى عليها هذه القوى ، ولكن لذاتها ، أو لقدرتها على كشف إمكانيات الحياة الغزيرة المعقدة — وهو فى ذلك يتميز تمييزا واضحا عمن يأبه بتوافه الأمور والفائز فى المسابقات . أما الرجل من السوقة ، الذى ينقصه الإحساس بالقيم ، فهو يتطلب من التربية أن تنير له الطريق إلى الثراء والسلطان ، وهما هدفان ليست لهما قيمة إلا باعتبارهما وسائل بعيدة لذلك الخير النهائى الذى تقودنا إليه مباشرة التربية الحرة . إن التربية الحرة تعلمنا الاستمتاع بالحياة ، أما التربية العملية فتعلمنا اكتساب الأشياء التى قد تمكننا أو تمكن غيرنا من الاستمتاع بها .

قل من الأمور ما اهتم به الاثينى اهتمامه بتربية ابنه . ولما أصبح أهل ميتلينيا سادة البحار لفترة ما كانوا يعدون أكبر عقوبة يوقعونها على الذين لا يذعنون لهم من حلفائهم حرمانهم من المدارس . وإذا

استثنينا البلاغة واستخدام السلاح فإن منهج التعليم فى أثينا لم يهدف مباشرة إلى نتائج عملية . وكانت إيطاليا وريثة لليونان . وليس هناك ما هو أدل على قوة النهضة وذوقها من أنها فرضت زهاء أربعمائة عام على الطبقات الحاكمة فى أوربا تربية حرة كما كانت فى ذلك الحين . ونحن نعرف تمام المعرفة ما كانت تراه خير العقول فى إيطاليا فى هذه المشكلة الأساسية للتربية . لأن بولدا ساركاستجليونى عالج الموضوع فى شمول يدعو إلى الإعجاب ، ولخص حججه وأمثلته فى قوله إن الآداب هى التى تزين النفس الحقة الكبرى . وكان هناك بطبيعة الحال فى المنهج الجديد كثير من الغبار والرماد . إلا أن التقليد الذى ورثته النهضة عن الإغريق كان على كل حال يقوم على أساس اللغة اليونانية ، وهو فى هذا يختلف اختلافا كليا عن عبث العصور الوسطى وحذلقتها . وبدراسة الأدب والفلسفة الإغريقية أتيحت الفرصة على الأقل لصفوة الشبان فى جميع الأمم لاكتساب خير ما يستحق التحصيل . لقد كانت لأوربا تربية تقليدية حرة فى أساسها . وبقى هذا التقليد دون أن يعارضه أحد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وإن كان المنهج خلال القرن الثامن عشر قد تطور مع تقدم الزمن ، دون أن يسف ، فأدخل عليه تعليم الرياضيات والهندسة بدرجة أعم وأنظم . أما فى القرن التاسع عشر فقد هوجمت هذه التربية هجوماً عنيفا وبدأت تتلاشى بصورة محسوسة . وذلك من أثر الثورة الصناعية ، ، وظهور الطبقات الوسطى ، وعبادة كسب المال التى كانت تسمى أحياناً « إنجيل العمل » ، والحماسة لمسايرة الزمن . وقضى عليها نهائيا خلال ما يسميه مستر ه . ج . ولز « الحوادث

المحزنة فى السنوات الأخيرة القلائل[1] » وما يسميه « بالحرب » من نشأ على التربية الحرة .

إن الإحساس بالقيم والقدرة على التمييز بين الغايات والوسائل ، تكفى لأن يؤمن المرء بالفردية . ومن المؤكد أن صفة أساسية أخرى — وهى تتويج العقل — تتولد عنها كذلك الأهمية القصوى للفرد . ولكن لما كنا أثناء نظرنا فى رغبة الرجل المتمدن فى تقدمه الذاتى اقتربنا من هذه الخصيصة من خصائص المدنية الرفيعة ، فيجدر بنا أن نعالجها كذلك فورا . إن كل من يدرك أن حالة العقل الطيبة هى الغاية الوحيدة الطيبة ، ومن يدرك أن ليس هناك ما يبرر افتراض وجود عقل جماعى ، كل من يدرك ذلك سيرفع بطبيعة الحال من شأن الفرد الذى لا يوجد الخير المطلق إلا فيه وحده . إن مثل هذا الشخص إذا تجاهل أن كل تعميم يجب أن يقاس فى النهاية بتجربة الفرد لا يمكن العفو عنه . لأن الحديث عن خير القطيع كأنه شىء يختلف عن خير الأفراد الذين يتألف منهم القطيع أمر وحشى سخيف حتى عند السياسيين حينما يخدم ذلك أغراضهم . ومن ثم فإن الساسة البريطانيين — برغم استعدادهم للحديث عن المصالح البريطانية كأنها تختلف عن مصالح الشعب الذى يسكن فى بريطانيا — صعقوا صعقاً شديداً لمغالاة الصحفيين الألمان الذين قدسوا الدولة الألمانية فوق الفرد الألمانى . إن الدولة لا يمكن أن تكون غاية

---

(١) من مقدمة « موجز التاريخ » .

لذاتها . إنها لا تعدو أن تكون وسيلة لتلك الحالات العقلية الطيبة التي هي وحدها غايات طيبة ، ولا تتوفر إلا للأفراد .

وكثيراً ما اضطر الاثينيون إلى التوفيق بين حقوق المواطن وحاجات المدنية . وقد أفلحوا عامة في الاحتفاظ بالمجال حراً للشخصية — وذلك على الأقل حتى بدأت سنوات الحرب تبلد إحساسهم بالقيم — فمكنوا بذلك لظهور تلك المدنية التي ما برحت عجب العالم الغربي وفخاره. وسوف أتحدث طويلا عن الحرية الاثينية في الفصل المقبل ، عندما أتعرض للكلام عن مولود العقل الأول — التسامح . ويكفيني في الوقت الحاضر أن أطلب إلى القارىء أن يسلم بها . ولن أذكر هنا سوى أن الإغريق كانوا مخترعين للفردية بصورة ما . وفي عالم يسوده الرق والخرافات الشرقية ، كانوا أول من هب لإثبات القيمة الشخصية للمواطن المتعلم الذكي . كانوا أول من فكر في أن المرء بحواسه وعواطفه وذهنه هو سيد العالم ، وأن الدنيا قوقعته التي يستطيع أن يفتحها بالذكاء والشجاعة ، وأن عقل الفرد يقابل قوى الطبيعة ، وأن كل إنسان يستطيع أن يشعر وأن يفكر هو ملك حقاً .

وكذلك الإيطاليون لعهد النهضة أحسوا إحساساً قوياً بأهمية الفرد باعتباره المصدر الأساسي لكل ما هو مثير فاخر له دلالة . بل ربما غالوا — كما ذكرت من قبل — في تمجيدهم للشخصية. ولم يكفهم أن يزعموا للفرد تمام الحرية في التعبير والتجربة ، بل أخذوا يغذون الشخصية حتى باتت استكباراً وأنانية . وأسوأ من ذلك أنهم كانوا يظنون هذه الصفات البربرية في أساسها امتيازا شخصياً . ولم تقع في هذا الخطأ

العصور التى ارتفعت فى أوج المدنية عن عصر النهضة مثل عصر بركلين وڤلتير : فإن حسن السلوك ، والمعاشرة ، وغير ذلك من المميزات التى تتقدم كلما أصبحت المجتمعات المتمدنة أكثر تقديرا للذة الحديث ، كل ذلك خفف فى أمثال هذه العصور الميل الفردى لتقرير الذات بالاعتداء . ولكن لا جدال فى أن هذه العصور الثلاثة كانت ممعنة فى الفردية . وربما كان خير ما تظهر فيه فردية الإغريق فلسفتهم ، وخير ما تظهر فيه فردية النهضة إسرافها . وليست بى حاجة - فيما أحسب - للتدليل على أن القرن الثامن عشر كان فردياً بأن أبين كيف أن كل تلك الآراء السياسية التى بلغت أوجها فى الثورة الفرنسية كانت تقوم على أساس حقوق الإنسان وأهميته الخاصة باعتباره بشراً .

وربما كان لا بد لى من ذكر كلمة عن شىء يترتب بالضرورة على الفردية - الفردية التى تتولد من العقل ، والفردية التى تصدر عن الإحساس بالقيم - وأعنى بذلك « العالمية » . إن المرء الذكى الذى يحس بفرديته لا يحتمل أن يحس بالحب الشديد للدولة ، التى يعدها - حقا - على أحسن تقدير ضرورة خطرة . إن الميل نحو العالمية القائمة على أساس الفردية ، وهو حركة تحرر من غريزة القطيع أمر لابد أن يلازم تقدم المدنية . بل إن هذا الميل يكاد أن يكون بحق معيار الحضارة . إن السلطان المطلق يتحكم فى غريزة القطيع الهمجية . وعند الرجل الهمجى فكرة غامضة جدا عن القيم التى تتخطى حدود القبيلة ، وهو لا يعطف على شىء يخرج عن نطاقها . ولكن الرجل المتمدن يعطف على غيره من المتمدنين بغض النظر عن محل ميلادهم أو إلى أى عنصر ينتمون ،

ويشعر بالقلق مع المتوحشين والسوقة — حتى إن كانت له بهم صلة من صلات الرحم — يقطنون فى كنف المنطقة التى يعيش فيها . ولن أورد هنا الأمثلة التى تدل على عالمية القرن الثامن عشر ، غير أنى سوف أقدم اقتباساً واحداً من رجل بارز حجة فى الموضوع لكى أخفف من القلق الذى يساور رجلا جاهلا قد يضطره عمله إلى مطالعة هذا الكتاب .

« بقى علينا أن نشير إلى إحدى مميزات فلسفة القرن الثامن عشر ، وهى تعتمد على جميع المميزات الأخرى أو تتصل بها : إنها عالمية ، يتمخض عنها أدب عالمى . . . إن جيوش الملك قد هزمت على يد رجل بروسى ، ولكن هذا البروسى كان يتكلم الفرنسية ، وكان بنا أشبه من جندى يموت من أجل الملك . . . ومن ثم فإن هازم روزباخ كان موالياً للمدنية الفرنسية . فوطنيتنا تتركز فى هذا الانتصار الروحى . . . ذلك أن تحرره العقلى (وهو من صفات الفرنسى فى القرن الثامن عشر) كان يحول دون تحيزه ضد العنصر أو اللون . . . والرجل الذى يستحق هذا الاسم هو الذى لا يخضع إلا للعقل : غير أن هذا الرجل لم يكن فرنسياً أكثر مما كان ألمانياً : إنه أوربى ، إنه صينى ، أنه من كل مكان يقطنه الإنسان ، وجميع الحقائق التى يحتويها العقل البشرى إنما وجدت لمثل هذا الرجل العالمى [1] » .

وقد اقتبست من قبل من كتابات المفكرين الإغريق مقتطفات تدل على عالمية كاملة التطور وازدراء جرىء لقيود الوطنية : وتذكرون

(١) من تاريخ « الأدب الفرنسى » تأليف لانسون .

ماقال ديموقريطس الأبديرى من أن « كل بلد تحت منال الرجل الحكيم ، وأن الأرض بأسرها موطن الروح الطيبة » وقد سارت النهضة على هذا النهج. لأن الإنسان حينما يشرع فى تحرير الفكر تخف عنه وطأة الوطنية. ومن ثم فلا عجب أن تجد كوروس أوركيس — وهو اسم نختاره اعتباطا — الرجل الانجليزى الذى يهتم بالجمال أو الحق أو المعرفة أشد عطفاً على الفرنسى أو الألمانى أو الصينى الذى يشاركه ذوقه منه على ابن موطنه الذى يشارك فى ذوقه مجلة « پنش » أو « جون بول » .

غير أن الوطنية هوى يشق أبعاده عن الدولة أو المجتمع . والعالمية — وهى النتيجة المنطقية للفردية — بطبيعتها صفة من صفات الفرد أكثر منها من صفات الجماعة . وليس من شك فى أن الاثينيين كانوا وطنيين ، إلا أن وطنيتهم تخلو من بعض مساوئها لأنهم كانوا صادقين فى حبهم أثينا لما كانت عليه ، لا لفكرة وحشية ساذجة وهى أنها مدينتهم . كانوا يحسون هذا الإحساس عن تفكير ، لما فى المدينة من صفات معينة محببة ، لا عن غباء لِعَلَمِها أو اسمها . وكذلك كان للأثينيين عذرهم ، فقد كانت دولتهم محاطة بدول أخرى تهددهم وتعاديهم . وكان لا مناص لهم من الإحساس بأنهم يقفون موقف الدفاع . ولما انتصف القرن الخامس عشر هبطت هبوطا كبيراً الحماسة الوطنية للمدن الإيطالية، واستأجر الطغاة جيوش المرتزقة لأغراضهم السياسية . ولم يسهم المواطنون إلا قليلا — أو لم يسهموا قط — فى الحروب التى نشبت بين الأسرات . ولو أن الإيطاليين أدركوا أن المدنية الإيطالية فى جملتها مهددة — كما كانت — من جانب البرابرة الجرمان أو الأسبان ، ولو أنهم

سلحوا أنفسهم للدفاع، لهبطوا ولا شك بمستوى مدنيتهم ، ولكان لهم فى ذلك ما يبررهم كما كان للاثينيين . وتكاد أن تكون جميع حروب القرن الثامن عشر منازعات بين جيوش من الجند المحترفين المدربين على القتال أحسن تدريب . فاشتهر المدنيون المتفوقون فى تعليمهم بانتفاء العاطفة الوطنية والبغض بينهم .

إن جميع الشعوب المتمدنة عندها إحساس بالقيم . ويختلف هذا الحكم فى معناه عن قولنا إنه كان لديهم ناموس للأخلاق. ففى الأخلاق ربما كانوا متشككين كل التشكك ، وربما قبلوا نظرية ثابتة مسلما بها، أو نظرية تقوم على الإلهام الشخصى ، أو ربما أخذوا بمبدأ النفعية وأقروا أنهم يسعون لتحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس. ولكنك لن تجد شخصا متمدناً من جميع نواحيه يقبل قانوناً للأخلاق يهدف إلى توفير أكبر قسط من السعادة لأكثرية مجموعة مختارة اعتباطا وبغير تمييز . إن الفرد إذا تقدم فى المدنية لا يمكن أن يقبل الوطنية كقاعدة خلقية بغير تردد . أنه يميل بحق إلى الإقلال من التفكير فى حدود المجموعة . كما أن اعتبار « بلده » وحدة لها مصالح تتميز عن مصالح بقية العالم فكرة تفقد وضوحها تدريجا فى نظره ، حتى يشعر فى النهاية — بعد ما يدرك أن الفرد وحدة لها مصالحها المتميزة وهذا الكوكب وحدة أخرى — إن حدود جميع الوحدات المعروفة الاخرى وتخومها غامضة اعتباطية . هناك أفراد وهناك الجنس البشرى : وحينما تتدبر العقول القوية المدربة فى حرية وانطلاق تنهار العقيدة فى وجود الحواجز المأمونة بين هاتين الحقيقتين الثابتتين . وقد يكون من

أسباب التيسير أحياناً — لأغراض تنظيمية أو بيولوجية مثلا — أن ننظر إلى الأفراد أعضاء فى جماعات : الرجال ، والنساء ، والأطفال ، أصحاب الساق الواحدة أو الرئة الواحدة ، قصار الناس ، وطوالهم ، وأصحاب الشعر الأحمر ، والمتعلمون ، ومدمنو الخمور ، وحمالو السكك الحديدية ، والحلاقون، والألمان ، والإنجليز والأتراك . إلا أن مثل هذه المجموعات لا يمكن أن تكون لها ما للأفراد من واقع أو من صفة أكيدة أو وجود لا نزاع فيه ، أو ما لهم — فى الحقيقة — من فردية. وأهم من ذلك أن الجماعات التى تقوم على أساس الوضع الجغرافى أو الفروض الجنسية تبدو فى اعتبار المدنية أقل من غيرها واقعية وأقل منها فى الصفات المشتركة وأشد غموضاً .

العالمية سلاح تميل المدنية إلى الدفاع عن نفسها به حينما يشتد تهديد العصبية الوطنية ، لأن الوطنية خصم لدود للمدنية . هى مرض قوض فى النهاية صرح أثينا ، وهدد أكثر من مرة سلامة كيان القرن الثامن عشر. وإنا نشك فى أن التعصب الدينى نفسه قد تولدت عنه من الويلات البربرية ما يفوق هذه الظاهرة الحديثة من مظاهر غريزة القطيع . كم من ملايين البشر انهار أو أفقر من جراء هذه الظاهرة التى هى من بقايا عصر ما قبل الإنسان ؟ كم من إمكانيات الخير العام ما ضُحى به فى سبيل هذه الزائدة سريعة التهيج ؟ والعصبية الوطنية — برغم هذا — غول لا يمكن الاقتراب منه : ولا يستطيع أحد أن يحدثك على وجه الدقة عن ماهية الأمة . إن وجود ألمانيا وانجلترا يشبه وجود ناديين من نوادى كرة القدم . تستطيع اللجنة التنفيذية فى كل منهما أن تختار أحد عشر لاعبا

يتبارون مع أحد عشر لاعبا آخرين ، يهتف مؤيدوهم من الجانبين ويهللون . ومع ذلك فإن أحداً لا يشك فى أن العامل من عمال السكة الحديدية فى كرو بينه وبين زميله فى شفيلد قدر مشترك أكبر مما بينه وبين رئيس الغرفة التجارية فى كرو الذى قد يكون بالمصادفة رئيس نادى كرة القدم. إن الناس جميعا يستطيعون الانحياز ، وأكثرهم يستطيع أن ينحاز إلى أى جانب . من أجل هذا كان من اليسير الإبقاء على روح التعصب الوطنى حيا . ولكن إذا كان هناك معنى حقيقى فى تقسيم الناس إلى قوميات مختلفة ، لابد بالتأكيد أن تكون هناك صفات مشتركة يختص بها كل من ينتمى إلى قسم معين . فما هى هذه الصفات ؟ ما هى الصفات الخاصة التى يشترك فيها ملتن مع بوتملى وشلى ومستر لويد جورج وداروين وسر أولفر لودج ودوق ولنجتن وفستا تلى ، وأسقف لندن ، والأسقف باركلى ، وبليك وكولردج وسروليم جوينسن هكس ؟ ولما كنا قد بلغنا هذا ، فما هى الصفات الخاصة التى اشترك فيها معك أو مع الرجل الذى جلب لنا النصر فى الحرب ؟ إنه يتكلم الانجليزية ، وكذلك يتكلمها الرئيس ولسن ، وكذلك يتكلمها القيصر ولهلم : إن المستر جورج يتكلم لغة ويلز كذلك ، التى لا أتكلمها أنا على الأقل . وهناك لغات أخرى قديمة وحديثة أعتقد أننا نتفوق عليه فيها . ومن ثم فإن اللغة ، بدلا من أن تضم بعضنا إلى بعض ، توحى بتقسيم ربما باعد بيننا . إن ثلاثتنا ولد فى الجزر البريطانية ، وربما ولد فيها كذلك كارل شيدنتز ، وماريوس بيرفت ، وديمترى بروتو بوبوف ، وسقراط كثنيرفت ، والحاج بابا ، وعبد اللطيف ، وبوشى لنج ، وأرنست روثشيلد وشيوزا مونى (وهم

أجانب من جنسيات مختلفة) . فهل أفرض أن التعصب الوطنى ، ذلك الشيء الذى من أجله يتحمل المرء كثيرا من المشاق ، ويتجاوز عن كثير من المزايا ، هو نفس الشيء الذى يشترك فيه هؤلاء الرجال معا ومع مستر لويد جورج ومعى ؟ إن كان الأمر كذلك ، استطعتَ أن تفهم فى يسر لماذا يرى المتمدنون باطلا معينا فى تقسيم الناس إلى أمم .

ومن الصفات التى يتميز بها تميزا واضحا الرجل المتمدن من الرجل الهمجى روح الفكاهة . وليست روح الفكاهة — عند التحليل الدقيق — سوى إحساس بالقيم ارتفع كثيرا فى سلم التقدم . ولست أقصد بروح الفكاهة استساغة المجون والتهريج . وأستطيع أن أتصور ، مثلا ، ما يقوم به القدّا فى سيلان من وضع الأشواك فى حصير الآخرين ، أو اليوروبا فى غرب أفريقيا من تبادل التسلية بالحكايات الماجنة . وإنما أقصد بروح الفكاهة القدرة على إدراك الجانب المضحك من أخذ الأمور مأخذاً جدياً أكثر مما تستحق ، وإعطائها أهمية ليست جديرة بها . ولا يتمتع بهذه القدرة إلا أولئك الذين يستطيعون أن يفرقوا بين الوسائل والغايات . فما يثير الضحك أن تعزو إلى الوسيلة الأهمية التى تستحقها الغاية . ولما كانت كل أعمال البشر لا تبلغ المثل الأعلى ، فإن جميع المحاولات البشرية تبدو أحياناً فى عين الرجل المتمدن من جميع نواحيه أموراً تثير الضحك ولو إلى حد ضئيل . غير أن الحماسة فى البحث وراء الحب والجمال والحق أمور لا يعلو فيها الضحك ولا يطول إلا من الحمق الذين لا يستطيعون أن يدركوا هذه الحماسة أو يقدروا الهدف منها . إن الحالة العقلية التى تسيطر على المحب ، أو على من يبدع أو يتأمل الجمال ، أو

على من يتطلع إلى قمم الحق العالية ، حالة طيبة فى حد ذاتها ، ومهما تكن الوسيلة التى تستخدم فى بلوغها شاقة أو بغيضة ، فإنه يجب ألا نحكم عليها بعدم الملاءمة — وإن كنا فى الواقع كثيراً ما نفعل ذلك . إن هذه الأمور غايات طيبة ، ومن ثم يشق أخذها مأخذ الجد أكثر مما ينبغى . وإذا ماخرجنا عن هذا النطاق المقدس للغايات وطرقنا باب الوسائل ، وشرعنا ننظر إلى الناس الذين يشغلون أنفسهم بالسياسة والتجارة والكرامة والراحة والسمعة والشرف وما إليها ، فسرعان مايتبين لنا أنهم يعالجون هذه الوسائل بالجد الصارم الشديد الذى لا يجوز إلا للغايات . إنهم يأخذون هذه الأمور مأخذاً جدياً أكثر مما ينبغى . يدلك على ذلك إحساسك بالقيم ، وترد عليه روحك الفكاهية بومضة من السرور لها لون معين لا يراه إلا المتمدنون .

هذا السرور الذى لا يستطيع أن يدركه الرجل الهمجى بما لديه من إحساس بدائى بالقيم ، وعجز عن التمييز بين الوسائل والغايات ، هذا السرور يستمتع به كل رجل تمدن بدرجات مختلفة . إن روح الفكاهة تميز من مميزات الفرد الضالع فى المدنية . إلا أنه لأسباب أرجو أن أوضحها حالا لا يترتب على ذلك أن يعيش أرقى الأفراد مدنية فى أرقى العصور مدنية . بل على العكس من ذلك يبدو أن أرقى الأفراد مدنية فى أى قرن له نصيب من المدنية يجب أن يكونوا أرقى مدنية من نظرائهم فى القرن السابق بشرط أن يكون تراث الماضى دائما فى متناولهم وأن تتوفر لهم وسائل الاستمتاع به . فقد كان أكثر الرجال تمدنا فى القرن الثالث عشر أحط فى المدنية إلى درجة لا تقاس من الآثينى أو حتى من

الروماني المثقف ، وذلك لأن العصور الوسطى كان يشق عليها أن تستمد أي شيء من الماضي أو أن تفيد كثيرا من القليل الذى تحدر إليها . وحتى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يكن الطريق بعد معبداً ، ولا أتصور أن أشد رجال النهضة تهذيباً كان يظهر بمظهر الشخصية التي لها قيمتها في دائرة أسبسيا Aspasia ولكن إذا كانت النهضة ما برحت تتجه إلى أعلى ، فمن المؤكد — فيما أظن — أنه عندما انتصف القرن الثامن عشر كان هناك من الرجال والنساء من سموا في المدنية على سابقيهم . ويرجع السبب أولا في ذلك — من غير شك — إلى أنهم تعلموا منهم الكثير . إلا أن الرجال والنساء الضالعين في المدنية في القرن الثامن عشر لم يؤثروا برغم هذا في عصرهم تأثيراً قوياً عميقاً كما فعل المتمدنون في أثينا . وربما يعود ذلك إلى أنهم كانوا نسبة ضئيلة من السكان . كانت مدنية القرن الثامن عشر أحط درجة من مدينة بركليز . ولكني برغم هذا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد بين الأثينيين من يبلغ في مدنيته مبلغ فلتير . وعلى أية حال فان الرجل الكامل المدنية في القرن الثامن عشر كان أرهف حسا في فكاهته من الآثينيين بدرجة واضحة . لم يبلغ أرستوفان نفسه مبلغ لافونتين (منذ البداية) في رقة الحس ، أو مبلغ جرسيه ، أو منتسكيو ، أو ماريفو ، أو فلتير ، أو بومارشيه ، أو — في هذا الشأن — مبلغ كنجريف ، أو بوب ، أو جولد سمث ، أو ستيرن ، أو جبن ، بل إن أرقى المتمدنين في العصر الحاضر ربما فاقوا كل من عداهم في دقة الحس ، من حيث الفكاهة ، أو في تقديرها على الأقل . وإن كان الأمر كذلك فلست في حاجة إلى أن أعزز رأيي بأن أذكر أن ظهور عصفور واحد من عصافير الجنة لا ينبيء بقدوم الصيف .

وأرانى فى هذه الفقرات الأخيرة كنت أبحث فى الموضوع من نهايته إلى بدايته ، فى حين أنه كان ينبغى أن أرجىء معالجته إلى بعد ذلك وأن أعالجه فى جو خاص به . إن روح الفكاهة ، والعالمية كذلك، من صفات الشخص المتمدن أكثر من أن تكون من صفات المجتمع المتمدن . ومع إنى أرمى إلى التدليل على أن المجتمع المتمدن ليس إلا مجتمعاً لو نته حفنة من الأشخاص المتمدنين ، إلا أنى لم أثبت ذلك بعد . وليس غرضى المباشر أن أصف الرجال والنساء المتمدنين ، وإنما غرضى أن أكتشف الصفات التى تشترك فيها وتختص بها تلك المجتمعات الثلاثة التى عددتها نماذج الكمال . ولما كنت الآن قد انتهيت من ذكر هذه الصفات التى تنشأ عن الإحساس بالقيم ، فلابد لى أن أتجه نحو تلك الصفات التى تعزى إلى تتويج العقل .

— ٥ —

مميزاتهم : تتويج العقل

يرى المؤرخون إن خطاب بركليز — الذى واسى فيه الثكلى من مواطنيه بذكر فضائلهم التى يتميزون بها — يتضمن لب المدنية الأثينية . غير أن المؤرخين يخطئون التفكير أحيانا . إن خطبة بركليز أداء جميل يوحى بجو جميل . ولم يكن ليستطيع إلقاءها إلا رجل عظيم يخاطب بها رجالا يعلون كثيراً فوق متوسط الفكر والشعور فى العصر الحديث . وإنها لتنبو فى مجلس العموم كما تنبو فى مؤتمر اتحادات العمال . ولكنى لن أتوجه إلى أى خطاب أو إلى أى رجل سياسى باحثاً عن أمر دقيق كلب المدنية . أن الخطب السياسية قد تكون مظاهر للمدنية . وكذلك قد تكون القوانين ، والقبعات ، وفنون الطهو ، ولكنها لن تكون معبراً عن روحها . وأدنى إلى صواب الرأى أن نكشف عن سر أثينا خلال ما كتبه أرستوفان ، ويوربديز ، وأفلاطون ، وتقاليد السفسطائيين ، لاخلال خطب بركليز ، وايسوقراط ، وفوكيون . وإن كنا نأمل فى العثور على ذلك الزعفران الذى يخلع على الثقافة الهلينية طعمها ولونها ، فسنجده عند الشعراء والفلاسفة والمؤرخين . ولست أقول إنا لانجده إلا عند هؤلاء ، بل ولست أقول إنهم كانوا أهم الناشرين لهذا اللون . بل على

العكس من ذلك أتعشم بعد قليل أن أبين أن ينبوع المدنية يتفجر عن مصادر ومستودعات غير معروفة — من نوع معين — ولو أنها تصب فى مسالك معروفة ، وأن أبين أن ناشرى الثقافة جماعة من الرجال والنساء أكثرهم لا ينشئ عملا محسوساً ولا يترك أثراً ملموسا ، وإن كانوا ينشرون الأثر الذى يتبدى فى روح العصر . وعلى أية حال فمن السخف أن نجعل من السياسى ممثلا للحركة الروحية أو العقلية . إننا لا نحكم على مبدأ النفعية ، وهو من إنتاج تفكير آدم سمت وريكارد وبنتام وملز، من خطب مهاوس ومستر روبك، ومن خطب مستر كوبدن ومستر برايت. كما أن ترجو ونكر — برغم عظمتهما — لا يعطيانا إلا فكرة ناقصة عاجزة عن الحركة « الفلسفية » . إن إحياء العلوم وحرية الفكر فى شمالى أوربا كان شيئا يختلف كل الاختلاف عن دعاية لوثر الصاخبة وانتهازية فردريك السكونى وهنرى الثامن . إن رجال السياسة — فى أوقاتهم — يلمعون فى الأفق كما يلمع الممثلون وراكبو الخيول ، ثم يتوارون عن أعين الجمهور كما يفعل هؤلاء، ولا يعرفهم بعدئذ إلا الباحث المنقب المتطلع وحده .

« سخرية فى حياتهم ، منسيون بعد مماتهم » .

وإذا صدق الشق الثانى من هذا الاقتباس ، فلابد أن يصدق الشق الأول : إذ ليس أدعى إلى السخرية من رجل محكوم عليه بهذا النسيان السريع ، يختال اختيال الوزراء ؟ ثم خبرنى ، كم صديق لك يستطع أن ينبئك من كان رئيس وزراء انجلترا فى وقت واترلو ، ومن كان وزير الحرب ،ومن كان قائد الأسطول . وكم من أسماء الساسة الأحياء العاملين

فى عام ١٨١٥ معروف عند جمهور القراء؟ ربما عرفوا كاننج، وكاسلرى (وبخاصة لأنه كان موضع سخرية بيرن وشلى) وربما كذلك عرفوا جراى. ولكن هل يعرف أكثر من اثنين من قادة وانجتن غير طالب متخصص فى التاريخ الحربى؟ ومن كان على رأس الأسطول البريطانى حينما اعتلى نابليون متن بلرفون. ولكن إذا كان المثقفون والمثقفات من الانجليز لايعرفون اسم رئيس الوزراء الذى انتصر فى حروب نابليون فيما يظن، ولايعرفون أسماء زملائه الوزراء، ولا أكثر من اثنين من قواده العسكريين، ولايعرفون أحداً من قواده البحريين، فان كل طالب جامعى متوسط يستطيع أن يقول لك إن شلى وبيرون وكيتس وورد زورث وكولردج وسذى ولام وهازلت وسكت ومور ورجرز وجين أوستن كانوا يكتبون فى ذلك الحين. وتفسير ذلك يسير: إنهم يذكرون هؤلاء لأنه كان لهم — ولايزال لهم — أثر حقيقى مباشر على عقول الناس، ولأنهم لايزالون يخلقون الأفكار والمشاعر الجديدة ويستثيرونها، ومابرحوا يوحون إلينا بوجهات نظر جديدة، أو يغيرون وجهات قديمة، بل ولأنهم ما فتئوا يضيفون الآن جديداً إلى مستودع الخير فى هذه الدنيا. أما رجال السياسة فهم — فى أحسن الظروف — لا يقومون إلا باستخدام وسائل الخير التى أنتجها غيرهم وتوزيعها بين البشر. ولكنهم لا يخلقون قط جديداً. وهم لا يُذكرون قبل كل شىء إلا بسبب الحوادث الجليلة المسرحية التى ارتبطت بها أسماؤهم، ولكنهم لم يكونوا باعثيها. بل إن هذه الحوادث الجليلة — كما رأينا — لا تنجيهم دائماً. إنهم ينتمون — بوجه عام — إلى تلك

الطبقة الثالثة أو الرابعة التي لا يمكن أن تلعب دورا رئيسيا فى تاريخ الجنس البشرى ، وإن تكن ربما لعبت دورا مرموقا . إن رجال السياسة يتركون فى الاسطوانة خدوشا وندوبا ، ولكنهم لا يبدعون النغم . إنهم لا يبتكرون ولا يستنبطون ولا يعدلون كثيرا من تلك الدوافع المحسوسة المنبعثة عن العقل البشرى والتى يتشكل بها تاريخ الإنسان . ومن الخطأ إذن أن نتوقع منهم أن يكونوا من بين أولئك الذين يبدعون المدنية ، وإن كنا كثيرا ما نجدهم مظاهر لها دلالتها لتلك المدنيات التى هم جزء منها .

ومن أجل هذا فلن أتوجه إلى بركليز ألتمس عنده سر المدنية الاثينية ، وإن كان يسرنى أن أعده مثالا لما يمكن أن تنتجه المدنية الاثينية . وفى خطابه جزء واحد أود أن أركز عليه اهتمامى لأن الظاهر أنه يعبر على وجه الدقة عما كان يحسه الاثينيون إزاء أولى وأهم صفة من صفات المدنية التى تنبع من تتويج العقل — وأقصد بها « التسامح » . يقول بركليز : « إن روح الحرية تسود شئوننا العامة كما تسود شئوننا الخاصة . إننا دون أدنى غيرة نتسامح فى الاتجاهات الخاصة بجميع ضروبها فى حياة كل منا : ولا يعارض أحدنا فى أن يسير جاره وفق مزاجه : ولا ينظر أحدنا شزرا ، نظرات تضايق وربما لا تؤذى[1] » . إن هذا النوع من التسامح ، وهو من أقوى الدلائل على رقى المدنية ، لا يتأتى إلا من الثقة فى العقل ، فإن حسن الذوق لا يكفى . إن الإحساس بالقيم قد يؤدى

---

(١) ثيوسيديد — الجزء الثانى ، صفحة ٣٧ .

بطرق ملتوية إلى الإحساس بضرورة الحرية الشخصية . إلا أن الأساس الثابت الوحيد للتسامح هو الإدراك الذهنى الواضح لأن العقل وحده هو الذى يحق له أن يحد من الحرية . العقل وحده هو الذى يستطيع أن يقنعنا بتلك الحقائق الأساسية الثلاث التى لن تكون هناك حرية فعالة دون إدراكها . وهى إن ما نعتقد فيه لا يتحتم صدقه . وإن ما نحب لا يتحتم أن يكون خيرا ، وإن كل فرض محتمل . إن إحساسنا بالقيم يجب أن يبين لنا أننا لو حرمنا على أى فرد أن يعبر عن نفسه تعبيرا كاملا أفقرنا حياتنا ، ولكن العقل وحده هو الذى يقوى على الحد من تلك الرغبة الجامحة — التى تكمن فى صدر كل منا — فى إرغام الآخرين على أن يكونوا على غرارنا . ينبغى أن يكون العقل هو الحكم الوحيد ، والعقل يسمح لنا بألا نحد من التعبير الذاتى عند الآخرين إلا بمقدار ما يمكن التدليل — عقلا — أن مثل هذا التعبير الذاتى يهدم من أسباب الخير أكثر مما يبنى .

إن إحساسنا بالقيم يحملنا على أن نشعر بالرغبة فى توفير أكبر قسط ممكن من التعبير الذاتى لكل إنسان ، ومن ثم وجب علينا أن نتسامح لا فيما يرى غيرنا فحسب ، بل كذلك فى طرائق سلوكهم فى الحياة .

. . . .

إن شعار المدنية عند الاثينيين ، وهو من أروع مايفخرون به يتمثل فى هذه العبارة :

« لسنا أحرار الفكر فى السياسة وحدها . إننا دون أدنى غيرة نتسامح فى الاتجاهات الخاصة بجميع ضروبها فى حياة كل منا ، ولا يعارض أحدنا فى أن يسير جاره وفق مزاجه . ولا ينظر أحدنا شزرا ، نظرات تضايق وربما لا تؤذى » .

وإذا قلت لى إن الاثينيين حكموا على سقراط بالموت ما حققت بهذا القول هدفا طيبا . فأنا أعلم ذلك من قبل ، ولكن إذا كان عصفور واحد من عصافير الجنة لا يخلق جو الصيف ، فإن ثلاثة أيام مظلمة لا تخلق الشتاء ، إن الاثينيين — بما كان لديهم من حرية الفكر والنقد ، واتساع آفاق العقل ، والتطلع الى المعرفة ، واستساغة التجريب — قدموا مثالا حاولت خير العصور المقبلة عبثا أن تحاكيه ، إن خير عقول الغرب تتجه دائما نحو أثينا تلتمس الوحى والتشجيع . أثينا وحدها تقدم لهم ما يقرب إمكان تحقيق آمالهم فى المثل العليا . لأن الشهوة الجامحة للحق والجمال نالت شيئا من التحقيق العملى فى أثينا وحدها . كان الاثينيون يهتمون بغريزتهم بالجمال ويؤمنون بالحق . وقد أعطاهم هذا الإيمان شيئا يفضل استساغة الحرية . أعطاهم الاعتقاد فى ضرورتها المطلقة . كان عند الاثينيين دين للدولة لا تعوقه المذاهب كثيرا ، بل ولم يعتنقه فى حماسة أصحاب العقول النافذة بعد منتصف القرن الخامس . كان دينا يبدو أنه لم يقف إلا فى وجه سقراط — وفى وجه انكساجوراس لفترة ما — فحال دونهما وحرية التأمل . كانوا بحاجة إلى تقديس محرم أو محرمين قديمين تقديسا رسميا . إلا أن الناموس الأخلاقى الوحيد الذى وضعه القانون والرأى العام موضع الاعتبار العظيم هو ناموس الأخلاق العملى .

كان يُطلب إلى المواطن ألا يرتكب أفعالا تنافى المجتمع منافاة شديدة . غير أن الإثينيين لم يقصدوا بالأفعال التى تنافى المجتمع أى شىء تمقته الأغلبية أو تسىء فهمه . فلم يعارض أحدهم فى أن يسير جاره وفق مزاجه. لقد حاولوا أن يكونوا متسامحين .

وحينما أقول إن تتويج العقل صفة لازمة من صفات المجتمع الضالع فى المدنية ، فإنى أرجو ألا تتصوروا أنى أفترض أن كل إثينى ينظر إلى كل موضوع يمر بحياته نظرة عقلية بحت . لا تتصوروا أن يوليس قيصر حينما قال إن البلجيكيين جنس شجاع كان يفترض أن كل فرد بلجيكى كان جسورا كالأسد. ومن المؤكد أن القرن الثامن عشر فى فرنسا الذى شغف بالعقل أكثر مما شغف به القرن الخامس الهلينى كان يعتقد أننا بحاجة إلى تعديلات يسيرة فى النظم لكى نجعل كل امرىء سعيدا عاقلا . أما نحن أبناء القرن العشرين الذين نتمتع بكثير من نواحى الإصلاح والثورات الجيدة فلا مفر لنا من أن نكون أقل حماسة. أما الايطاليون لعهد النهضة فقد بذلوا قصارى جهدهم لكى يحطموا حواجز عدم التسامح التى كانت قائمة فى العصور الوسطى : فكان مقياس نجاحهم هو مقدار ما فى الرد على أفعالهم من همجية. ولنذكر أن من آراء بروكارت الحكيم رأى له اعتباره وهو أنه فيما بين منتصف القرن الخامس عشر والفزع الأسبانى - الذى تولدت عنه حركة إصلاحية مضادة - كان جميع الإيطاليين المتعلمين يبيحون حرية النقاش فى الموضوعات التى تشبه خلود الروح . وبطبيعة الحال لم تكن جميع العصور الضالعة فى المدنية على درجة واحدة من التسامح

غير أنها كانت جميعا تكافح فى سبيل بلوغ الضياء ، وهم يحسون نأ محاولة فرض طرق التفكير والشعور والحياة بالقوة أمر قبيح . لقد أدركوا ،على درجات متفاوته من الوضوح، أن العقائد الجامدة والموت سواء . وكانوا يميلون فيما يتعلق بما تبقى لديهم من خرافة أن يحتفظوا به لأنفسهم . لم يحاولوا كثيراً أن يفرضوه بالقوة أو بالتهديد بفرض العقوبات الخلقية . كانت النهضة من غير شك — بما لديها من أعتقاد فى التنجيم والأدوية الخرافيـــة التى تولد العشق — تؤمن بالخرافة . ولـكنها كانت فى ذلك أقل من العصور الوسطى بدرجة كبيرة . ومن المواطنين الأثينيين عدد كبير لم يكن يؤمن بالخرافة ، بغض النظر عما كانت عليه الحال مع الرعاع المولعين بالألغاز وأ كثرهم من الرقيق . أما القرن الثامن عشر فى فرنسا فلم يكن متشككا فحسب ، بل اعترف بالخرافة كما كانت قائمة — واعتبرها العدو اللدود لما يجعل للحياة قيمتها — « إنه عار يجب أن يسحق » .

لأن الخرافة أمر يحول دون الرجل واحساسه بالواقع ، وتحرمه من تلك الخبرة الغزيرة المثيرة، وهى إدراك الواقع. إن إداك الحق ورؤية الشيء ذاته ، خبرات توازى الحب والاستمتاع بالجمال . ولـكن كيف يتوفر لمن يرقب السموات ذلك الاحساس الذى يتولد عن ظهور كوكب جديد فى محيط بصره إذا كانت الخرافة ترغمه على الاعتقاد بأن السماء إناء مقلوب ، والنجوم خصاصات يتطلع خلالها الآلة ، وإنه ليست هناك كواكب ؟ وكما أن العاشق يرى معشوقته دائما خلال سحب من الخيال فلا يدرك قط تلك المتعة السامية التى تنشأ عن ذلك

الإدراك الكامل عند إنسان آخر، أو عند موجود آخر، له ما للعاشق من واقع ، فكذلك من يتدبر الكون خلال منظار الخرافة لا يمكن أن يدرك ذلك الإحساس الذى يقابل إدراك الحقيقة العارية وقبولها فى حماسة شديدة . الخرافة تختلس من العاطفة باعثا من بواعثها الدقيقة. ولا تكتفى بذلك بل إنها بفرض حدودها على العقل المتنقل تحرمنا لذة من أدق وأرق ملذاتها . لأن العقل — وإن كان لا يموت — يتبلد ويترهل فى الأسر . إن العقل يستطيع أن يمدنا بكل ما يجعل الحديث مسلياً والمجتمع لامعاً — النكتة ، والتهكم ، والتناقض ، وحضور البديهة ، والعبث العقلى — على شريطة أن يتحرر العقل . يجب ألا تكون هناك محرمات، أو موضوعات لا يجوز المساس بها ، لأنك لن تظفر من العقل الذى يرسف فى الأغلال بشىء خير من مقال رنان أو نكتة عملية . يجب أن يتحرر العقل ليتناول كل ما فى السموات والأرض ، لاجادا فحسب بل هازلا كذلك . إنه يستطيع أن يكون مجيدا كالنسر يمتد بصره إلى آفاق بعيدة ، ولكنه كذلك كالنسر لو أصابه الكساح تخبط فى الظلام . كل ما يكون ، وما كان ، وما يمكن أن يكون ، ألاعيب ملائمة بين يديه . ولكن الخرافة تحصر ميدانه الذى يلعب فيه فى طاولات محدودة. وفى هذا المجال ، الذى تحده التقاليد الجامدة . يعشى بصره ويصبح صبيانيا فى حركاته . فيقف التأمل المثير عند حد ، وتنتهى دقة التفكير العقلى . الخرافة تختلس من العقل جده وجانباً كبيراً من لهوه. وقد أدرك ذلك القرن الثامن عشر ، فأعلن الحرب على الخرافة .

إن المتسامحين الذين لا يؤمنون بالخرافة لا يحتمل أن تقسو قلوبهم

قسوة شديدة . إلا إن كانوا عن طريق الصدفة ممن يجدون لذة فى تعذيب الناس وفى القسوة لذاتها ، وهى صفة لا تفشو بين المتمدنين أكثر مما تفشو بين المتوحشين . ومن المؤكد أنهم يمقتون القسوة التى لا تنفع ، وإنهم ليرون أن أكثر الأعمال التى تتسم بالقسوة لا تضر ولا تنفع . كان القانون فى أثينا يحرم التعذيب ، كما كان يمجه روح الشعب الأثينى . وحينما كان هذا الشعب يقوم جماعة بعمل وحشى غير مألوف ، كان يحس إحساساً جماعياً بالخجل ، ومهما يكن من أمر فإن هذا الإذلال كان أندر فى وقوعه من أن يعد صفة من صفات المدنية . إن الفردية الصارخة فى عهد النهضة أنجبت حشدا من الرجال الممتازين ، وقل منهم من نجا من وصمة تلك الصفة المقززة التى كان يتميز بها أبناء الطائفة التى ينتمون إليها . لقد تركوا سجلا من أعمال الوحشية الهائجة التى لا تهدف إلى غرض ، سجلا لا يفوت المؤرخ المضنى أن ينعم النظر فيه ، بيد أن أكثر جرائمهم كانت عملية إلى حد بعيد . ولو ذكرتم — وقد دعوتكم أن تذكروا — أن هذه الجرائم الشخصية كثيرا ما كانت تقوم مقام الحرب ، لتساءلتم إن كان من حق عصرنا هذا أن يلقى بالحجر الأول فى وجه ساسة النهضة . وقد بلغت الروح الإنسانية عند الفرنسيين فى القرن الثامن عشر حدا دعا الجمهور إلى الشعور بالاشمئزاز الشديد حينما اكتشف أن كالاس قد حكم عليه بالإعدام ظلما . وكذلك فلتير لم يمت ميتة غامضة فى السجن كما كان من الجائز أن يحدث له فى القرن العشرين . وفى عصر الإيمان كان لا مناص للناس من أن يرتابوا فى إدراك ما كان يثيره من موضوعات ، وكان لا مندوحة لهم عن إحراقه برغم هذا .

لا مفر لعصور الخرافة من أن تكون قاسية . لأن من خرافة العقيدة عندهم دائماً أن الألم وسيلة طيبة . وهو مبدأ يدين به خاصة أولئك الذين يخجلون من الاعتراف بأنهم يعتبرونه غاية طيبة . إن حب التعذيب عند الشواذ فى عصور المدنية لا يخرج عن أن يكون بقية من بقايا الهمجية .

إن العقل يميل دائما إلى فحص تلك الغرائز والذكريات الهمجية التى هى بمثابة مصادر الأهواء ومكان عبادتها . لأن الأهواء تصدر إما عن رد الفعل الجثمانى ، كما يصدر بغضى للجبن ، أو من المحرمات المنسية التى كان يمتنع عنها آباؤنا المتوحشون . وما زالت من الشابات حتى يومنا هذا فى أواسط أفريقيا من يعشن عيشة مريرة من جراء تكرار رؤيتهن للقمر فوق أكتافهن اليسرى . فى حين أن غيرهن يتسلل إلى الغابة فى فزع دائم إذا فاجأن الابن الثانى لعم إحدى خالاتهن . ومن اليسير على الفتاة أن تفقد شخصيتها فى الكنغو كما تفقدها فى مدينة كتدرائية . أننا ندين بأكثر مما نظن لجداتنا البعيدات . وقد حدثنا سرأد مندجوس كيف كان اعتقاده بأنه ارتكب إثماً فى حق الروح القدس عبئاً ثقيلا على كاهله فى بعض سنى طفولته . كما بين لنا مستر جيمس جويس منذ عهد قريب فقط فى تلك الدراسة العجيبة التى شرع فيها ولم يتم نضجها أن العقل الذى ما لبث ملوثاً بالخرافة يمكن أن يتعذب إلى حد الجنون تقريباً عندما يذكر أنه ارتكب ما يرتكبه أكثر الأطفال وفكر فيما يفكرون فيه . وإنى أعترف أن تأنيب الضمير ، الذى يشعر به كل إنسان حساس إزاء القسوة العشواء التى صدرت عنهم

والملذات التي تمادوا فيها ، ليس له من علاج . ولكن ذلك الشعور بالإثم، الذى ما زال يشكو منه كثير من ذوى النيات الطيبة ، والذى يحملون كثيرين غيرهم على الشكوى منه ، هذا الشعور — بصفة عامة — لا يعدو أن يكون أثرا من آثار الهمجية تمكن معالجته . وعلاجه فى حب المعرفة الذى يقوى ويشتد كلما ارتفع الإنسان فى سلم الحضارة .

إن المتوحشين يتطلعون إلى المعرفة ، ولكنه تطلع محصور وفى نزوات ، فهناك عدد معين من الحقائق لا يجسرون على تخطيها فى البحث، وهم لا يجسرون على بحثها إلا بأسلوب معين . إنهم لا يطلبون الحق ، وإنما يطلبون السلامة . تطلعهم غريزى ، لا عقلى ، ولا تستطيع أذهانهم المحشوة بالمخاوف أن تحولها إلى معرفة . ولكن لما كان أحد لا ينكر أن الجهل — كما تدل عليه هذه الكلمة عامة — صفة من صفات الهمجية ، فلست فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح لهذه النقطة أكثر من حاجتى إلى التدليل بالأمثلة على التطلع الحى عند أهل أثينا فى عهد بركلين، وأهل فلورنسا فى القرن الخامس عشر ، والفرنسيين فى القرن الثامن عشر . ولا بد لى من أن أؤكد نتيجة واحدة من نتائج هذا التطلع عند المتمدنين ، وهى أن الشعوب المتمدنة تستطيع أن تناقش أى موضوع من الموضوعات ، لا يحرم عليهم واحد منها ما دام لديهم ما يذكرون بصدده مما يبعث فى النفس متعة أو سرورا . ليست هناك فى المجتمعات المتمدنة مخاوف عقلية تتوقع من كبار السن صغار العقول أن يغمضوا أعينهم عند رؤيتها . وسوف أستفيض بعد حين فى حديثى عن « محاورة المأدبة » ويكفينى الآن أن أذكر أننا نستطيع — من صورة الحديث

المثالى بعد تناول العشاء التى لا مثيل لها — أن نرى أنه لم تكن هناك موضوعات يحرم الحديث فيها بين أى جماعة من الاثينيين المثقفين .
ويعلم وارسود يكامرون — وقد كان خلال قرنين أحب القراءات عند رجال إيطاليا ونسائها فى طول البلاد وعرضها — أنه فى عصور بترارك وكوسيمودى مديشى وميخائيل انجلو ، لم يكن ما يعرف « بحقائق الحياة الكبرى » ولا أشد النظم احتراما أو أكثر الأشخاص تقديسا ، لم يكن ذلك مما لا يصح أن يتعرض للنقد الحى الجرىء . وإذا أردت أن تعرف بأية نظرة حرة كان السيدات والسادة فى القرن الثامن عشر ينظرون إلى عالم الحقائق والآراء فإنى أوصيك « بأحلام دالمبير » الذى يقدم مؤلفه ديدرو جزءه الثانى — وهو أكثر الأجزاء صراحة — على شكل خواطر يتفوه بها دالمبير فى نومه ، وتدونها مدموازيل لسبيناس ؛ فى حين أن الجزء الثالث ، وهو أشد الأجزاء إثارة للذعر ، يتألف من حديث خيالى ، ليس من الجلى مستحيلا — بين مدموازيل لسبيناس ومسيو بوردى .

إن أردتم مجتمعا متمدنا ، فلابد من أن يتحرر العقل فيعالج كيفما شاء كل ما يمر بخاطره ، ولابد أن يكون حرا فى اختيار مصطلحاته وعباراته وصوره ، وأن يتعرض لكل أمر بأى أسلوب يريد ، يجب ألا تكون بالبيت غرفة محرمة (غرفة بلوبيرد) . لأنك إن حرمت على العقل أن يرود إحدى حجرات البيت حكمت عليه بالتجول الأعرج فى باقى الحجرات . من أجل هذا كان تكلف الحشمة عدوا خطرا ، وهو أشد خطرا لأن ما يزعمه يثير السخرية . من الجلى أن ما نقبله أو لا نقبله فى

العاطفة أو التعبير أمر من أمور الذوق . فذوقى لا يسيغ تلك العاطفة التى تحتويها أكثر الأغانى التى تمس قلوب الناس — مثل أغنية « مع السلامة » أو أغنية « سكت القلب » — والتعبير فيها منحط . ولكنى — برغم ذلك — لا أشير بكبتها عنوة من أجل هذا . فإنى أقر بأن ذوقى يختلف عن ذوق زملائى ، ولكنى لا يمكن قط أن أفترض أن اشمئزازى مما يحبون يمكن أن ينهض سببا لحرمانهم من ملذاتهم ، فعندى من العقل ما يحملنى على التسامح ، ولا أود أن أرى القانون يعاقب على انحطاط الذوق .
فى عهد الملكة فكتوريا كان ذوق الطبقات الوسطى يتقزز مما كان يبدو ممتعا ومسليا وجميلا لأكثر كبار الشعراء والفنانين والمفكرين والنقاد فى العصور الأخرى . وربما ظننت أن آراء أمثال هؤلاء القوم فيما أجمع عليه الرأى أنه يتعلق بالذوق لها شىء من الوزن ، وإنها تعتبر حتى عند أولئك القسس والتجار الصغار الذين اكتشفوا بغتة وبدقة عظيمة ما كان دقيقا وما لم يكن . وكل ما أستطيع أن أقول هو أن القسس والتجار كانوا أغلظ ذوقا ، ولم يتطرق إليهم أى لون من ألوان الشك فى أن أفلاطون وأرستوفان وسافو وكاتلس ولوكسر يشس ودانتى وبوكاشيو ورابليه وشيكسبير وملتن ولافونتين وفلتير وديدرو وبوب وسوفت وفيلدنج كانوا غلاظا عديمى الحس فى تلك الأمور التى يستطيعون هم أنفسهم أن يحكموا فيها حكما صائبا . وصغار القسس والتجار — فوق ذلك — يسيطرون على الميدان . ولم يستطيع مؤلف حى أن يطبع فى انجلترا شيئا من مثل ما كان يكتبه أفلاطون أو دانتى أو شيكسبير . إن القانون يعترف بانحراف الذوق السليم . إنه يتسامح من غير شك فيما كان يبدو

من قبل سوقيا مبتذلا إلى درجة لا يمكن التسامح فيها — فيما كان يبدو كذلك لأولئك العظماء من الرجال الذين تحتاج مؤلفاتهم اليوم منا إلى تبرير . إن القانون يتسامح فيما كان السادة فى عهد فكتوريا يقدرون ، ومازالت جمهرة الناس تحب . إنه يقبل الأدب والفنون التشكيلية والموسيقى ، التى تعرض عرضا حرا فى المكتبات والمتاحف وقاعات الموسيقى — وهى إذلال متصل لأى رجل أو امرأة له ذوق سليم . إنه يقبل آراء الصحفيين الشعبيين وعواطف كتاب المسرحية الشعبيين . بل إنه ليقبل ما عندنا من نصب تذكارية عامة ، ويستسيغ تمثال « الممرضة كافل » . وفى عبارة موجزة إنه يتسامح ويرعى نظرة إلى الحياة والفن كان ملتن بنكاته البذيئة وشيكسبير بأغانيه التى تدعو إلى الرثاء ، يريانها مجلبة للعار على أحط مخلوق يأخذ بها . دعنا لا نشكو : فإن كل فرد ، حتى سرهول كين ومستر إيفور نوفلد ، ينبغى أن يسمح له بالتعبير عن نفسه تعبيراً كاملا بقدر المستطاع . ولكن دعنا نأمل أنه إذا امتزج الذوق السليم بالقوة ، كان هذا المزج الموفق للقوى أرقى مدنية من أن يحكم بالإحراق على « الطبيب » و « حديقة الورد » و « دع نار البيت موقدة » .

إن كل ما نأمل فيه ، وكل ما نصبو إليه فى الأمور التى تتعلق بالذوق هو التسامح المطلق . دعنا إذن لا نشكو إيثار لورد تشمبرلين[1] « شوسن شو » على « ست شخصيات » . وإنما نشكو منه أن يحول دون استمتاعنا بالكتاب الثانى . ومن العجيب — فيما أحسب — أن يسمح لقاضى المحكمة الجزئية أو عضو البلدية ، أو الأسقف — فى أمور

(١) كبير الأمناء ، وهو فى انجلترا مختص بالرقابة على المسرح .

دقيقة رقيقة كأمور الذوق — أن يفضل فى معرفته أروع فنان وأدق ناقد . ولكن من رأيى أنه ليس من المرغوب فيه أن يتحكم العقلاء الحساسون فى ملذات الأغبياء والسوقة ، كما أنه من المؤسف أن يتحكم الأغبياء والسوقة فى ملذات فى الحساسين والعقلاء . إن أولئك المتحمسين الذين يدعون للإعجاب الذين تتحرك نفوسهم من حين إلى حين فيثيرون فى مجلس النواب أسئلة عن الرقابة على الكتب والمسرحيات ، بل ويشكون حينما يدركون أن رجال السياسة لا يأبهون مثقال ذرة لشئون الثقافة — هؤلاء يتجهون فى عملهم وجهة خاطئة . يجب عليهم ألا يصروا على تفوقهم الجمالى فيما يحبون ، بل أن يصروا على مبدأ التسامح العام . إنهم يبدون نوعا من الغرور له شره الوبيل فى هذا البلد وفى أمريكا خاصة . وإن أرادوا أن يتحاشوه ، وجب عليهم أن يحاولوا — ولو مرة — أن يتصفوا بالمهارة كما يتصفون بالخير . والواقع إن الحكم فى أمر من أمور الذوق يتطلب درجة من الإحساس أعلى من تلك التى يتطلبها الناخب العادى . ولكننا إذا كررنا هذا القول للناخب العادى ما بعثنا فيه قط إحساساً بالسرور . ومن الحق الذى لامرية فيه أن القوة العقلية والنزاهة الضروريتان للحكم على أى أمر من الأمور بما يستحق ، تبلغان حداً يجعل الحكم عامة أبعد من مناله . بيد أنه يميل إلى الحكم ، ومن أجل هذا تراه يقبل بل يحتم المعايير الآلية . وهذه المعايير ليست — بطبيعة الحال — معايير للذوق . لأن المعايير الآلية لا يمكن أن تنطبق على الذوق ، لأن الذوق أمر يتعلق بالاستجابة والإحساس الذاتى . ولكنها تؤدى غرضا لأولئك الذين لم يعرفوا قط استجابة ذاتية من الدرجة

الأولى ، بل ولم يكوّنوا حكما على أمر من أمور الذوق . كما أن المعيار الآلى الحسن فى يد رجل ثابت فى غبائه وانعدام حسه له هذه الميزة الكبرى : إنه يمكن أن يطبق على كل أمر من الأمور . إن مطابقة الحال عندئذ لا يكون لها وجود . وما إن يألف المرء الحكم على الخوخ بوزنه يجد من الميسور والممتع له أن يتجه إلى الكتب والصور . إن الرجل العادى يحب المعيار المجهز الذى يكون مستعدا دائما ويمكن تطبيقه على أى أمر من الأمور . وكما أنه لا يستطيع أن يعرف إذا كان العمل الفنى جميلا أو غير جميل ، ولكنه يستطيع أن يدرك الدليل على الحكم بأنه ليس من صنع رفائيل ، فكذلك لا يستطيع أن يعرف إذا كان الشيء مبتذلا أو غير مبتذل — لأن الابتذال أمر من أمور الحس والتعبير — ولكنه يستطيع أن يعرف إن كانت بضع كلمات بعينها قد سبق ذكرها . إن لديه معياره ، ويستطيع إن يطبقه صباحا ومساء فى عربة السكة الحديدية سواء كانت من الدرجة الثالثة أو من الدرجة الأولى . إن تكلف الحشمة تذوق آلى كما أن التظاهر بالتقوى تدين آلى . وكما أن الشخص المتدين حقاً لا يضطرب للنجاسة ، فكذلك الرجل الذواقة حقا لا يكترث للفحش أو البذاءة . ولكنك لا تستطيع أن تقنع الناخبين بهذه الحجج .

إن طريق العقل ليس ممهدا دائماً . إلا أن من يتابعه مخلصا له أن يثق فى الفوز بنوع من أنواع الجزاء الطيب . إنه يتخلص من الخوف من الاستمتاع بما فى الحياة من طيب الأشياء — ذلك الخوف الذى ليس له من العقل سند . ثقوا أن العقل يقضى على تلك الخرافات التى

تشغل أذهان البرابرة ، وتفسد عليهم لذة القنص ، وتكبلهم فى قيود من النواهى . إن المتعة الخالصة بكل ما تقدمه الحياة لنا ميزة لا يتمتع بها إلا من كملت مدنيته . إن كمال المتعة يتطلب من المرء أن يطهر عقيدته من المحرمات . ويجب أن يتخلص من الاحتشام المتكلف ، والخرافة ، والخجل الكاذب ، والإحساس بالذنب . ولا يحمله على ذلك إلا العقل وحده . ينبغى ألا يستند ناموسه الخلقى إلا على العماد الثانى من عمد المدنية ـــ وأعنى به الإحساس بالقيم . إن إحساسه بالقيم يرشده إلى أن الملذات التى تهبهــــا إياه الحواس ، أو يهبها إياه الحس الممتزج بالعاطفة ، أو الحس الممتزج بالتعقل ، ملذات ليست سيئة فى حد ذاتها . بل إن إحساسه بالقيم ليرشده إلى أن اللذة ـــ فى حد ذاتها ـــ طيبة دائماً . وعلى العقل المتمدن ألا يسمح لهذه الملذات قط أن تصبح وسيلة إلى الشر وذلك بوقوفها عقبة فى سبيل الخير أو بجعلها هذا الخير مستحيلا . ولنضرب لذلك مثلا : إن الشخص المتمدن حقا لا يرى الشراب خطأ ، ولكن المتمدنين جميعاً يحتقرون من يدمن على الشراب . فالمدمن سرعان ما يجعل نفسه عاجزا عن بلوغ حالات العقل الطيبة ، وإنسانا مزعجا للرأى العام ينبغى نبذه ، ولكن حفلة للعشاء يسودها المرح ، أمر من الأمور التى لا يتحاشاها الرجل المتمدن ما دام فى صحة جيدة . ألم يعتقد أفلاطون المتقشف نفسه أن من واجب المواطن أن يسكر فى حفل ديونيسيا[1] ؟ الرجل المتمدن لا يخشى الملذات حينما يسمع أنها تنعت نعوتا سيئة ـــ فيقال عنها فاسدة ، وشريرة ، ومخجلة . إن أمثال هذه الصفات لا تعنى بصفة عامة أكثر

(١) هذا مأخوذ من كتاب « القوانين » لأفلاطون والفصل كله ضد السكر .

من أن معظم الناس يخشون جوانب الطبيعة الإنسانية التى لم تكتشف بعد أو التى أخطأنا فى كشفها. وما دامت اللذة ليست سيئة فى حد ذاتها، فليس هناك ما يدعو إلى الخجل من أى لذة من اللذات. وإن كانت هناك لذات يرى الرجل المتمدن ألا يسترسل فيها، فليس مرد ذلك إلى أنها سيئة، وإنما مرده أن نتائجها سيئة. ومن المؤكد أنه من المخجل أن تسترق الشهوة المرء إلى حد ينزل العقل عن عرشه فيفقد المرء القدرة على وزن النتائج. من المخجل أن يسمح المرء لنفسه بالإدمان فى الملذات الحسية الساذجة حتى يشل قدرته على الاستمتاع بملذات أدق وملذات أشد إثارة للحواس. الرجل المتمدن يخجل إذا لم يكن معداً للاستمتاع بملذات المتمدنين، ويخجل من نقص قدرته على التفكير الصافى والشعور الرقيق. يخجله أن يشبع عاطفة لا يمكن إشباعها دون أن ينتهك إحساسه بالقيم ودون أن ينزل عقله عن عرشه. ولا يخجله شىء غير هذا. إن المتوحشين يسمونه رجلا بغير حياء.

ومنذ أن أصبحت دراسة اليونانية جزءا من تثقيف الرجل المهذب، أصبح مما يبعث على الدهشة الأليمة دائما عند أكثر من يؤجرون لتعليم اليونانية أنه لا يوجد شعب من الشعوب أكثر جرأة على الاستمتاع بالحياة من الشعب الأثيني. لا شك أنهم كانوا يعرفون ما هو الخجل، لأنهم مخترعوه. اخترعوه لأن الحس عندهم كان مرهفا إلى درجة لم يسبق لها مثيل. ولكن الأثينين لم يخجلوا من ملذاتهم، واسترسلوا فيها كذلك متحررين إلى حد كبير. إنما كانوا يخجلون من فقدان كل سيطرة على النفس، ومن تحولهم إلى حيوانات أو من وضع أنفسهم موضع السخرية. ويبدو أن وخز الضمير كان يطاردهم فى أعمال القسوة

والعنف . ولكن ما كان أبعدهم عن ازدراء الملذات التى كانت الفلسفة اليونانية تعدها جزءا لا يتجزأ عن الحياة الطيبة . غير أن الأثينين وضعوا « العقل » — فوق الملذات جميعا بل فوق كل شىء آخر — عاملا من عوامل الاعتدال والانسجام . ولا أحسب معلما من المعلمين يقصر فى نقل ذلك إلى تلاميذه حينما يشعر — وهو لابد أن يشعر أحيانا — بشدة الصدام بين الأخلاق اليونانية والأخلاق اليهودية . ومن المؤسف أن الإيطاليين لعهد النهضة ، الذين استعاروا الكثير من أثينا ، لم يستطيعوا أن يستعيروا منها قدرا أكبر من هذا « التعقل الحلو » . ومن المؤسف أنهم أسقطوا هبة الاعتدال بشكل ما من بين مواهبهم الرفيعة . ومن المؤسف أنهم لم يستطيعوا السيطرة على ميلهم إلى المتعة بطريقة أفضل مما فعلوا — أنه أمر مؤسف ، ولكنه لا يمس غرضى المباشر . ومن المؤكد أن الرجال والنساء لعهد النهضة لم يكونوا يخافون الأشياء الطيبة فى هذه الحياة . كانوا يستطيعون الاستخفاف بالتنجيم والسحر ، وكانوا يستطيعون إهمال تلك الخرافات التى كانت تحول بينهم وبين لهوهم . كانوا لا يشعرون بالخجل . وإن لم تصدقنى فاقرأ بنفنيوتو شلينى فى سيرته التى كتبها بقلمه . قال لاون العاشر « ما دام الله قد أعطانا البابوية فلنستمتع بها » ، وهو يعنى بالضبط ما يقول . كانت ملذاته ملذات الرجل الضالع فى المدنية (كان يمثل عصره خير تمثيل وعصره يمثل حضارة النهضة) : وكانت ملذاته تتضمن تقدير الفن والأدب ، والموسيقى والدراسة ، وكان من بينها الغناء . وكذلك النساء والنبيذ . إن قداسته لم يخجل من شىء من هذا .

واقترب ذلك القرن الثامن عشر المحبوب مرة أخرى من المثل الأعلى عند الإغريق . إن سحر ذلك العصر الساحر ينبعث حقا — ربما أكثر من أى شىء آخر — من تعقله البالغ الذى يحليه إحساس بالقيم لا مثيل له . ولست أشك فى أن هذا المزيج هو الذى يعطينا المدنية الرفيعة . وقد بلغت النهضة الإيطالية مدنية أرقى من أى مستوى كان يمكن أن يطوف ببال العصور الوسطى ، لأن إحساس النهضة الإيطالية الجمالى الغريزى كانت تخفف من حدته وتعززه عقيدة فى العقل أكثر جدية بدرجة كبيرة من ذلك الإحساس الذى كان مصدر الوعى لفلاسفة العصور الوسطى المتحذلقين . وإن ما يعطى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حلاوته الخاصة به هو هذا : بينما كان الرجال — والنساء كذلك — يفكرون بعنف وجرأة فى كل أمر من الأمور كما فعل أى قوم غيرهم ممن سبقوهم ، وبينما كانوا لا يكتفون بالتأمل ، بل كانوا مستعدين ليروا آراءهم تتحول فعالا ، بينما كانوا كذلك مكنهم إحساس بالقيم أن يبثوا دعوتهم للنقد ونشاطهم الهدام بتلك الرقة البالغة التى اتسم به الجيل السابق . وخلصت عقيدتهم فى اللذة حتى رأوا أن السياسة نفسها يجب أن تكون مستساغة . وكان يطلب إلى رجال الاقتصاد أن يعرضوا نظرياتهم فى صيغة تقبلها السيدات الرقيقات . ولكن يجب ألا ننسى أن السيدة لكى تكون رقيقة كانت ترغم على الاهتمام بالنظريات — إن هؤلاء القوم المحببين إلى النفس الشجعان كانوا يرون أن البحث الجدى فى الأمور الأساسية لم يكن يتعارض وصحة المزاج أو الإنسانية . والقرن الذى أنجب فلتير وجبون وهيوم واثنين من البابوات المتفلسفين ، لم يتصف

بالنزاهة العقلية للتقدميين فحسب ، بل اتصف كذلك بالتسامح مع المتشككين وسلوك السيدات والسادة . إن مثل هذا المزج يبدو دائما جذابا ، وبخاصة فى عصر بلغ به سوء الحظ أن يعانى من ثائرين تنقصهم الفطنة كما ينقصهم حسن السلوك ، ومن رجعيين ينقصهم حسن السلوك كما تنقصهم الفطنة .

العقل فى القرن الثامن عشر هو الذى كان يرجى منه أن يجعل الأمور مستساغة بتطهير الميول من غلظتها وتوحشها . وكانت اللذة — اللذة المعقولة — هى غاية مايشتهيه الرجل المخلص . القرن الثامن عشر هو الذى جعل اللذة المحك فى الجدل السياسى ، كما جعله يحكم على النظم والمشروعات الحكومية بمقدار ما تؤدى إلى ازدياد سعادة الإنسان. القرن الثامن عشر هو الذى اكتشف فى حسرة أن الماضى الخيالى كان يتخبط فى مسيرهذا الاتجاه ، وكان بالبؤس المدقع الذى ساد فى القرن الحادى عشر أشد منه تأثرا بسحر الحرب الصليبية الأولى . وفى القرن الثامن عشر — للمرة الأولى منذ نهاية العالم القديم — تطورت وشرحت شرحا وافيا فلسفة للذة فى مجلدات ممعنة فى سلامة التفكير ، إن لم تكن ممعنة فى البحث والتقصى . فلسفة يمكنك أن تلم بعصارتها إلماما لا بأس به من قصص فولتير وكتاباته المتنوعة . مثال ذلك :

« ... كان العالم كله يقول بأن الآلهة لم يقيموا الملوك إلا لتكون الأيام كلها أعيادا ، على أن تكون منوعة . إذ أن الحياة أقصر من أن ننفقها فى غير ذلك . وليست الأفعال والدسائس والحروب ومنازعات رجال الدين التى تستنفد حياة الناس إلا أمورا مزعجة سخيفة : ذلك أن

الإنسان لم يولد إلا لكى يستمتع بنفسه . وإنه ما كان ليعشق المتعة دائما وبكل قلبه لولا أنه من أجلها خلق . إن جوهر الطبيعة البشرية هو الاستمتاع بالنفس . وما عدا ذلك حماقة وسخف . وهذا مذهب خلق ممتاز لم تكذبه قط إلا فعالنا » .

وينبغى ألا تفترض أن القرن الثامن عشر صاغ فلسفته لصالح طبقة واحدة فقط ، بل على العكس من ذلك كان القرن الثامن عشر يرى أن التقدم ينحصر فى نشر جميع وسائل المتعة تدريجا — الوسائل التى تؤدى مثلا إلى إشباع الطبائع « لأن المتعة من صميم الطبيعة الإنسانية » . كانت فلسفة اللذة — تحت اسمها المعروف فى العالم القديم بحب الإنسانية — شائعة إلى أبعد الحدود . أما اليوم فهذه الفلسفة توصم بتقصيرها دون المثل العليا ، مادامت تهدف إلى إرضاء الفرد أكثر مما تهدف إلى تمجيد الجنس ، أو المذهب أو الطبقة . إنها فلسفة يمقتها الوطنيون كما يمقتها الشيوعيون . ولم يعد يؤمن بوجاهتها سوى قلة من المتشبثين بالقديم .

ولما كان — من زمن بعيد — من رأى أولئك الذين تؤخذ آراؤهم عامة مأخذ الجد ، أن أثينا فى أخريات القرن الخامس رفعت المدنية إلى درجة لم يسبق لها مثيل فليس من الخطأ — فيما أحسب — أن أختم هذا الفصل بتحليل ما اتفق على أنه أحسن صورة للمجتمع الأثينى فى أوجه . إذا كان الشعراء والعلماء والفنانون ، وكذلك الأساقفة والقضاة ، والمثقفون من التجار ، وإذا كان الفلاسفة الوثنيون ، بل ورعاة الكنيسة — إذا كان هؤلاء جميعا يعدون « محاورة المأدبة » لإفلاطون من أجمل المؤلفات وأبعدها أثراً التى أنجبتها القرائح البشرية ، فإن ذلك لا يعود إلى الآراء البراقة التى تضىء لامعة

خلال آراء سقراط المعقدة أكثر مما يعود إلى الصورة الرائعة التى تعرض طريقة رائعة من طرق الحياة . فى هذا الحوار الجميل نرى لمحة — بل وأكثر من لمحة — من مدنية يبدو أنها أقرب إلى رغبات القلب من أى شىء آخر كانت تعده ممكنا تلك العصور التى لم تبلغ من نفوسنا مبلغ العصر الأثينى . ومع ذلك فإن هذه الصورة لطريقة معينة من طرق الحياة إنما تشف عن لحظة من اللحظات فى تلك الصورة المثالية التى يلمحها الفنان ويخلدها . ولنذكر أن الصورة ليست رؤيا قديس مذهول مستغرق فى التفكير ، وليست خطة لنموذج سماوى لا نستطيع بلوغه لما فى نفوسنا من نقص ، وإنما هى صورة عاشها من قبل أناس يجوز عليهم الفناء ، ويمكن أن يعيشها الناس مرة أخرى .

هذه قصة يرويها أبولورس نقلا عن أرستوديموس ، وهو — كما يقول زنفون — كافر ، ضئيل الجسم يسير دائما بغير حذاء ، عضو تافه فى تلك المجموعة التى كان يلمع فيها سقراط وأجاثون . وفيدرس وبوسانياس وأركسيماكس وأرستوفان والقبيادس — كانوا مجتمعين فى حفل عشاء ودى أقامه أجاثون احتفالا بنجاحه فى المباراة بين شعراء المأساة . وكان اليوم السابق قد خصص لتهانى الجمهور ، وهى دلالة طيبة على الجدية التى كانت تؤخذ بها الفنون فى أثينا . وفى طريقه إلى الحفل التقى سقراط — وهو فى ثياب فاخر على غير عادته — بارستوديموس الذى يبحث بطبيعة الحال عن السبب فى هذا البهاء الذى لم يألفه . فقال له « إنى متوجه إلى العشاء عند أجاثون . » ثم روى سطرا محرفا عن يوربديز ، وقال بعدئذ « إنى أنيق أتوجه فى أناقة إلى رجل أنيق ».

ثم يشير سقراط — وهو بإجماع الرأى أقبح وأقذر شخص فى أثينا — على أرستوديموس أن يرافقه . فيتردد أرستوديموس ، لأنه لم يدع للحفل . بيد أن سقراط يلح فى الرجاء ، لأنه يعلم أن الكرم وحسن الزمالة من الفضائل التى لا يتحلى بها المتوحشون . ولما لم يفلح فى إلحاحه ، تخلف متفكراً حتى يصل صاحبه المتردد وحده فيطمئنه أجاثون ، الذى يذكر له أنه كان يبحث عنه طيلة النهار مشغوفا برفقته ولكنه لم يعثر له على أثر .

ويصل المدعوون . ويلتفت أجاثون إلى الخدم قائلا لهم « أرجو أن تعدونا جميعاً ضيوفكم ، وأن تعاملونا بهذه الصفة » . وقد كان أجاثون — فوق كونه شاعر مأساة — شخصية ساحرة كما كان رجلا موهوبا ، وكان كذلك حسن البزة ، فأبى أن يقوم بدور الداعى المضيف . وأخيراً وآخرا يصل سقراط . ويرفض الجلوس ، بل يرفض الاتكاء ، إلا بعد أن يستمتع بدور مما لا أستطيع أن أصفه إلا « بالمغازلة الساخرة » مع أجاثون — وهى مداعبة لست فى حاجة إلى أن أقول إنها قوبلت بروح طيبة — وفى نهايتها تناول الجميع طعام العشاء . والآن دعنا نلق عليها نظرة عابرة : كان بين الحاضرين شاعران ، أجاثون وأرستوفان ، والطبيب أركسياكوس ، وذلك المفلس المشعث الذى يعظ الناس فى زوايا الطرقات سقراط ، وأخيراً القبيادس ، وهو سياسى شعبى حسن النشأة ، متأنق فى ملبسه ، وأغنى رجل فى أثينا ؛ وهنا أيضا فيدرس وبوسانياس ، وهنا كذلك آخرون لا يذكر عنهم أرستوديموس شيئاً ، لأنه لا يزعم أنه يقدم قائمة كاملة بالأسماء أو سجلا لكل ما قيل ، وبين هؤلاء

الآخرون ربما كان صناع مهرة وعمال عابرون وسفسطائيون، لا يفضلون المتشردين إلا قليلا ، ولكننا على ثقة من أنه لم يكن من بينهم من كرس خير سنى حياته لجمع المال . إن الوقت الذى يعده رجال الأعمال فى العصر الحديث مالا ، كان عند سقراط للعبيد ، ولم يخطر فى بال أثينى أن إنسانا يُخضع نفسه طائعاً لذلك النظام الذى هو حياة جامعى المال ، أولئك الذين يعيشون للعمل . كان الاثينيون يرون أن الرجل لكى يكون كامل المدنية ينبغى أن يتحرر من الأعباء المادية . وحيث أنه لا بد أن يتوفر له الفراغ الكافى يتمع فيه بكل جميل يقدمه له العقل أو العواطف أو الحواس ، فلابد من وجود العبيد . وحيث أن هؤلاء العبيد يعيشون لينتجوا لا ليستمتعوا ، وحيث أنهم لانعدام الثقافة والفراغ عندهم ، يعجزون عن حرية التفكير ودقة الشعور ، فقد كانوا أقل شأناً من غيرهم . كانت المساواة مطلقة بين المواطنين . ولم تعترف أثينا بالفوارق إلا فى الذكاء والتعليم ، وهى — لسوء الحظ من غير شك — حواجز طبيعية تعوق التبادل السهل الممتع . لم يكن بين المواطنين مميزات طبقية. ولم يكن فى أثينا من يتعاظم على الآخرين .

وبعد العشاء أثار بوسانياس هذا السؤال: هل يعودون إلى الشراب، ويسكرون ، ويستمعون إلى الناس ، أم يتحدثون ، ويخرجون العازفة « تعرف لنفسها ، أو — إن أرادت — للخدم فى الداخل ؟ » نحن هنا على أبواب محاورة من أسمى المحاورات فى تاريخ البشر باعتراف الناس أجمعين . وعلينا أن نلاحظ جيدا موقف أولئك الذين يوشكون أن يجربوها . إن العقل يجعلهم لا يخشون ما فى الحياة من أشياء طيبة .

إنهم لا يخجلون من الاستمتاع — حتى إلى درجة ما يسمونه الإفراط — بمثل الملذات التى توفرها الخمر والعازفات على الناى . إلا أنهم لا يدمنون ولا يفسقون . يدفعهم الإحساس بالقيم ، تعززه إلى حد ما ذكرى شرابهم المساء ، إلى أن يختاروا — فى هذه المناسبة — لذة أروع ، وهى لذة الحديث الجدى . وإن لم يكن جديا إلى درجة كبرى ، فقد كانوا يستطيعون أن يتناولوه فى دعابة ؛ يمزحون مزاحاً عقلياً وجثمانياً ، ويتنازعون نزاعاً طفيفاً عمن يجلس منهم جوار الآخر ، يهزلون ويمرحون ويتبادلون الدعابة الصريحة . ومنذ بداية الجدل ، حينما حل دور أرستوفان فى الكلام ، شكا من الفواق ، ثم طلب أركسيماكس الطبيب إما أن يأخذ دوره فى الحديث أو يشفيه مما أصابه . فيسارع أركسيماكس إلى أداء العملين ، ويصف علاجا يثير الضحك وإن يكن فعالا . إن الرجال الضالعين فى المدنية قلما يتصفون بالوقار .

ويعرف كل امرىء موضوع هذه المحاورة التى ذاع صيتها ، كان موضوعها الحب . ولكن كثيرين لا يعرفون أن المتحاورين لكى لا يبطلون ما يصلون إليه من نتائج بتحديد قضايا البحث ، لم يستبعدوا فى حوارهم أى وجه من وجوه الموضوع . تحدثوا عن الحب فى أدعى صوره إلى الإعجاب والتقدير . وكذلك تكلموا كثيراً مثنين على صورة من صور الحب يحكم بسببها على الناس فى انجلترا بالسجن . وإن استجابتى الغريزية لهذه الصورة لتشبه استجابة أكثر زملائى ، إنى أعجب لها أشد العجب وأقابلها بالتقزز والاشمئزاز ، غير أنى لم تبلغ بى الغفلة والغرور أن أثق فى استجابتى ثقة عمياء وأعترض على عاطفة أحستها ،

وأرى ثابت ارتاته جماعة من أحكم وخير الناس قاطبة . وإنى لأذكر أولئك الناس الضالين المفزعين الذين يأكلون الجبن وأحاول ألا أكون سخيفاً . ولا أستطيع أن أعطى نفسى حق الحكم أيهما أفضل ذوقى أو ذوق سقراط وصحبه . ولكن أستطيع أن أصغى باحترام لحجج خصومى الذين يبعثون الذعر فى نفسى ، وأستطيع أن أمتنع عن أن أجعل من استجابتى الجثمانية استنكارا خلقياً ، وأستطيع أن أحتج من كل قلبى ضد من يصم بالجريمة ما بدا خيراً لكثير من عظماء الرجال . لا يحق لأحد أن ينعت نفسه بالمدنية إلا أن استطاع أن يستمع إلى الطرفين . ولا يفضل الحيوان من لا يتسامح فى أمور كثيرة كريهة له شخصياً .

ليس فى نيتى أن أناقش « محاورة المأدبة » إلا بمقدار ما تلقى على موضوعى ضوءا . وأستطيع أن أنوه بالرغبة الحقيقية فى الحق الذى تنطوى عليه أكثر الخطب ، وأن أنوه بالإحساس بالقيم الذى يحمل كل متكلم على أن يعرض قضيته عرضا جميلا بقدر ما يستطيع . وحتى سقراط نفسه لم يجادل لينتصر فى الجدال ، ولم يكن من بينهم من يمتنع عن التسليم حينما يكون ضعيفا فى موقفه . فيدرس يتكلم جادا ، وبوسانياس متحذلق قليلا ، واركسيماكوس يميل إلى مهنته . إلا أن الطبيب — على خلاف أكثر زملائه — لا يخشى أن يجابه ما يترتب على علمه من نتائج . ويشير بعقل يدعو إلى الإعجاب أنه ينبغى لنا ألا نخضع لباندميون فينس (ويقصد بها الشهوة) « إلا بمقدار ما نستمد منها اللذة دون أن نسترسل فيها إلى حد الإفراط ، مثلنا فى ذلك — طبقا لفننا — مثل ما نملكه من

البحث وراء متعة المائدة ، بمقدار ما نستسيغها دون أن يترتب عليها مرض وحسب » . (وهذه العبارة نقلا عن ترجمة شلى) . وهناك بعد ذلك حديث أرستوفان ، وهو عندى حديث بلغ غاية الإشراق . إنه بما يحوطه من دعابة عقلية عذبة يؤدى – بطرق تثير فينا غاية الضحك ولا نتوقعها – إلى نتيجة جدية ، يشير إليها الكاتب تلميحا لا تصريحا ، لا تكاد تظهر حتى تختفى فى أقمطة كثيرة الألوان . وفى هذه الآونة أخاطر بالاستعارة والتشبيه . وأذكر هنا تعثر الآلهة تعثرا لا يحفظ لهم قداستهم مما يدل فى جلاء تام على أن هذه الجماعة المتمدنة قد صفوا أمر الخرافات السائدة . ويؤسفنى أن أقول إن الحديث لا يخلو من النكات البذيئة . ولكنا قد اتفقنا على أن الميل إلى الكلام والسخرية فى كل أمر مميز من مميزات الشعب المتمدن . ولا أتصور إلا أن قليلا من العاشقين – حتى أكثرهم رقة وأشدهم تهذيبا – هم الذين يرون موقفهم استثناء من هذه القاعدة . « هؤلاء (أى أولئك الذين عثروا على انصافهم المفقودة) هم الذين يكرسون حياتهم كلها أحدهما للآخر ، فى شوق لا طائل تحته ولا يمكن التعبير عنه إلى أن يجد كل منهما عند الآخر شيئا لا يدرى ما هو . لأن الواحد منهما لا يهدى نفسه للآخر بكل هذا العشق الجدى لمجرد المتعة الحسية من الاتصال ، وإنما تتعطش روح كل منهما فى وضوح وجلاء إلى شىء عند الآخر لا يمكن التعبير عنه فى كلمات ، وتقدس ما تسعى إليه ، وتتعقب فى غموض مظان رغبتها الغامضة . » (نقلا عن ترجمة شلى[1] . وإن الكاتب ليعود فى الفقرة التالية إلى بذاءته ، فيقول أنا

---

(١) إن ترجمة شلى – أو تفسيره على الأصح – للمحاورات رائعة جدا فيما =

إذا لم نرعَ الآلهة تمام الرعاية فإنه يُخشى أن يقطعنا زيوس إلى نصفين مرة أخرى (ونظريته فى الحب إننا كنا من قبل منتصفين ، وأن الأنصاف تسعى دائما إلى اتحادها) ، ثم نسير بعد ذلك — كما يقول — أشبه ما نكون بالصور التى يرسمها الفنانون على الأعمدة ، أنوفنا مشقوقة فى وسطها ، ولست بحاجة إلى القول بأن المرء حينئذ لابد له من الوثب بساق واحدة . هذه عادة من عادات التمدن : وهى أن يتخلى المرء عن الوقار وهو فى حالة الجد ، وهى حالة تدعو إلى الحيرة الشديدة .

أما حديث أجاثون فقد كان غنائيا جميلا فصيحاً ، وهو يبدأ بقوله هناك فارق بين أن تخاطب الجمهور فى مسرح وأن تناشد مستمعين ناقدين حقا . إنه يقول « بالتأكيد يا سقراط ، إنك لا تحسب أن الزهو بانتصارى فى المسرح قد بلغ منى حدا يجعلنى أجهل أن قلة من الناقدين الأكفاء يخشى العاقل بأسهم أكثر مما يخشى مجموع الناس فى الطريق » وهذا الرأى يبدو لى أنه يشير إلى إحساس بالقيم ، ولكنه فتح لسقراط بابا للسفسطة والدعابة ، التى أوقفها فيدرس بقوله « إنك يا عزيزى أجاثون لو دخلت فى نقاش مع سقراط فلن تبلغ بهذا النقاش إلى نهاية ،

= نقل . ولكنه لسوء الحظ لم ينقل كثيرا ، لأنه فى جانب كبير مما كتب — حتى حينما يعبر به تعبيرا أجمل تعبير عن روح المحاورة — لا نجد الدليل على وجوده فى الأصل . وأهم من ذلك إغفاله إغفالا تاما لأجزاء من الحوار لها دلالتها الكبرى . ويقال إن هذه الثغرات لا ترجع إلى الشاعر وإنما إلى تلك المرأة البغيضة المتكافئة عديمة الضمير التى اتخذها له زوجة ثانية ، وعاشت لسوء الحظ من بعده ، ولكن فى هذه النقطة من تاريخ الأدب يعوزنى العلم الذى يخول لى أن أدلى برأى .

لأنه لا يفتأ يواصل الجدل فى أى موضوع مع أى مخلوق — أو على الأقل مع أى مخلوق جميل الصورة . وأؤكد لك أنه من الممتع دائماً أن تستمع إليه وهو يتحدث ، ولكننى فى هذا المساء لابد أن أضمن أن « الحب » (موضوعنا المختار) ان يكون محلا لغدر » . وهكذا يواصل أجاثون حديثه ويقرر أن الحب كغيره من الموضوعات يمكن أن يجعل من أى إنسان شاعراً ، ويروى تأييدا لذلك بيتا من الشعر من نظامه ينم عن تأثير يوريديز .

« مهما يكن المرء نائرا فيما مضى فان لمسة الحب تجعل منه شاعرا » .

فيهيىء بذلك الفرصة فيما بعد لسقراط ليسخر من أستاذ أجاثون الذى لم يكن يحبه . وبعد ما انتهى أجاثون من الإفضاء بكل آرائه الجميلة ، رد عليه سقراط قائلا إنه يستحيل عليه أن يفى بما وعد . « إن مثل هذا الثناء لا أفهمه ، ولجهلى قبلت أن أنظم المديح » :

وصاح بصوت مرتفع على طريقة يوربديز قائلا :

بلسانى قط وعدت ، ولم أعد بعقلى .

وعندما أصغى إلى أسلوب أجاثون المنمق رفع أحد حاجبيه ، وبدأ حديثه المشهور عن طبيعة الحب . والحديث رائع ، وإن كان فى ذوقى يتسم بشىء من السفسطة : وربما كان مما يستحق الذكر كعلامة من علامات المدنية أن المتكلم فى أشد لحظات حديثه حرارة يسخر ضاحكا من حذلقة السفسطائيين المحترفين ، أعدائه . وفى أعقاب حديثه يندفع إلى الداخل القبيادس ، مخمورا إلى الغاية ، تتبعه عازفات الناى . ويتقدم

لتتويج أجاثون . وبعد ما ينتهى من ذلك يقول إنه يبقى معهم إن أقبلوا على الشراب ، وينصرف إن لم يشربوا . فيستبقونه بطبيعة الحال . إن الفلاسفة الحقيقيين يستغلون طرفى الحياة .

ويقبلون على الشراب ، ويتبادلون المزاح فى مهارة فائقة فى شؤون حبهم ، ويبدون تفوقا رائعا يعلو على أقوى لون من ألوان العواطف البربرية جميعا — وأعنى به الغيرة . ثم يقول أركسيماكوس : هل هذا عدل؟ وهل من الإنصاف أن يشاركنا القبيادس دون أن يسهم فى لهونا ؟ ليُدْلِ هو الآخر بحديث فى مديح الحب . ويرد القبيادس قائلا إنه يكلفنى حياتى أن أثنى على أى أمر من الأمور سوى سقراط فى حضرة سقراط. فيجيبه . حسنا إذن ، عليك بمدح سقراط ، وهنا يأتى الحديث الذى بعث فى دكتور چويت أشد القلق . إن القبيادس يروى — فى شيء من الدقة — قصة ميله الشديد إلى سقراط الذى لم يعد عليه بنفع ، بينما ينتحى سقراط ناحية ، ويبتسم ابتسامة دقيقة كما أتخيله . ولم يكن القبيادس بالتأكيد خجلا من مشاعره . وحيث أنه لم يغفل عن أن مشاعره ستبدو لأصدقائه مضحكة إلى حد ما ، حيث أنه لم يخطىء فيأخذ نفسه مأخذا جديا أكثر مما ينبغى ، فإن إعترافاته جميعا لم تقع من نفوس أصدقائه موقعا ثقيلا مؤلما . كان صريحا ، مسليا ، لا يشعر بالعار الشديد، وإن كان قد شعر باليسير منه . فهو يشعر به حينما يتهمه سقراط بتقليده العامة فى تهليلهم أكثر من إخلاصة للحق والجمال . وهنا — فى النهاية — نقف عند أمر يبدو مشينا للرجل المتمدن . ذلك أن القبيادس يختتم قصة

وبلاته برجاء أجاثون ألا يقع فى حب سقراط خشية أن يلاقى مصيرا كمصيره . وهنـــا نجد سقراط باتتظاره ملعنا أنه توقع منذ البداية ألا يكون هذا المديح سوى حيلة ما كرة لـكى تسىء العلاقة بينه وبين أجاثون . ولـكى يصلحوا ثلاثتهم [1] ما فسد يتقارعون — وكانوا يجلسون معا — مقارعة لطفيفة أيهم يمدح الآن الآخر ، ومن يجلس إلى جوار الآخر ، ولا يوقفهم عن المقارعة الا تدفق حشد من المعربدين لم يدعوا إلى الحفل « ويسود المكان كله هرج ومرج ، ويختل النظام ، ويشعر كل حاضر بضرورة الإدمان فى الشراب » .

ويؤسفنى أن أقول إن هذا الحفل من حفلات العقل — الذى كان محل إعجاب وتقدير خلال ثلاثة وعشرين قرنا — انتهى بما قد يسميه قاض من قضاة الشرطة فى لندن « خلاعة مخلة بالآداب » . وكان أركسيا كوس المحترف وفيدرس الجاد أول من عادا إلى بيتهما وهما يترنحان . أما أرستوديموس فقد خر نائما حيث كان . واستغرق فى نومه طويلا . وكان الفصل فصل الشتاء حيث يطول الليل . وعندما انبثق النهار تيقظ . وكان أكثر المدعوين نياما — وكان من الطبيعى جدا عند الاثينيين البارزين أن يدثروا فى عباءاتهم وينامو ا على أرض غرفة الطعام — ولـكنه تنبـــه إلى أن أجاثون وارستوفان وسقراط كانوا ما يزالون أيقاظا ،

---

(١) كان من عادتهم أن لا يجلس على مقعد واحد سوى اثنين ، فإن جلس منهم ثلاثة كان ذلك مدعاة الى التحرش .

يشربون من قدح كبير ويسمرون . وعلى قدر ما استطاع أرستوديموس أن يدرك كان سقراط يرغم الآخرين على الاعتراف بأن المأساة والملهاة يتطابقان بالضرورة . ولما كان فى حالة نعاس ولا يزال مخمورا لم يكن على ثقة تماما من سير النقاش . إلا أنه أيقن أن الكرى أخذ يداعب أجفان أرستوفان ، ثم استغرق فى النوم ، ولما أشرق النهار تبعه أجاثون . ولما خلص سقراط منهما معا سار (يتبعه أرستوديموس) إلى الليسيوم (الندوة العلمية) حيث استحم كعادته وأنفق يومه فى العمل ، وفى المساء آوى إلى فراشه فى بيته » .

— ٦ —

المدنية وناشروها

لم أعرّف المدنية بعد ، ولكنى ربما جعلت التعريف أمرا لاضرورة له . إنى أتصور إن كل من تفضل علىّ بقراءة ما كتبت حتى الآن لا بد أن يكون قد فهم جيداً ما أعنى . المدنية صفة من صفات الجماعة . وهى فى أبسط صورها الصفة التى تفرق بين ما يسميه علماء الانثروبولوجى المجتمعات «المتقدمة» ومايسمونه المجتمعات «المنحطة» أو « المتأخرة» . عندما يشرع المتوحشون فى تطبيق أحكام العقل على الغريزة ، وعندما يكتسبون إحساسا بدائيا بالقيم — أى عندما يميزون بين الغايات والوسائل ، أو بين الوسائل المباشرة للخير والوسائل البعيدة — عندئذ يخطون الخطوة الأولى إلى أعلى . إن الخطوة الأولى نحو المدنية هى تصحيح العقل للغريزة ، والخطوة الثانية هى أن يتعمد المرء التخلى عن إشباع رغباته الملحة الموقوته فى سبيل تحقيق رغبات أدق منها . إن المتوحش الجائع عندما يمسك أرنباً ، يأكله تواً فى مكانه ، أو يحمله معه بحكم غريزته إلى بيته ، كما قد يفعل الثعلب ، كى يأكله أشباله نيئا ، وأول من حمله إلى بيته — برغم جوعه الشديد — وطهاه ، كان فى طريقه إلى أثينا . كان رائدا ، يمكن أن نصفه عدلا كذلك بأنه أول المتدهورين . هذه حقيقة لها دلالتها. فالمدنية شىء مصطنع غير طبيعى، إن التقدم والتدهور، كلمتان يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى . إن كل من زود المعرفة

البشرية والحس البشرى ، بل وأكثر من اكتفى بزيادة أسباب الراحة المادية ، هؤلاء هلل لهم معاصروهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من مكتشفاتهم واعتبروهم محسنين عليهم ، ووصمهم بالانحلال كل من حالت سنه أو غباؤه أو غيرته دون الإفادة من هذه المكتشفات . ومن السخف أن نختلف اختلافا لفظيا . ولنتفق على أن عادة طهو المأكولات يمكن أن تعد خطوة نحو المدنية ، كما يمكن بنفس الصدق أن تعد انحدارا من الكمال البدائى للقرد المنتصب .

من هاتين الصفتين الأوليتين — التعقل والإحساس بالقيم — يمكن أن يتفرع عدد عديد من الصفات الثانوية . تذوق الحق والجمال ، والتسامح ، والإخلاص العقلى ، وشدة التأنق ، وروح الفكاهة ، وحسن الأدب ، وحب الاستطلاع ، وبغض الفظاظة والهمجية والمبالغة فى التأكيد ، والتحرر من الخرافة والحشمة المتكلفة ، وقبول ما فى الحياة من طيبات دون وجل ، والرغبة فى التعبير الذاتى تعبيرا كاملا وفى التربية الحرة ، وازدراء النفعية والابتذال ، أو فى كلمتين اثنتين — العذوبة والنور . ولا تدرك كل المجتمعات التى تكافح فى التخلص من المدنية جميع هذه الصفات ، أو حتى أكثرها . وأقل من هؤلاء من يشتد فى تمسكه بإحدى هذه الصفات . من أجل هذا قد تجد عددا كبيرا من المجتمعات المتمدنة وعدداً قليلا جدا من المجتمعات ذات المدنية الرفيعة ، لأن المجتمع لا يكون رفيع المدنية إلا إذا استمسك بعدد لا بأس به من صفات المدنية واشتد فى تمسكه بها .

ولكن هل يمكن لوحدة غامضة كالمجتمع أن تملك أو تستمسك بصفات دقيقة كهذه ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا بأشد المعانى غموضا .

إن المجتمعات تعبر عن نفسها فى صور تتفاوت فى ثباتها كما تتفاوت فى وضوحها ، وهذه الصور هى التى تصبح للانثروبولوجيين والمؤرخين آثار مدنيات هذه المجتمعات . إنهم يعبرون عن أنفسهم فى السلوك ، والعادات والتقاليد ، وفى القوانين والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ويعبرون عن أنفسهم — فوق هذا كله — فى الأدب والعلم والفن الذى قدروه وشجعوه . كما يحدثوننا عن شىء من أنفسهم — بدرجة أقل وثوقا — خلال الأدب والعلم والفن الذى ربما قدروه وربما لم يقدروه ، ولكنه من خلق الفنانين والمفكرين الذين أنجبوهم . ولو ضممنا ذلك كله بعضه إلى بعض أمكننا أن نؤلف — فى شىء من الوثوق — رمزا واضحا لنظرة إزاء الحياة سائدة وهذه النظرة — التى تتبدى فى هذه الصور التى تتفاوت فى عمومها وثبوتها — هى ما نسميه المدنية .

المدنية — إذا خاطرت باستعمال استعارة لا يمكن الدفاع عنها بسهولة — هى النكهة التى تضفيها نظرة عقلية معينة على التعبير الذاتى لعصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات . إنها اللون الذى تخلعه وجهة نظر خاصة سائدة على المظاهر الاجتماعية . من أين تأتى هذه النظرة التى تلون الحياة ، وهذه النكهة التى تعطيها طعمها ؟ لاشك أنها تأتى من الأفراد ، لأن الأفراد وحدهم — كما نعلم — هم الذين لهم عقول يقفون بها موقفا معينا أو ينتقون بها وجهة نظر معينة من وجهات النظر . إن عقل الفرد هو منبع وأصل المدنية — لا جدال فى ذلك . ولكن عقلا بشرياً واحدا نقطة عذبة فى محيط ، وبقعة قرمزية واحدة على الشاطىء . إن فردا متمدنا واحدا لا يصنع المدنية . ربما لم يخل العالم من السكان المتمدنين خلال الثلاثة

آلاف سنة الأخيرة . ومن المحتمل وجود واحد أو اثنين منهم فى أظلم العصور — وإن لم يكن بطبيعة الحال من بين القبائل الممعنة فى الهمجية والبدائية . فى غربى أوربا فى القرن العاشر — ولا نستطيع أن ننحدر إلى أبعد من ذلك وإلا كنا بين قبائل فيدا وبوشمان — يصادفنا جوبرت وهو يبدو كالمتمدن ويظهر غريبا بين قومه ، كما يبدو كذلك — وهو على نقيضه — الامبراطور أوتو الثالث ، الذى ربما لم يعدُ أن يكون متصلفا معجبا بذاته . ولا نستطيع أن نثق أنه حتى فى القرن الثامن لم يتزو — مجهولين فى الأديرة الهادئة — رجال ما كانوا لينبوا فى بلاط لورنزو العظيم . بيد أن عصفورا واحدا من عصافير الجنة لا يخلق جو الصيف . ولا تصبح المدنية ممكنة إلا حينما ينضم عدد كاف من أفراد متمدنين بعضهم إلى بعض تتكون منهم نواة يمكن أن يشع منها الضوء وتفيض العذوبة . ومن ثم فان ناشرى المدنية هم الرجال والنساء الضالعون فى المدنية الذين تتألف منهم جماعات لها من النفوذ ما يكفى للتأثير فى مجموعات أكبر ، وفى مجتمعات بأسرها فى نهاية الأمر . إن جماعة من المتمدنين لا يصبحون مدّنين إلا حينما يمكنهم أن يؤثروا فى المجتمع الذى يعيشون فيه حتى يبدأ هذا المجتمع — بعد ما يكتسب ما يميز هذه الجماعة من فضائل خاصة — فى إظهار هذه الفضائل فى طرائق التفكير والشعور . والنواة المتمدنة تصبح ممدنة حينما يكفى عددها ونفوذها لتلوين الجماهير . و « النواة المتمدنة » مجرد اسم محدد لعدد غير محدد من الرجال والنساء ذوى المدنية الرفيعة . وهؤلاء الرجال والنساء هم خالقو المدنية وناشروها ، هم شرط لازم للتمدن لا محيص عنه .

وإنما يجب علينا أن نبحث عن نشأة المدنية والباعث عليها فى عقل الإنسان . فالقوانين والعادات والأخلاق والنظم والحيل الميكانيكية ، كما يتبين لنا من مجرد النظر إلى المجتمعات المتوحشة والمستعمرات البريطانية ، لا تستطيع أن تخلقها . هذه الأشياء لا يمكن أن تصنع لأنها من صنع الإنسان . إنما هو العقل . عقل الفرد ، الذى يفكر ويبدع وينفذ . وإنما هو تأثير عقول عدة ، تفكر وتشعر بالعطف ، التى تشكل عادة — على غير وعى منها ودون قصد — المجتمعات والعصور . ومن ثم فقد بلغنا فى النهاية شيئا محددا — وذلك هو الانسان المتمدن . ذلك الانسان رجلا كان أو امرأة — نتوقع أن نجده متصفا — بطريقة أدق وأشد تهذيباً وتأكيدا — بتلك الصفات التى ذكرنا أنها من خصائص المجتمعات المتمدنة .

إن الشخص المتمدن من جميع الوجوه يود فى كل لحظة أن يتابع العقل فى أسحق الجحور والزوايا ، بينما استجابته الغريزية للحياة تتكيف دائما بالذوق . إن الحياة للشخص المتمدن — رجلا كان أو امرأة — ليست مسألة ضرورة فحسب ، إنما هى — إلى حد ما — مسألة اختيار . إنه إذا أمسك بالأرنب ، سيطر على نفسه فى القرار الذى يصدره عن الكيفية والزمان والمكان الذى يأكل فيه هذا الأرنب . الرجل المتمدن متصنع بالضرورة . ومن التصنيع أن تنظف أسنانك وأن تقول « من فضلك » و « شكرا » . ومن غير الطبيعى ألا تصرع رجلا تغاضبه وهو أضعف منك . ولكن لا تشك أيها القارىء فى أنى أحاول أن أبرهن على أن الرجل المتمدن هو الرجل الطيب . خير الرجال — إن كان للخير

معنى — من يطيق خير الحالات العقلية ويستمتع بها أطول وقت ممكن . يجب علينا أن نبحث عن القديسيين فى عالم المدنية بين الفنانين والفلاسفة والمتصوفين، لما عندهم من قدرة لا تحد على الاستمتاع بالتأمل والخلق . إن العقل يؤكد للتمدن إن فى هذا يكون خير الأمور ، وإن كان الذوق المنحرف قد يهمس قائلا أن خير الأمور لا يتنوع . ومن الأمور الكثير الطيب مما لا يبلغ أقصى حد للخير فلا يصلح للاستمتاع به . إن الكمال لا يتسع للعوامل التى لا تبلغ الذروة . والمثل الأعلى هو لحظة من لحظات الكمال تستمر إلى ما لا نهاية — إنه أفضل الخير دائماً . إنه الشمس المشرقة دائماً فى السماء . إلا أن المرء قد يكون بالغ المدنية بالرغم من أنه يحب ظلال المساء والليالى التى تسطع فيها النجوم ، بل ويحب المطر والثلج مما يحمله على أن يزيد من اشتعال ناره . إن المثل الأعلى شىء دائم فريد ؛ وقد يجد الرجل الضالع فى المدنية نفسه أحيانا على شىء من القلق فى نعيم السماء المقيم .

أرجو ألا يُفهم أنى أقول أن الفنان والفيلسوف والمتصوف لا يمكن أن يكون رفيع المدنية . إنما أقول أن الشخص كامل المدنية لا يمكن أن يكون من النوع الذى ينظر بعين واحدة . لم يكن القديس فرانس ، ولا دانتى ، أو بليك ، أو سزان ، أو دستوفسكى ، كامل المدنية ، ولا يمكن أن يكون كذلك بكل عمله وما يتعلق به . بل إن أفلاطون نفسه ، حينما يحلق فى سمائه — كما يفعل فى «الجمهورية» — ينصرف عن إحساسه بالقيم . إن الرجل الضالع فى المدنية أشمل تقديراً من أن يفقد إحساسه بكل شىء سوى موضوع الساعة فى أكثر الأحيان أو لفترة طويلة حتى إن كان

موضوعه 'O Altitudo' — ولا ننسى أن لتعدد الجوانب مثالبه كما أن له مزاياه . الرجل الضالع فى المدنية مُقَدِّر فوق كل شىء . إنه يكتسب فى اتساع المدى والتنوع ولكنه يخسر فى جانب الغزارة ، والغزارة — كما يزعم الفلاسفة — هى خير الأمور . فان كان فنانا كان — فيما أظن — ذلك الجانب منه الذى لا ينكب فى حماسة شديدة على التعبير الذاتى — ذلك التعبير الذاتى الذى يكاد أن يبلغ تقرير الذات فيبدو خطره — أقول كان هذا الجانب هو أرقى جوانبه مدنية . (ومع ذلك فان هذه القدرة على التقدير عند المتمدن ، هذه العادة المثقفة عادة نقد الذات ، قدمت لنا كل لون من ألوان الفن ، من هوراس ، إلى بوب ، ومريمى ، بل وماتن ، وما نتجنا ، وبوسان ، ورن ، الخ . . .) ، ومهما يكن من أمر فان الرجل المتمدن شديد الحساسية للمؤثرات الجمالية ، ولهذه المؤثرات التى ليست من نوع واحد فحسب . إنه ينتقى منها . إنه يميز فى تقديره للتجارب الجمالية الجديدة ويتقبلها دائما . وبرغم هذا ، وبالرغم من أنه لابد أن يكون معنيا كل العناية بالجمال والحق والمعرفة ، ممتلىء النفس بعرفان الجميل والتقدير الطبيعى للتعبير الجميل عن النفس ، فليس من شك فى أنه أدق من الفنانين والمفكرين ، والعلماء المحترفين ، شعورا بأن هناك أمورا أخرى فى الحياة تستحق منه اهتماما لا يقل عن اهتمامه بهذه الأمور شدة وحماسة .

وإذا لم يبلغ تعقله حدا يجعل منه فيلسوفا أو عالما متفرغا للعلم أو الفلسفة ، فلا أقل من أن يبصره بأهمية الفكر والمعرفة باعتبارها وسائل لحالات عقلية محببة وللتقدم الذاتى . ومن ثم فان الرجل الضالع فى المدنية

يؤثر طلب العلم على أن شيء آخر . وميزته التى لا نزاع فيها هى أنه يفتح الباب لعالم رغباته . التعلم والحساسية هما أثمن الأدوات لرجل ذكى يبحث عن اللذة . فان كان ذا حساسية وبغير معرفة ، إن كان - لذلك - لا يستطيع أن يربط تجاربه الشخصية بالحاضر والمستقبل ، أو بقوى الطبيعة ، إن كان لا يستطيع البحث فى أسباب ونتائج آرائه ومشاعره أو يتلاعب بنظائرها ، إن هذا الرجل مثله كمن يجرع النبيذ المختار طوال حياته دون أن يقف لحظة عند رائحته ، أو يستطعم عطره ، أو يبتسم للونه . الرجل بغير تعليم ، إن لم يكن شديد الحساسية ، يتحتم عليه أن يبقى على هامش التجربة ، يعوزه المفتاح لقصر اللذة الداخلى . إن كل فكرة وكل لون من ألوان الشعور له من النغم الدقيق ما لا يطرق سمع الرجل الذى لم يتعلم . إن الاستمتاع بكل واحدة منها عندما ترتفع ، ومعرفة ما فى الأماكن غير المطروقة من خفايا غير منظورة ، ورؤية موضوع من عدة زوايا مختلفة ، وتصور المرء نفسه فى ظروف غير ظروفه ، وشعوره إنه وريث العصور جميعا وإنه فى الوقت ذاته لاه مسكين ينفق الوقت ويتبرم به فى غير طائل ، وإدراكه أن الدكتور جونسن مفخرة لبنى جنسه ، وهو فى الوقت نفسه حمار مضحك أيضاً - هذه هى الملذات التى يجلبها التعليم ، ولا يجلبها إلا التعليم وحده . وصدقونى إنها كالشمبانيا أو الكافيار للحياة الروحية ، بل وألذ من هذين الشبيهين الماديين .

التعليم حاستنا السادسة . أما عن ذلك التلقين الفنى الذى نسميه بالتعليم أحيانا فليس له شأن فيما نتحدث عنه . إن له أهميته ، ومن الخير أن يتعلم البنون كيف يحصلون على أكبر قدر ممكن من اللبن من ست بقرات ،

وأن تتعلم البنات إمساك دفاتر الحساب . إن مثل هذه المعرفة وسيلة للخير ، ووسيلة إلى المدنية كذلك ، ولكنها وسيلة بعيدة . أما ما عدا ذلك ، فانه من اضطراب الرأى أن نكرّم تلقين ما هو مجرد وسيلة « للسير فى الحياة » فنطلق عليه اسم « التعليم » الذى هو « استخراج » ، استخراج لأدق مالدينا من قوى . وأنا أعلم أنه من الخطأ فلسفياً أن نصف هذا التعليم الحر بأن غايته جمع المعارف . فالمعرفة — كما رأينا — لا تطلب كغاية ولكن كوسيلة لحالات عقلية لها قيمتها . إن المعرفة فى حد ذاتها لا قيمة لها . ومع ذلك فان القول الشائع بأن الغرض من التعليم الحر هو إثارة حب الاستطلاع لغير ما غرض ، هذا القول ليس خطأ . لأنا نفهم منه أنه يعنى أن التعليم الحر لا يعين أحدا على « مواصلة السير فى الحياة » أو على « النهوض » — أو نقلا عن التعبير الانجليزى الدقيق « جمع المال » — وإنما يعين على فهم الحياة والاستمتاع بملذاتها الدقيقة .

إن الشخص المتمدن — رجلا كان أو امرأة — فى هذا العصر من التاريخ يجب ألا يصدمه أمر من الأمور . يجب أن تتلاشى هذه العلامة من علامات الهمجية . وإذا كان التاريخ ، بما يسجله خير عما فكر فيه وشعر به خيار الناس وأحكمهم ، وما يسجله عن حكم الاستبداد ، وعن البلاهة ، والمحرمات ، والعلوم ، وبصورته عن الإنسان كشبكة من ردود الأفعال اللاشعورية ، إذا كان التاريخ — بهذه الصورة — لم يمكنّا فى القرن العشرين من التمييز بين الحكم الخلق والهزة الجثمانية ،

فان اللوم لا يقع على « العقل » . لقد قيل إن الآلهة نفسها عبثا ما حاربت الغباء . إن الصدمة النفسية معناها أن العقل قد نزل عن عرشه . والحشمة المتكلفة - كالخوف - تحول بين الإنسان وحكمه الذى لا انحياز فيه . وتجذبنا فى هذا الاتجاه وذاك الاتجاه ، وتحيرنا فى النتائج . حدثنى ضباط المدفعية أنه فى اللحظة التى يفقد فيها الملاحظ أعصابه يفقد قواه فى تصويب بندقيته نحو الهدف تصويبا دقيقا ، كما يفقد قواه فى الحكم على أثرها فى عدوه . عندئذ يستولى الخوف على المرء ويتلاعب به كيفما شاء ، ويحرّف الحكم لمصلحته . والحشمة المتكلفة لها أثر مشابه. ولو أن علماء التشريح تقززوا من منظر جثة الانسان ، وأشاحوا عنها بوجوههم ، وأبوا أن يتابعوا عملية التشريح ، لو أنهم فعلوا ذلك لبقينا إلى يومنا هذا فى جهل بيولوجى مطبق . وكيف يمكن لأولئك الذين يأبون أن يبحثوا — بل أن يتفهموا إن أمكن ذلك — فى الشاذ ، أو غير المألوف ، من الأذواق والعادات والميول وأنواع الإسراف البدنى والعاطفى — كيف يمكن لهؤلاء أن يعرفوا أى شىء من علم النفس أو الأخلاق ، لو أنهم ذعروا وصاحوا « لقد صدمنا » . إنهم لن يفحصوا أسباب ما يغمهم أو نتائجه . أنهم لا يرون قط الشىء نفسه بكليته فى ثبات ، لأن نوعا من الغثيان الجثمانى أو المحرمات البائدة — التى يسرهم أن يسموها « تنكرا خلقيا » أو « إحساسا بالاحتشام » — يثور فى نفوسهم ويعمى أبصارهم . إنهم لا يستطيعون أن يمسوا الثعبان لأن أبدانهم تقشعر لمسه . وربما كان كذلك ، وليس هذا مما يؤيدهم فى شىء : ولا يجوز أن يجعلوا من العجز البدنى فضيلة ، ولا يجوز أن يدينوا الثعبان ودارسيه من أجل هذا . ولكنهم « مضطربون » . وحقا إنهم ليضطربون ،

والوصف بهذه الكلمة فيه حسن اختيار ما دام العقل يُنبذ . وهم يعلمون أن الثعابين « مريعة » وإن كان علماء الحيوان يؤكدون لهم إنها جميلة ومسلية . وهذه الحشمة المتكلفة تختلف عن الخوف — الذى كثيراً ما يكون وسيلة للاحتفاظ بالذات ، وقد يقوم على العقل — تختلف عنه فى أنها تعود بكليتها إلى الخرافة حينما لا تكون مجرد غثيان بدنى . إنها محنة لا تقابلها مزية . ونحن لا نستطيع أن نتمنى استبعاد الخوف كلية ، غير أننا لو استطعنا أن نخلص أنفسنا من الاحتشام تقدمنا فى ألف اتجاه ولم نتقهقر فى اتجاه واحد .

إن الرجل الكامل المدنية يعلو على تكاف الحشمة : وحيث أنه يرغب فى بلوغ الحقيقة فانه يحاول أن يعلو كذلك على الغضب والهوى ، فان لهما نفس الأثر فى تقييد حرية التفكير . الرجل المتمدن متسامح متحرر . وليس معنى ذلك أنه لا يحتد قط أو يشتط . وكما اكتشف أنه إذا أغلق أحد أبواب العقل بالتحيز فلا مفر من أنه بذلك يصد بعضا من أكثر زائريه سحرا ، فكذلك سوف يدرك الرجل المتمدن أنه قل جدا من حوادث الغضب ما لا يمكن إخضاعه للعلاج العقلى . وكما أن الجواب الهادىء يبدد الغضب فكذلك تطفىء روح الفكاهة نيران الغيظ . لا بد للرجل المتمدن من أن يكون حرا متسامحا .

وإنى لعلى يقين من أن أحدا لا يتصور أنى حينما أقول « حرا » أفكر فى السياسة . فلسنا نعرف ماذا عسى أن تكون عليه الآراء السياسية للرجل المتمدن . ولا نؤكد إلا أمرا واحدا : ستكون هذه الآراء النتيجة المنطقية لفكرة واضحة عما يريده فعلا . وما يريده قد يكون

الخير المطلق ، أو أن يكتفى بتوفير أسباب راحته بقدر المستطاع . وكلا الغرضين هدف معقول ، وكلاهما — مع حسن إدراكهما وصحة الرغبة فيهما — يمنعه من أن يعلق أقل أهمية على تلك العبارة المذهلة التى يتلاعب بها الساسة المحترفون . الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، والإخاء ، والمقدسات ، والحقوق ، والواجبات ، والشرف ، كل هذه الألفاظ الغالية قد تحمل معنى وقد لا تحمل أى معنى . وسيان إن قلت إنك تؤيد مشروع قانون نقابات العمال لأنه عادل ، أو قلت إنك تؤيده لأنه غير عادل ، فليس لهذا القول أو ذاك معنى : فان العدالة ليست غاية فى حد ذاتها : إن العالم الذى يسوده العدل الشامل ولا شىء غير هذا ، عالم تافه كذلك الذى يسوده الظلم المطلق ولا شىء غير ذلك . فإذا كنت تؤيد مشروع قانون نقابات العمال لأنه وسيلة بعيدة للخير المطلق كان ذلك منك قولا جريئا وموقفا كريما (لأن النتيجة ترتكز على مقدمات صحيحة ، وليس عليك إلا أن تثبت أن النتيجة قد استنبطت استنباطا طبيعيا) . وكذلك إن أنت اعترضت على مشروع القانون لأنك تعتقد أنه سيؤدى فى النهاية إلى تخفيض ما تتناول من أجر كان ذلك سببا جميلا جدا للمعارضة . أما إن أيدت القانون لأنه عادل ، أو اعترضت عليه لأن جائر ، فأنت تؤيد أو تعترض لغير ما سبب صحيح ، لغير ما سبب بتاتا . إن السؤال الوحيد الذى يسأله الرجل المتمدن عن أى إجراء سياسى هو هذا « هل هو وسيلة لما أريد ، أو هل يؤدى إلى غير ما أريد ؟ » فان أحدا لا يريد العدالة أو المساواة فى الفضاء ، إنما هذه أمور — إن رغبت فيها إطلاقا — رغبت فيها كوسائل ، وهنا يتساءل الرجل المتمدن : وسائل

لماذا ؟ وبطبيعة الحال ، قد يحدث أن أرغب أنا وترغب أنت معي في غاية واحدة ، ولكننا نختلف فيما إذا كان قانون معين يصدره البرلمان يكون الوسيلة لهذه الغاية . هنا يتسع المجال للجدل والتفسير . وأكثر من ذلك احتمالا أن ما يكون وسيلة لما يريده رجل يكتسب أربعة جنيهات في الأسبوع لا يكون وسيلة لما يريده رجل يكتسب عشرة آلاف جنيه في العام . وحيث أن الإجراء المقترح يحكم عليه بمختلف المعايير ، فإن الاتفاق النهائي لا أمل فيه ، والتوفيق هو خير ما نأمل فيه ، ولكن في مثل هذه الحالة إذا أثار أحد الجانبين كلمات خلابة « كالحقوق » و « الواجبات » أو إذا اتهم أحد الطرفين الآخر بالانحراف عن الأخلاق ، ما كان في ذلك من العقل أكثر مما يكون عند ما يشتم لاعب الكريكت في جامعة أكسفورد خصمه من كامبردج لأنه هزمه في اللعب . إن أهداف الطرفين معقولة ، ولكنها تختلف ، وليس هناك مجال للكلام القارص . وإنما ينشأ هذا المجال حينما يرغب غيرنا من الناس في الغاية التي نرغب فيها ، ولكنهم يستخدمون وسائل من الواضح أنها لا تؤدي في النهاية إلى تحقيق الغاية . هؤلاء نسميهم أغبياء ولا نسميهم أشرارا . إن النقد الخلقي لا يمكن قبوله في الجدل السياسي إلا إذا اتفق الجميع على ما يكون خيرا كغاية ، وقد يكون ذلك ممكنا ، واتفقوا كذلك على أن الاجراءات السياسية وسائل لهذه الغاية ، وليس ذلك أمرا ميسورا . هل زيادة راتبي خمسين جنيها في العام يحتمل — في النهاية القصوى — أن تؤدي إلى زيادة الخير المطلق — أي زيادة الحالات العقلية التي لها قيمتها — أكثر مما يؤدي إليه إمداد ملاعب سنت بانكراس بتلال الرمال وصناديق

الأوراق المهملة ؟ إنه سؤال دقيق لى فيه رأى محدد كما سيتبين لكم إذا طالعتم كتابى حتى نهايته . ولكنكم سوف ترون كذلك أنى لا آمل كثيراً فى أن أحمل كل إنسان على الاتفاق معى فى الرأى . إن الرجل المتمدن من جميع الوجوه يضع كل هذه الأمور فى اعتباره ، وهو وإن يكن شديد الاهتمام بشئون السياسة لن يرجع إلى تلك المبادىء العتيقة الرنانة ، ولن ينظر إلى رغبته الطبيعية فى الاستمساك بما لديه على أنها أحق من رغبة خصمه فى الحصول عليه لنفسه . إنه لا يخدع نفسه بالكلمات والعبارات . أن صاحب الملايين المتمدن يتفق مع الحكومة الروسية الحالية لأنها تحرم الإضراب . ولو كان مستر لانزبرى متمدنا ما أعتقد من صميم قلبه أن أبناء دائرته الانتخابية أحق بأجر العمل من دوق نورثمبرلاند بثروته . إن عجزنا عن أن ندرك أن آمال الفرد أو مخاوفه الخاصة تتفق والخير المطلق — إن عجزنا هذا يجعل من غير المحتمل للرجل الضالع فى المدنية أن يظفر بالثقة فى انتخاب شعبى .

ولما كان الرجل المتمدن متسامحا لا يميل إلى التدخل فى شئون الآخرين ، فلابد أن يكون على سلوك حسن . أن إحساسه بالقيم يقنعه بأهمية هذا السلوك فى التنعم بالحياة ، حتى إن لم يدله العقل على إنه ضررى للمعرفة . فإذا كان فهمك الناس أجمعين يدعو إلى تسامحك معهم أجمعين ، فإن تسامحك معهم يسير بك إلى منتصف الطريق فى فهمهم . إذا طمأنت الرجل بحسن سلوكك وجميل خطابك سرت على الدرب الذى يؤدى بك إلى تأسيس علاقات عاطفية ، وبذلك تيسر له أن يقدم خير ما عنده . وإن أنت أقمت تلك الحواجز التى يصطلح على نبذها كل سلوك حسن ، إن أنت فعلت ذلك أقمت بينك وبينه الشك ، والتوتر ، والمضاربة ،

وتقرير الذات ، وثق أنك لن تظفر بشيء أفضل مما أعطيت . لا يغرينا شيء قط بالإفضاء بأعز أسرارنا للمتكبرين ناقصى التربية . من أجل هذا ترى الرجل الدنيء ، والوثاب ، والمشاغب ، مدعى العلم الذى لا يوثق فيه ، ومدعى الكمال الذى يفرض شخصيته — هؤلاء يتسللون فى هذه الحياة أو تجرفهم الحياة دون أن يتذوقوها . إن كل اتصالاتهم من جانب واحد . وحينما يشتد الواحد منهم يستطيع أحيانا أن يقبض على ناصية الحياة ويهزها هزا . ذلك أن الرجل الذى يحمل المشابك فى أطراف يديه يستطيع أحيانا أن يمسك بك من عقبك ويلقيك أرضا ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك آلاف الهزات العاطفية العجيبة التى يحسها عندما يربت على كتف زميل أو يضغط على كفيه . ليس من شك أن فى الحياة كثيرا من الأمور الطيبة يستطيع المرء أن يحققها بمجرد قوة الذهن والشخصية . غير أن هناك ما هو خير منها — أو أدق منها على الأقل — لا تستطيع أن تشتريها بأقل ثمناً من حسن السلوك . ومن هذه أفضلها الحديث — الحديث الحقيق — تبادل العواطف والآراء بين أفراد عزل من السلاح تماما ، قلوبهم مطمئنة ، أفراد تخلو نفوسهم من الخوف ومن الريبة ، كما يخلون من الأغراض ، لا يسعى الواحد منهم إلى فرض نفسه أو التظاهر بها ، وإنما يسعى إلى الحقيقة عن طريق اللذة . الحديث متعة لا يعرفها إلا المتمدن وحده .

الرجل الصالح فى المدنية — بطبيعة الحال — لا بد أن يكون ذواقة فى الحياة . لا بد أن يميز ، وأن تكون له حاجات معينة ورغبات معينة . إن المدنية — ذلك المظهر المعقد من مظاهر الذكاء الفردى والحساسية

ضد غريزة القطيع ، هذه المدنية لا تقبل قط المعايير المنحطة أو تخضع لسلطان السوقة . إن الخراف الهمجية والنعاج البلهاء عبيد للسيد الذى يرتدى لباس السهرة . تحدد لهم السوقة ما ينبغى أن يكون من اختيارهم الشخصى الخاص . ينتقى لهم السادة هارود وسلفردج النبيذ والسيجار ، والمعاطف ، والأحذية والقبعات والقمصان . ويعين لهم السادة هتشرد ومودى أى الكتب يقرأون ، ويمدهم تجار شارع بوند بالصور ، كما يمدهم سر توماس بيتشم وسر هنرى وود بالموسيقى وحبوب الدواء ، وسر أزولدستل وهوليود بالنكتة ، والجمال ، والإحساس بالخيال . إن ملوك الأسواق الكبرى يصيحون فيهم قائلين : « هنا أيتها السيدات والسادة فى الامبراطورية البريطانية ، هنا خير الأصناف » . وتقف سيدات وسادة الامبراطورية البريطانية طائعين فى الصف . ولا يجرؤ على مواجهة هؤلاء المتعهدين بالتوريد الذين يقدمون السلع المزخرفة إلا قليل من الضالعين فى المدنية ، قائلين لهم إن ما يقدمونه لا يتفق وماهم فى حاجة إليه .

لكى يكون الرجل متمدنا يجب أن يكون لديه ذوق للاختيار والتقدير ، ولكنى أذكركم مرة أخرى أنه لا ينبغى أن تكون لديه القدرة على الابتكار ، فإن ابتكر ، فلابد أن يحمل ابتكاره علامات المدنية . غير أن هذه العلامات — ما دامت كلها عرضية لا تؤثر قط فى القيمة الذاتية لعمله — ليست مما يأبه له رجل يقدر الجمال خالصا ، وإن تكن لها أهمية قصوى للمؤرخين الذين يحاولون أن يكشفوا عن مميزات العصر الذى صيغت فيه ، أو الفنان الذى صاغها . وإذا كانت «الأوديسى»

أعلى قدراً من « أغانى رولان » فليس مرد ذلك إلى أن الأولى تلونت بلون مدنية بازغة ، والثانية بهمجية آفلة . إن الفنان المتمدن يظهر فى فنه مدنيته ، إلا أن هذا المظهر ليس من جوانب الفن التى لا محيص عنها . إن الرجل المتمدن لا يتصف بالخلق أكثر مما يتصف به الرجل الهمجى . ولكن التمييز والتقدير الواعى من صفات الرجل المتمدن . ومن العسير أن نحكم بالمدنية على الرجل الذى لا يتأثر البتة بأى فن من الفنون .

ومهما يكن من أمر فإن حياة المدنية إذا خلت من الإحساس الجمالى المتصل العنيف تتعرض لخطر الفراغ . إن ملذات حياة المدنية تأملية فى أساسها ، ومن بين التجارب التى يمارسها المرء خلال تأمله ، ربما كانت التجارب الجمالية أكثرها أهمية ، لأنها وإن تكن أقل غزارة من العواطف التى يستمدها المرء من صلاته الشخصية إلا أنها أشد تأكيداً وأكثر دواما . وهذا الإيثار للتأمل (وأنا أستخدم الكلمة فى أوسع معانيها) وهو من أعز المميزات التى يستمدها المتمدنون من إحساسهم بالقيم ، هو الذى يعلل بغضهم المستمر للتدخل فى شئون الآخرين ، ذلك التدخل الذى يسميه كتاب السير المتميزون «حياة العمل» . وواضح أن من ضروب النشاط ما يمكن أن يكون وسائل للخير ، وهذه الضروب لا مناص للرجل المتمدن من تأييدها دائماً ، ومن ممارستها أحياناً . ولكن لما كانت حياته بالفعل مليئة بوسائل الخير المباشرة ، وما دام لديه من الصلات الشخصية ما يستمتع به ، ومن الجمال ما يتأمله ، أو يبدعه ، ومن الحق ما يسعى إليه ، فإنه يعزف دائماً عن التضحية بهذا المحسوس فى سبيل

ما قد يتبين أنه وهم من الأوهام . إنه يريد أن يعمل لكى يعيش — إن كان لابد له من ذلك ، فالحياة وسيلة ضرورية من وسائل الخير . ولكنه بعد ما يكفل بقاءه ، يقف من الحياة موقفاً قابلا لا فاعلا . إن حياة العمل — فى أحسن حالاتها — قد تكون حياة حركة دائبة فى السعى وراء ما قد يتبين إنه وسيلة من وسائل الخير — الخير للعامل — أو على الأرجح — للآخرين . ولكن العمل فى حد ذاته عديم القيمة ، وقلما تكون للحالة العقلية التى تتولد عنه أية قيمة . وفى أكثر الأحيان يكون العمل باعثا على حالات عقلية سيئة بالنسبة إلى العامل ، وباعثاً على الإزعاج المتواصل بالنسبة للآخرين .

لقد اعترفت بأن حياة العمل (ولست أسمى الحياة التى يكرسها صاحبها لمجرد اكتساب القوت ، حياة عمل — فالعامل الزراعى ليس رجلا من رجال العمل) ربما كانت وسيلة من وسائل الخير ، وبخاصة خير الآخرين . إلا أن الأشخاص العاملين حقا — رجالا كانوا أو نساء — لا يشنون الحرب عادة أو يقيمون المذابح ، ولا يتسلطون على الضعيف ويستثيرون القوى ، ولا يتدخلون فى شئون جيرانهم ويقلبون الدنيا رأسا على عقب — لا يفعلون ذلك مدفوعين ببواعث الإيثار ، إنهم لا يفعلون ذلك إلا لأنهم لا يستطيعون أن يفرضوا شخصياتهم إلا بالعمل . إن ما يسمونه شخصا عمليا — رجلا كان أو امرأة — ليس إلا فنانا شائها ناقصا ، يتشوق إلى التعبير عن نفسه ، ولما كان لا يستطيع ذلك بالخلق والإبداع ، فلا مناص له من التدخل فى شئون الآخرين . أمثال هؤلاء هم نكبتنا ، وما أكثرهم . إنهم لا يكتفون بالمحبة والصداقة ،

والحديث ، وإبداع الجمال أو التأمل فيه ، أومتابعة الحق والمعرفة ، أو اشباع حواسهم ، أو باكتساب قوت يومهم فى هدوء . بل لا بد لهم من الظفر بالنفوذ ، ولابد أن يفرضوا أشخاصهم ، ولابد أن يتدخلوا فى شئون غيرهم . هم صانعو الأمم والإمبراطوريات ، وهم الذين يخلون بالسلام . هم مخرجو الإنسان من خير جوانبه . هم عمد الهمجية — أو إذا تبعنا كتاب السير — هم عمد المجتمع . إنهم غير مهيئين للذات المدنية ، ولكنهم لا يسمحون لجيرانهم الذين كانوا أوفر منهم حظا فى هذا السبيل بالاستمتاع بها . لابد لهم من فرض معاييرهم وطرقهم فى الحياة . وأسوأ من هذا كله إنهم يدفعون من بين من هم يسيرون فى اتجاه المدنية بالطبيعة من كان أقل وضوحا فى بصيرته — يدفعون بهؤلاء إلى عمل يدفعون به عن ذواتهم — أو قل يدفعون بهم إلى شبه الهمجية[1] وعن هذه الحشرات تصدر تلك الدعوة الغالية ، تقديس العمل : كأن العمل يمكن أن يكون خيرا فى حد ذاته . وعنهم تصدر الحروب ، وأسباب الاضطهاد ، وقوانين الشرطة والتحقيقات الظالمة . إنهم يتوهمون أنهم يستطيعون بالقوة أن يفرضوا على غيرهم المعتقدات والميول ، وقد بلغ هؤلاء الآخرون من الحماقة أنهم يصدقونهم . إنهم يستطيعون أن يفرضوا — بل إنهم ليفرضون — التوحيد الظاهرى ، والنظام . إنهم

---

(١) كان المتقدمون فى المدنية من بين المواطنين فى أثينا يصرون على المعارضة فى سياسة الحرب والتوسع الاستعمارى التى كان الزعماء الشعبيون يزجون بالمدينة فيها . وهذه السياسة التوسعية أدت مباشرة الى تدهور المدنية الأثينية ، كما أدت الى انهيارها السياسى . ولو أن القبيادس قنع بحياة الفكر والشعور لما أيد تلك الحملة الصقلية القاتلة .

ينظمون العداوة لكل ما ليس بالشائع أو المألوف ــ أى لكل ما هو متميز نادر . لا شك أنهم قلة مسحوقة ، ولكن لما كانوا لا يحسنون عملا سوى السعى وراء السلطان ، ولما كانت الغالبية غبية وديعة ، فانهم يظفرون به عادة .

ولنعد إلى الرجل المتمدن . الرجل المتمدن مصنوع لامطبوع . هو شخص مصطنع ، غيرطبيعى . إنه يكوّن نفسه عامداواعيا ،وفى اعتباره الحصول على خير وأدق الموجود والاستمتاع به . وبرغم هذا ــ بمعنى آخر ــ إنه وإن يكن متكلفا فى كل أموره ، إلا أنه أقل الكائنات البشرية انحرافا . وهو كذلك لأن استجاباته أقل انحيازا . ولكى نفهم هذا التناقض الظاهر يجب علينا أن نسلط أذهاننا على صورتين : على الحياة ، أو التجارب ، باعتبارها تيارا دائم التدفق ، وعلى ذلك المجرى العجيب الذى نجريها فيه . وهو الشخصية . والعجيب فى الشخصية أنها تكيف وتتكيف بالتجارب ، ولا تجد شخصيتين فى شكلهما الأصيل متطابقتين ، ولكن خلال السنوات الأولى لحياة كل إنسان تشكل الظروف والتربية الشخصية وتحورها ــ وأقصد بالشخصية المجرى الذى يسرى خلاله تيار التجارب . إنها تنسد وتتضخم من أثر الخرافة المتخلفة أو تراكم العادات التى تلتوى هنا وتنبعج من فعل الأهواء التقليدية ، وأحيانا تعيد الثقافة تشكيلها قصدا . ولكى تقدر تقديرا تاما قوة التيار الذى يمر بها وحرارته ونوعه ، ولكى تسجل الدوامات والأمواج التى تصطدم بها ، ولكى تميز تمييزا واضحا بين التحاريق والفيضان ، يجب أن نحافظ فى عناية تامة على نظافة هذه الأداة الدقيقة . الشخصية (هذا الموصل للتجارب) تحتاج إلى الجلاء دائما . ولا يستطيع إلا العقل وحده أن

يؤدى هذه العملية الأساسية . العقل وحده يخلص الشخصية من الآراء المتعصبة وردود الأفعال العنيفة ، وذلك لكى تقاوم دائما المعتقدات الثابتة وردود الأفعال الغريزية . شخصية الهمجى تتلوث بالأهواء والمخاوف الخرافية . أما شخصية المتمدن فليست بالتأكيد تلك الشخصية التى ولد بها ، فقد طرقتها الأقدار وشكلتها التربية ، ولكنها شخصية نظيفة . ولا تحول بينه وبين الحياة محرمات بالية ، أو عرف على غير أساس أو مخاوف لا طائل تحتها . ومن ثم تتاح الفرصة لكى يمارس يوما ما أمرا من الأمور مباشرة ممارسة كاملة و بشخصه ، لا باعتباره مسيحيا أو عابد شيطان ، ولا باعتباره سيدا انجليزيا أو من عامة قراء الصحف ، وإنما باعتباره الذاتى .

الرجل المتمدن لا يعبث بصفاته الموروثة حبا فى توحيدها مع صفات غيره ، ولا من أجل الضمان العقلى والعاطفى — وهما من أهداف القطيع الكبرى . ولا يحاول أن يعدل من هذه الصفات إلا حينما تحول بينه وبين إدراك الحياة والاستمتاع بها . إنه يحاول أن يعالج نفسه من حدة الطبع كما يحاول أن يعالج نفسه من لكنة اللسان . إنه يكافح ميول الغيرة كما يكافح السل فى بدايته . إن الميول الهمجية لا تعود بفائدة تدوم متعتها . إنها تهدم السعادة كما تهدمها أمراض الأسنان . إنها تجعلنا نعانى معاناة المرضى ونسلك سلوك المجانين . الرجل المتمدن يبذل كل جهده للتخلص من كل ما يحول بين وعيه والحقيقة ، كل ما يحرف الأحكام ، كل ما يظلم البصيرة . إنه يحاول أن يبدد الطبيعة بمعول التربية ، وهو بهذه المحاولة إنسان متكلف مصطنع . ولهذا فهو وإن كان لا ينبذ لذة من اللذات لأنها

تنافى المبادىء ، إلا أن عادة التحليل عنده وإحساسه بالقيم سرعان ما تقنعه بأنه يضحى بالأسمى فى سبيل الأدنى إن هو سار وراء ميوله الطبيعية . إنه يستبعد أو يحد من تذوق اللذات الدنيا . وإن بدا له أن الجشع يحد من تأثره بالفكر والشعور تحكم فى شهوته . الرجل الهمجى يأكل ويشرب حتى يمرض ، والرجل نصف المتمدن يفعل ذلك حتى يتبلد . أما الرجل المتمدن فيحاول دائما أن يطور الطبيعة ومن المحتمل أن ينجح . يعزز من نفسه ناحية ويمحو منها ناحية أخرى . إنه لا يقبل الطبيعة كما هى ، ولست أرى سببا يدعوه إلى هذا . أما أولئك الذين يقبلون الطبيعة على علاتها . أولئك الذين يرفضون التدخل فى هذه الآلهة ، أولئك الذين عقدوا العزم على استبعاد كل ما ليس بالطبيعى — هؤلاء أنصحهم بالعودة الى الصواب بأسرع ما تمكنهم قدراتهم الطبيعية .

هكذا أصور الرجل المتمدن . فهل تصدمك هذه الصورة ولا تلاقى عندك عطفا ؟ لم يكن من شأنى أن أرسمها على غير هذا الشكل . وسواء رضيت عنها أو لم ترض ، وسواء ترفقت فأسميتها « رسما تخطيطيا » أو نبذتها قطعا لأنها « ضعيفة » . سواء كان هذا أو ذاك فإنى أعتقد أنك توافق على أن الشخص الذى قصدت أن أصوره بها ، هو فى الواقع الشخص الذى نسميه متمدنا . إنه ليس الرجل الطيب ، وليس الرجل الطبيعى . إنه ليس الفنان ، أو البطل ، أو القديس ، أو الفيلسوف ، ولكنه يقدر الفن ، ويحترم الحق ، ويعرف كيف ينبغى أن يكون سلوكه . هدفه أن يستمتع بالحياة استمتاعا كاملا ، وأن يستمتع بها جملة وفى أدق نواحيها وأشدها خفاء . ووسيلته الأولى لتحقيق هذا الهدف هى قوة الفكر

والشعور ، مهذبة إلى أقصى الحدود . إنه صاحب ذوق فى كل الأمور . تطلعه الذهنى لا حد له ، لا يخشى شيئا ، ولا ينطوى على غرض . إنه متسامح ، متحرر ، لا يُصدم . وإذا لم يكن دائما ودودا ظريفا ، فهو على الأقل ليس شرسا ، ولا مرتابا أو متعاليا ، إنه ينتقى ملذاته قصدا ، ولا يحد انتقاءه خوف أو هوى . إنه يميز بين الوسائل والغايات ، ومن ثم تراه يقدر الأمور لدلالاتها الوجدانيـة أكثر مما يقدرها لفائدتها العملية . كل نفاق فى الحديث عن «الحقوق» و «الواجبات» و «المقدسات» يهب بعيدا عنه كالقش والرمال ، يضايق ولا يؤذى . إحساسه بالقيم ، حينما يوجهه بذكائه ، كالإبرة التى يفقأ بها الفقاعات المزيدة التى يثيرها الاستنكار الخلقى . إنه ناقد ، واع لنفسه ، وهو على كل حال — إلى حد ما — يحلل المواقف . ولا مناص له من أن يكون فـذا فريدا . ولما كان واعيا لنفسه كفرد كان قليل العطف على إجماع القطيع . ولما كان مهذب العقل والوجـدان والحس ، فإنه يشق للحياة طريقا يزيل منه — على قدر المستطاع — ما يعترضه من عادات وأهواء . كلا . إنه لن يكون طبيعيا أبدا .

إن النموذج الفذ للإنسان المتمدن قد يوجد — فيما أحسب — منفرداً ، مستوحشا ، مستكفيا بذاته ، لقيمته الذاتيه . ولـكن الرجل المتمدن لا يمسى ممدنا لغيره إلا عندما يجتمع حشد من المتمدنين . فجماعة المتمدنين هى نواة المدنية . يقول فلتير «فى النهاية تتحكم الجماعة الطيبة فى الجميع فى كل مكان » . والجماعة طيبة كانت أو سيئة — لابد أن تتألف من أكثر من فرد واحد . وعندما توجد « الجماعة الطيبة » ، أو نواة

التمدين ، فإنها لاتسود — إن صح أن ننعتها بالسيادة — إلا بطلاء البيئة بلون خفيف . وهذه البيئة — مدينة كانت أو دولة أو عصراً — لايمكن أن يقال عنها إنها أصبحت رفيعة المدنية (كبيئة) إلا عندما يصطبغ جانب عظيم من جمهورها بهذه الصبغة الغالبة — وإن بقى هذا الجمهور على قدر كبير من الهمجية إذا قسناه بتلك المعايير الدقيقة التى طبقتها على الأفراد . وفى العصور المحظوظة والبقاع السعيدة نرى أن جانباً كبيراً من السكان قد أبدى ميلا إلى المناظر والأصوات الجميلة ، وبدت عليه علامات تدل على تنبه إلى التطلع الذهنى ، كما أظهر قلقا من القيود الهمجية على الفكر والشعور التى تدفع بالغالبية عادة إلى تخوم الحيوانية . وقام بتزيين المدن كبار الفنانين الذين فضلت أعمالهم عن وعى وقصد على أعمال الفنانين المتخلفين . وإنى لأؤكد عن يقين أن تمثال مس كافل لم يكن بالإمكان أن يعرض فى أثينا لعهد بركليز أو فلورنسا المديشية . ولقد مرت عصور بدأ كثير من الناس فيها يحسون ببغض الكذب والجهل ، بغضاً ينبنى على أساس عقلى وأساس جمالى فى آن واحد . وفى القرن الثامن عشر سخر فلتير متجاوباً مع الرأى العام من مؤلفين كان لديهم من العقل ما ليس لمستر باك أو سير أرثر كونان دويل . وفى ذلك العصر كان لابد أن تكون جنازة فالنتينو نفسه أقل روعة من جنازة سير إسحق نيوتن . وكان الاثينيون يخصصون للفن أضخم اعتماد من الخزانة العامة . وكان الإيطاليون لعهد النهضة يعدون رفائيل أعظم أمجادهم الوطنية . ومن أمثال هذه الريشات يتبين المرء اتجاه الريح . ويؤكد لنا الفحص الدقيق صحة الانطباع الذى تكون

لدينا من أنه كانت هناك حقاً جماعات سادها وانتشر فيها تقدير عادل — وإن يكن غامضاً — للقيم العليا ولما فى الحياة من جميل الأشياء ، بل سادتها رغبة فى متابعة هذه القيم والأشياء ولو على حساب إشباع الرغبات الأكثر وضوحاً وجلاء . وكان ذلك من فعل جماعة من الأفراد الضالعين فى المدنية . هذه الجماعة بتأثيرها فى الجماهير لونت عصرها عن غير قصد وبطريقة غير مباشرة فى أكثر الأحيان . أن الجماعات الضالعة فى المدنية من رجال وسيدات هى التى نشرت الحضارة[1].

---

(١) يمدنا تاريخ « قصر رامبوييه » بمثال قديم لقوم متمدنين انضم بعضهم إلى بعض لكى يتفادوا البيئة الهمجية التى تحوطاتهم ، فكوّنوا نواة ومدنوا عصرهم تدريجيا — وهم فى الوقت عينه مثال لمادة تتعلق بموضوعنا ولا يمكن أن يتضمنها النص على وجه حسن . ففى السنوات الأولى من القرن السابع عشر نرى اللون الذى تضفيه الرامبوييه على ما حولها وهو يفعل فعله ، وينتشر رويدا رويدا . ونرى هذه الجماعة وهى تولّد جماعات أكبر منها من سلالتها المباشرة ، وتتضخم هذه الجماعات شيئا فشيئا ، وتزداد فى فى أهميتها ومدنيتها ، ولا تفتأ تنشر لونها ، حتى تبلغ الحركة أوجها فى المدنيـة الرفيعة التى ذاعت فى صالونات السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

ونقلا عن بولنييه (وهو حجة قوية فى الموضوع) « حوالى عام ١٦٠٧ أعلنت كاترين دى فيفون ، ماركيزة رامبوييه ، وكانت إذ ذاك فى العشرين من عمرها ، أعلنت سخطها على ما كان عليه رجال الحاشية فى « فيرجالان » من خلق ، وعلى أسلوبهم فى الحيـاة . فكفت عن ارتياد مجتمعات قصر اللوفر ، وقبعت فى كسر بيتها .

ولما كانت هذه الماركيزة دمثة لطيفة وعلى جانب كبير من الثقافة ، ملمة باللغة الأسبانية واللغة الايطالية ، فضلا عن ثرائها العريض ، وخفة روحها التى كانت تسحر بها من حولها ، فقد كانت تأوى إلى غرفة نومها حيث كان يلذ لها أن تقضى وقتها بعد العشاء ، كما تؤكد الآنسة سودرى ، أو تقضى هناك يوما من أيام =

= الصيف حيث كان السيدات يقمن السهرات فى غرفهن للتخفف من شدة الحرارة .

وكانت شديدة الحماسة لخدمة الحق والمجتمع . وفى يوم الاستقبال كانت تدعو شخصيات معينة من جنسها ، وسرعان ما أمسى قصرها مكانا تلتقى فيه جماعة مختارة من صفوة السيدات والسادة من أرباب القلم . . . . وكانت لقصر رامبوييه آثار أخرى ممتازة . ففى الحجرة الزرقاء لم يكن يطلب من النزلاء إلا التسلية والاستمتاع . وهنا كان موضع الابتكار . ثم إن السيد المهذب كان لا يهتم كثيرا بأن يسحر بأحاديثه وكتاباته . بل إن ما يتمناه أن يكون شجاعا أولا ، قويا ثانيا ، عظيما ، قادرا على السعة فى الانفاق . فالروح إنما هى وليدة هذه الصفات . ثم إنه لم تكن هناك قبل قصر رامبوييه أية فكرة ترمى إلى أن تكون المناقشة وحدها متعة كبرى يسعى اليها الناس ، إذ يجتمعون لغرض واحد ، هو تبادل الحديث . وبسبب ما كان لجماعة رامبوييه من مكانة ، سرعان ما كان الرائد يفقد منزلته حتى أن كان من النبلاء أنفسهم إذا لم يبد منه ما يكفى على الدلالة على أنه « رجل مخاص » أو رجل من رجال الحياة .

وكان من آثار قصر رامبوييه عند لانسون « تنظيم الطبقة الارستقراطية فى مجتمع مدنى » . بيد أن المدنية سرعان ما تسفه الفوارق الطبقية ، ففى القرن السابع عشر الحائر « كانت تعيش (فى الغرفة الزرقاء) الدوقات إلى جانب سيدات الطبقة الوسطى وأرباب القلم — كما روى بولنييه — ولا تتصوروا أن الحديث كان تافها فقد كان هذا القصر قبل كل شىء صالونا أدبيا ، حيث كان المجتمعون يتبادلون قصائد الشعر وروائع الأدب . . . وكان هناك من يصغى . . . وكان هناك من يجادل . . .

وكان أفراد هذا المجتمع من صفوة الرجال والنساء يحنون اللغة الفرنسية الرصينة فيناقشون فى حرارة مشكلات قواعد هذه اللغة ، كما كان الاهتمام يدور كذلك حول أسلوبها فى الغرفة الزرقاء — وكل هذا كان له من غير شك أثره فى الأدب واللغة .

وفيما عدا الحلقة الصغيرة _ حلقة أرتنيس التى لا يشق لهـا غبار _ فإن طبقة النبلاء وخيار الطبقة الوسطى فى فرنسا لم يتم تهذيبهم إلا ببطء وشيئا فشيئا » .

— ٧ —

كيف نصنع المدنية

بقى أمامنا سؤالان ، أولهما : هل نريد المدنية ؟ وثانيهما : هل نستطيع أن نظفر بها لو أردناها ؟

هل نريدها ؟ هناك من الأسباب — إلى جانب ما يراه ساسة الدول المتحالفة — ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن المدنية أمر مرغوب فيه . فهناك الاعتقاد الراسخ فى قلب كل رجل مهذب وكل امرأة مهذبة . لأن كل إنسان مهذب — رجلا كان أو امرأة — يحس أن تلك العصور الذهبية — التى حاولت أن أشير إلى صفاتها — كانت ذهبية حقاً . وإنا جميعاً لنشعر أنها كانت مما يشرف التاريخ . ولا يمنع ذلك من وجود جماعة من الأذكياء يمتعهم أن يتغنوا بجمال الهمجية . ومن العقلاء من يدرك عيوب المدنية ومفاتن الهمجية — وإنك لتلمس بين أرق المتمدنين ميلا — من حين إلى حين — للثورة على تهذيبهم ، وكثيراً ما تجد فيهم شيئاً من السذاجة والحيوانية . إن فى العودة إلى الطبيعة عن طريق الفنون والحرف ، وفلاحة البساتين وسوء فهم فلتير ، تناقض يقبله عادة المتمدنون الذين يحسون الحاجة إلى دواء مسكن — وليس هناك ما هو أقرب إلى الطبيعة من أن يؤلف أمثال هؤلاء جماعات تتحسر فى براعة وفى نغم جميل على ملذات الجهل المفقودة ونعمة البلاهة الضائعة . ولا يدعونا البتة

إلى الدهشة أن تنال هذه الجماعات العطف الشديد ، أو أن يمدهم بالمال،
أولئك الذين لبثوا على همجيتهم لأنهم عجزوا عن أن يكونوا شيئا أفضل
من ذلك — ومهما يكن من أمر فمن المرغوب فيه أن يكون هؤلاء
الأذكياء ، هؤلاء الذين يبشرون بالحنين إلى العصر الباليوليتك القديم
ويجدون من يصغى اليهم ، من المرغوب فيه أن يبلغ بهؤلاء ذكاؤهم
أن يدركوا أن هناك فارقا جسيما جدا بين نظرية يذكرها صاحبها لمجرد
الدعاية ، وبين مايعتقده المرء فعلا . إن كل إنسان ذكى يدرك من صميم
قلبه أن حياة المتوحش هى كما وصف هوبز — وذلك برغم ما فيها من
فنون النحت ، ورقصات الحرب ، وتبادل المودة ، والاثداء السمراء ،
وثمر الموز . إنها حياة لا يمكن لنا احتمالها لما فيها من مخاوف غير طبيعية
تحدق بالناس وتهددهم ، ولما تنطوى عليه من انعدام الاطمئنان المادى ،
وانعدام التنوع — قد تهتز نفوسنا لما فيها من فنون خيالية للبناء ، وقد
نعجب بمظهر التحمس للعقائد ، ولكننا ندرك من صميم قلوبنا أن العصور
المظلمة كانت حقا مظلمة . إنا نعلم أن تلك الأيام الحالمة كانت تقع علينا
كالكابوس لو عشنا فيها ، لما سادها من مخاوف مفزعة ، وآلام لها
ما يبررها وما لا يبررها ، ونقص فى الأفكار الجديدة ، وموانع عاطفية
وذهنية ، وتهديد مستمر بالدمار الشامل — وبعد ذلك النموذج الطيب
من الهمجية الذى لمسناه بين أغسطس من عام ١٩١٤ ونوفمبر من عام
١٩١٨ ، عرفنا — نحن الذين نحن إلى العقل — أننا عدنا إلى الملذات
المصطنعة التى تتيحها لنا حفلات العشاء الحديثة ، حيث نستطيع أن
نجلس ونثور فى أمن واطمئنان ضد سكون الحياة المتمدنة الذى يخلو

من دلائل البطولة ، وفى أفئدتنا إحساس بالتفريج عن النفس خفى ولكنه بعيد الغور .

هذه العقيدة الملحة — والتى تختفى كثيراً وتتستر أحيانا — بأن المدنية أمر تشتد رغبتنا فيه ، هذه العقيدة ربما كانت خير ما لدينا من سبب يدعونا إلى افتراض أن المدنية شىء محبب إلى النفوس . وكل من يريد لذلك سندا من الفلسفة يستطيع أن يلتمس هذا السند . فإن فلاسفة الأخلاق يقولون له إنه ينبغى له أن يرغب فى المدنية : إذ يبدو أن الفلاسفة على اتفاق تام بأنه ليس هناك ما هو خير فى حد ذاته سوى بعض حالات العقل التى تبرز من بينها حالات الخلق، والتأمل ،والتدبر، والمحبة . ومن المؤكد أن المدنية لا تقوم بما يعوق الخلق الفنى . والفنانون يظهرون فى المجتمعات المتمدنة كما يظهرون فى المجتمعات المتوحشة . والجو الذى يبلغ فيه التكلف أقصاه قد يكون خانقاً لأحد الفنانين ولكنه لغيره مجال للتنفس . إن نظرة إلى التاريخ تقنع كل من يستطيع قراءته أنه ليست هناك علاقة معينة بين الإنتاج الفنى لعصر من العصور ، كما وكيفا (وإن كنت لا أقصد الوصف السطحى) وبين درجة حضارة هذا العصر . وإذا كانت المدنية أقل ملاءمة لنشوة العقيدة التى لا تستند إلى عقل ، فهى — على الأقل — لا تقاومها مقاومة إيجابية . فهى لا تمنح ولا تضطهد . فى حين أنها تشجع المتع النفسية الأخرى ، التى يحسها أولئك الذين يكرسون حياتهم للعلم ، والفلاسفة المتفكرون ، وعلماء الرياضة ، ورجال البحث، وكل باحث وكل مفكر — وليس ذلك فحسب ، بل إن المدنية كثيراً ما تكون وحدها العامل

الذى يجعل هذه المتعة ممكنة . أما حالات التقدير والتأمل ، فهى من صميمها — وكذلك العلاقات الشخصية . ولا يُنكر فى الواقع أن الرجل المتمدن الذى يبحث عن المتعة الفائقة ، هو بطبيعته — ولا بد له أن يكون كذلك — هاو لحالات عقلية رائعة . ومن ثم فليباركه أساتذة الأخلاق .

ولكن المذاهب الأخلاقية عقيمة فى أحسن حالاتها ، وميل الأساتذة للخلط بين الأخلاق وقواعد العرف كثيرا ما تجعلهم جماعة منفردة . بيد أنا فى ثورة غضب ضد هذه الجماعة ننادى بحرارة بأن أشوربانيبال كان محقا فى انكيال[1] حينما نقش هذه العبارة التى استرعت نظر ارستوبولوس[2] « كلوا ، واشربوا و . . . . العبوا . فإن ما خلا ذلك لا يساوى قلامة ظفر » . بيد أن أشوربانيبال كان مخطئاً . وسرعان ما تصبح الحياة التى يوصى بها مملة كالحياة المثالية التى يوصى بها الأخلاقى المحترف . فإن الإنسان الذكى لن يقنع طويلا بالملذات الحيوانية . وإنما هو يضع لذة العقل والعاطفة فى المقدمة ثم يضع الملذات الحسية فى المؤخرة ، فتكوّن أساساً خلقياً فاتناً . وهذا هو المكان الذى تعينه لها المدنية على وجه التحديد .

أما لماذا يرغب الناس فى المدنية فسؤال آخر يجدر بى أن أجيب عنه . ما هو الدافع الذى يُخرج عددا معيناً من المتوحشين عن حالتهم

---

(١) مدينة فى الأناضول .

(٢) فيلسوف عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد .

الطبيعية التى تسودها الخرافة وغريزة القطيع إلى حالة التأمل والفردية؟
ليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يعرفون أنه لابد أن يكون الباعث
على هذا الإخراج دافعا من الدوافع . ولا يدهشنى إذا اكتشفوا ذات
يوم أن هذا الدافع الفريد لم يكن شيئاً أفضل مما عرف عنا من تذوق
للذة المجردة . ومهما يكن من أمر فمن الممكن أن يرى الباحث أن المدنية
كانت نتيجة لهذه الرغبة العامة . لأنك لا تنكر أن أنبل رجل متوحش
محروم من كثير من ملذاتنا بسبب الخوف والجهل، سواء شاطرت هوبز
الرأى أو لم تشاطره بأن حياة الرجل الطبيعى قذرة وحشية قصيرة. الرجل
المتوحش لا يستمتع البتة بأية متعة من المتع التى يستمدها المرء من حرية
التفكير ، وقلما يستمتع بالمتع التى تتولد عن الذوق . وليس من شك فى
أنه يستمد متعة من فنون النحت والنسيج عنده ، وليس من شك فى أنه
ينعم بنوع من أنواع الموسيقى — وكل ذلك مما نقدره نحن أيضا . ولكنك
لو عرضت على أنبل المتوحشين مسرحية لأرستوفان أو شيكسبير أو
راسين ، أو فن الفسيفساء البيزنطى ، أو بوسان ، أو الموسيقى الحديثة
أو السمفونى ، أو حوارا دقيقا ، أو حديثاً فكها ينم عن ذكاء ، أو غزلا
معقدا ، إن أنت فعلت ذلك ، اعترفت فيما أظن — بأن ضعف الثقافة
يحرمه من ملذات اكتسبنا تذوق الاستمتاع بها . يقول ماك كويدى
« المتوحش لا يضحك مطلقا » . وإنى أعتقد أن ماك كويدى مخطىء ،
ولكنى أتصور أن المتوحش قلما يبتسم . إنه يفتح فاه . ولا يرفع قط
كتفا أو حاجباً . وليس للمتع الذهنية أو الظلال الدقيقة للعاطفة معنى لديه .
ملذاته محدودة تسير على وتيرة واحدة . وكم من الآلام يحتمل مما هو ضرورى
وغير ضرورى . ذلك لأن أقوى أسباب الألم ، وألد أعداء المتعة

هو الخرافة والجهل والعاطفة التى لا سلطان لصاحبها عليها — وتلك هى مميزات الهمجية الأساسيـة . إن الرجل الكاثوليكى الحديث ، قد يكون بدينا نهما ، يتناول اللحم والنبيذ ، ويمتلىء قلبه بالحقد ، ثم يجعجع قائلا إنه سعيد وإنه مؤمن . بيد أنه برغم هذا لا يعتقد فعلا فى الخرافة ، وهو فى ذلك يختلف عن الرجل الهمجى . إن كان سعيدا فذلك لأنه يعتقد صادقا فى أمور قليلة سوى قدرته على الهضم . ولولا ما تقدمه له المدنية فى الوقت الحاضر من أمن وعلم ، ما طال اعتقاده فى هذه القدرة . إن عقيدته لم تبلغ بها الحرارة أن يدرك ما هو الفزع الخرافى . ولـكن الفلاح فى العصور الوسطى الذى كان يؤمن بأنه بمتابعـة ميوله يسير رأسا إلى الجحيم المقيم ، والرجـل الهمجى الذى يعيش خائفا من أن يقرب المحرمات — هؤلاء يعرفون الفزع ، ويقضون شطرا كبيرا من حياتهم فى ألم واضطراب نفسانى . وتستطيع المدنية أن تنقذهم بأن تبين لهم أن الحياة شىء يستمتع به المرء ، ثم تبين لهم بعد ذلك كيف يستمتعون بها ، وذلك بأن تخرجهم عن اعتزازهم بنعمة الامتلاء والرضا بالراحة وبغض كل ما عداها — إن كان بهم أدنى ميل إلى الملذات الدقيقة . كما تظهرهم المدنية كذلك على عالم من الآراء يكتشفونه ومن العواطف يحسونه . المدنية — كالشيطان — تظهر المرء على كل ممالك العالم — عالم الروح — فى لحظة من الزمان ، وتدفعه إلى امتلاكها . وربما — بعد هذا كله — كان ذلك الدافع الخفى الذى كنا نبحث عنه هو الشيطان — الذى عرف فى بلاد أخرى وعصور أخرى باسم بروميثيوس .

ومهما يكن من أمر ، فأنا على يقين ، من أن كل امرىء قادر على فهم

هذا التعبير إذا خلص فى الإجابة عن هذا السؤال : هل أريد المدنية ؟ لم يجد مفرا من الاعتراف بأنه يريدها (ولكن كم من الناس يستطيع الإدراك؟) . وأنا أعرف كذلك أن الفلاسفة يقولون له أنه من الواجب عليه أن يريدها . غير أنه فوق علمى أن أعرف إن كانت الأكثرية قد أرادت المدنية أو سوف تريدها . أكثر الناس يريد اللذة ، ولكنها لا تطيق بعد النظر ، والمدنية ليست بالطريق الواضح . إن الهمجى الذى أخذ الأرنب إلى بيته وطهاه كان رجلا شاذا . ومن حسن حظى أنه ليس من شأنى أن أحمل الأكثرية على التنبؤ بالمستقبل . ولكن مادمت قد حاولت أن أفسر ما عنيت بالمدنية ، وما دام ذلك غاية أرمى اليها ، فسوف أسمح لنفسى بالإشارة إلى الوسائل . سوف أرسم صورة عامة للأداة التى يستطيع بها الناس أن يخلقوا المدنية ، إن كانت المدنية ما يريده الناس .

الشعب المتمدن ، الذى يتميز عن تلك النواة التى تضفى عليه المدنية ، يتألف من رجال ونساء يتخذ الجانب الأكبر منهم موقفا فيه شىء من النقد للحياة ، ويتصف بتذوق بدائى للتفوق والامتياز . إنه يحاول بصورة غير مهذبة — وإن تكن واعية — أن يدرب نفسه على استغلال قوى التفكير والشعور التى يمتلكها أكبر استغلال . وقد اكتشف أهل اسبرطة أن مجتمعا بأسره — أو على الأصح الجانب الحر من هذا المجتمع — يمكن أن يدرب نفسه على القتال . وكان الأثينيون — على قدر ما وصل إلينا من علم — أول من دربوا أنفسهم ، عامدين ، على تقدير الحياة . هذا التدريب المقصود الواعى بنفسه صفة مميزة من صفات المدنية . وما يترتب عليه من استمتاع ، تلك الحالات العقلية الطيبة التى

تنجم عنه ، هو الغاية التي تعتبر المدنية إحدى وسائلها . وأقول « إحدى الوسائل » لأن المدنية وإن كانت أخصب ما نعرف من وسائل إلا أنها ليست الوسيلة الوحيدة للخير . وهذه الوسيلة — التي تؤدي على الأرجح إلى الخير — التي استطاعت فطنة الإنسان — حتى الآن — أن تبدعها — كما رأينا — ليست سوى ذلك اللون الذي تضفيه على المجتمع نواة قوية — وإن تكن صغيرة — من الأفراد الضالعين في المدنية . ومن ثم فإن الجماعة التي تريد أن تمدن نفسها لابد أن تكتشف أولا — ثم تنشيء ثانياً — تلك الظروف التي تلائم إنتاج الممدنين .

لا يستطيع[1] امرؤ أن يتفوق في المدنية — وسوف استعمل منذ الآن « التفوق في المدنية » تعبيرا أميز به بين الممدّنين ومجرد المتمدنين الذين يتلونون بلونهم — أقول لا يستطيع امرؤ أن يتفوق في المدنية دون أن يتوفر له قسط كاف من الأمن المادي . والواقع أن الدولة لم تخرج إلى حيز الوجود إلا نتيجة للرغبة في الأمن المادي . وأرجو ألا تسارعوا فتحسبوا أن الأمن المادي وحده يستطيع أن ينتج أي لون من ألوان المدنية — ولنذكر الجماعات التي تتميز بحسن التنظيم في العالم الحديث . غير أن المرء إن أراد أن يحيا حياة متفوقة في المدنية لابد أن يتوفر له الطعام ، والدفء ، والمأوى ، والمجال . والفراغ ، والحرية . ولذا فهنا — من أول الأمر — يواجه الرجل الذي يحب الإنسانية ويتحمس لها ، والذي يتأثر بفصاحتي فيصمم على أن يكرس قدراته السياسية لرفع شأن

---

(١) هذا رأي المؤلف ولا نوافق عليه ، بل نراه موضع شك كبير .

المدنية ـــ يواجه هذا الرجل سؤالا عاجلا شاذا وذلك هو : كيف نستطيع أن نمد القلة الممدنة بالأمن والفراغ اللازمين إلا على حساب الكثرة ؟

والجواب إنه ليست هناك وسيلة أخرى نمدهم بها : أن مواطنيهم ينبغى لهم أن يعولوهم كما فعلوا من قبل دائما . المدنية تحتاج إلى طبقة فارغة ، والطبقة الفارغة تحتاج إلى وجود الرقيق ـــ أعنى أولئك الذين يخصصون جانباً من فائض وقتهم ونشاطهم لعول غيرهم . فإن أحسست أن مثل هذه التفرقة لا يمكن احتمالها ، فلتكن شجاعا وتعترف أنك تستطيع أن تستغنى عن المدنية ، وإن المساواة ـــ لا الخير ـــ هى ما تريد . إن المساواة التامة بين البشر لا تتفق إلا مع الهمجية التامة . ولكن ليذكر من يزعم حب الإنسانية ـــ قبل أن يدعو إلى الهمجية ـــ أن بين الناس من يرغب فى الخدمة أو أن بينهم ـــ إن شاء ـــ من يرضى بالتضحية فى سبيل مثل أعلى .

ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن المرء لكى يكون كامل المدنية ، ولكى يمارس أعمق الحالات العقلية وأروعها لابد له من الأمن والفراغ . لابد أن يتوفر له ما يكفى لطعامه وشرابه ، وما يضمن له ذلك . ولابد أن يتوفر له الدفء ، والمأوى ، وشىء من الجمال ، وكل ضرورات الحياة وبعض ما فيها من أسباب الترف . والفراغ كذلك ضرورى . لابد له من الفراغ لكى يربى نفسه على الاستمتاع بالخيرات ، ومن الفراغ ما يمكنه من متابعة الاستمتاع بها . وكذلك يجب أن تتوفر له الحرية ، الحرية الاقتصادية التى ترفعه فوق مستوى الظروف التى تحطم الروح ، وتسمح له بالعيش كيفما وحيثما أراد ، والحرية الروحية ـ حرية

التفكير والشعور والتعبير والتجربة ، يجب أن تتوفر له الحرية لكى ينمى قابليته ، وأن يضعها دائماً فى طريق المغامرة . إن المرء لكى يظفر بخير ما فى الحياة يجب أن يعيش من أجل خير ما فيها .

بيد أن الأمن المادى والفراغ والحرية ، كلها — لسوء الحظ — تتطلب المال . والمال فى النهاية لا يمكن الحصول عليه إلا بالعمل المنتج . إلا أن كل ضروب كسب المال تقريبا عقبة فى سبيل حالات العقل الغزيرة الدقيقة . لأن جميعها تقريبا تتعب الجسم وتبلد الذهن . ويؤكد هذه الحقيقة الثابتة مثل الفنانين ، الذين يكف أكثرهم عن الخلق بتاتا إذا اضطروا إلى العمل فى تحطيم الأحجار أو جمع الأرقام ست أو سبع ساعات كل يوم . ثم إن الرجل الذى يتعلم كيف يكسب العيش لا يمكن أن نحسن تربيته على استغلال الحياة على أحسن وجه . فلكى نتيح للشاب أن يمارس خير ما فى الحياة لابد له من تربيته حرة محكمة حتى سن الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين ، تبقى فى نهايتها الحاجة إلى الفراغ شديدة الإلحاح ، لأن الإحساسات المرهفة عالية التدريب لا تعيش إلا فى ظروف حرة فسيحة . كم من ألوف المحامين ، وموظفى الحكومة ، ورجال الأعمال ، الذين تخرجوا فى أكسفورد أو كمبردج مؤهلين للاستمتاع بخير ما فى الحياة ، كم من هؤلاء أمسى — بعد ثلاثين عاما من النجاح المتواصل ، عاجزا عن الاستمتاع بأى شىء يفضل نشوة الخمر أو الصداقة العاطفية ، أو الروايات الرخيصة ، أو الصور الأرخص ، أو الموسيقى الشعبية ، أو الصور المتحركة ، أو الجولف ، أو ما يروى فى غرفة التدخين من حكايات ، أو الأمر والنهى . أما عن العمل البدنى ، فإن من يزعم أنه

بعد عمل يوم كامل فى الحفر أو السباكة ، أو الصيد والقنص ، يكون فى حالة تمكنه من استساغة نواحى النشاط الروحى الذى تتميز بدقتها ، من يزعم ذلك فإنه يقول كلاما ليس له معنى .

بل أكثر من ذلك أن توفر الأمن والفراغ والحرية وحده يمكن أن يعطى المرء ذلك الإحساس بالاطمئنان وتلك النخوة التى لا تبلغ الحياة بغيرها أو فى مراحل تطورها وأعلاها . ولا يعرف كيف ينفق المال — على وجه العموم — إلا أولئك الذين لم يضطروا قط لكسب المال . أولئك وحدهم لا يزنون المال بأكثر مما يستحق — فهو وسيلة لما يريدون . وإذا كان التحرر من العمل الشاق وحده هو الذى يبقى على المرء حدة ذهنه ، فإن الاستقلال وحده هو الذى يعطى المرء الشجاعة على استخدامه ، فلا يحتفظ بقوة الفكر والشعور بإخلاص مطلق إزاء كل موضوع إلا أولئك الذين لم يضطروا قط إلى إرضاء سيد أو التقرب إلى زميل . أولئك وحدهم يعرفون كيف يتخلصون من الغرض تماما ، وكيف لا يخضعون البتة للأهواء ، وكيف يتابعون فكرة دون النظر يمنة ويسرة ليتثبتوا من ملابساتها العملية ، وكيف لا تؤذيهم ضمائرهم فى اتباع المنطق ، وكيف لا ينزلون عن شىء من ميولهم . هل يمكن لقائد من قواد الصناعة مهما يكن ذكيا أن يتجرد من الأهواء تماما حينما يناقش الاقتصاد السياسى ؟ وهل يمكن لأسمى أفلاطونى — إن كان كذلك معلما مأجورا لليونانية — أن يحكم على التربية الكلاسيكية بمزاياها فحسب ؟ بل إن الاشتراكيين أنفسهم — إن كانوا كذلك من صغار العمال المأجورين — لا يستطيعون أن يفكروا بعقول متحررة فى الموضوع

الذى نجادل فيه : هل تتفق المساواة الاقتصادية مع أعلى درجات الخير ؟
فى حين أن الاشتراكية نفسها من ابتداع المفكرين من الطبقة المتفرغة ،
وأولئك أساسا هم الذين دفعوها إلى ميدان السياسة العملية .

إن وجود طبقة متفرغة لابد منه كوسيلة للخير ووسيلة للمدنية . أى
أن الرجال والنساء الذين تتألف منهم تلك النواة التى تشع المدنية منها
لابد أن يتوفر لهم الأمن والفراغ ، والحرية الاقتصادية ، وحرية
التفكير والشعور والتجربة . إذا أراد المجتمع المدنية فلا مناص له من
أن يدفع ثمنها . لا بد له من أن يعول طبقة متفرغة كما يعول المدارس
والجامعات ، والمتاحف ومعارض الصور . ويقتضى ذلك التفرقة —
التفرقة كوسيلة للخير . إن المدنية كلها استندت على هذه التفرقة . فكان
للأثينيين عبيدهم . وكان العمال المأجورون الذين ليس لهم حق التصويت
فى فلورنسة يقومون بأود الطبقة التى أسبغت على فلورنسة ثقافتها . ولا
يستمتع بنعمة العدل الاجتماعى سوى الاسكيمو ومن إليهم . لا غنى لنا
عن طبقة متفرغة إذ قل من الناس من يولد قادرا على أن يكشف لنفسه
عن عالم الفكر والشعور الذى تنبثق منه خير ملذاتنا ، وإن قدرات هذه
الفئة لتفسد إذا لم تلق الرعاية وتصبح بذورا فى العراء ، ثم إن المجتمع
لكى يتمدن ينبغى أن يتشبع وأن يتغذى دائما بالتأثير اللاشعورى لهذه
الفئة الممتازة التى تشع منها المدنية . يجب أن تُلقن الغالبية أن عالم الفكر
والشعور موجود ، ويجب أن تطلع — وهى تكمن خلف عالم مملول من
المنفعة العملية — على أهمية العالم العاطفى . وواجب القلة الممتازة أن
تشير إلى الطريق . إن أفراد هذه القلة الضالعة فى المدنية لا ترشد ولا

تحاضر ، وإنما تكتفى بأن تحيا حياتها . وسيتبين من عيشهم أن لهم ملذات ورغبات ، وقيم ومعايير ، وموقف من الحياة ، ووجهة نظر ، تختلف عما يتصف به الجمهور العامل . إنهم بعيشهم عيشة سلبية يصبحون عوامل إيجابية للخير . إذ أنه عندما يظهر أن القلة قد اكتشفت متعا غزيرة مشبعة لم يتنبه اليها الباحثون عن اللذة ممن هم أقصر نظرا وأقل موهبة ، عندئذ تبدأ الكثرة فى التساؤل . فتراهم يتساءلون : أليست هناك ملذات تفضل ما لدينا ؟ هل يمكن حقا أن يعنى الفن والفكر ونشاط الذكاء والخيال والعلاقات الشخصية الدقيقة لهؤلاء الأفذاذ أكثر مما يعنى سباق الخيل وسباق الزوارق ، والصيد ، وكرة القدم ، والسينما ، والويسكى ؟ سوف يتبين ذات يوم مشهود وبغير لبس أو غموض أن ألوان النشاط الأولى تعنى فعلا أكثر مما تعنى ألوان النشاط الثانية . وإن هناك من الناس من يستطيع الثانية ولكنه يؤثر الأولى . ويدعونا ذلك إلى التفكير . وقد يظهر بين الحين والحين من الهمجيين من يمعن فى البحث والتساؤل . فيساوره الشك والقلق ازاء تلك الملذات الواضحة التى كان يسلم دائما بتفوقها . فهل لا يمكن أن تكون الملذات التى لا يسهل اكتسابها أفضل فى السعى وراءها ؟ فيهب عليه عبق المدنية خفيفا ، كما تهب أحيانا رائحة الحشيش الجاف ذات مساء صائف فى أخريات شهر يونيه على الأحياء الفقيرة فى الضواحى. فيشتم فى هذا العبق بصورة غامضة رائحة طيبة — أو على الأقل رائحة تفضل ما كان يهب عليه من قبل . وإذ هو يخترق الميدان العام الذى عبره من قبل ألف مرة يفاجئه إحساس بالسعادة لا يستطيع تفسيره ، ويجد نفسه وقد وقف يحدق فى نافورة جميلة ، وشعر بالخجل لهذا الذهول الذى أصابه . وقد

يحدث بعد ذلك أى شىء . وقد يغلبه شعور مفاجىء بالرضى حينما يكتشف تناقضا فى الصحيفة التى كان يقرؤها حتى ذلك الحين مبجلا لما تحتويه غير ناقد لما فيها . وعلى ناصية إحدى الطرقات قد يستمع إلى خطيب يستنكر بشدة قيام حكومة أجنبية بعمل فشلت حكومته هو فى أدائه ليجد فى هذا الاستنكار تسلية أكثر مما يجد فيه إحقاقا للحق . وقد يتبين له بغتة أن ما صرح ببطلانه أو بمنافاته للأخلاق أحد الأساقفة أو القضاة لا يقوم على أساس . فيجد هذا الهمجى ذات يوم — من أثر المباغتة السارة — أنه يسخر مع بوكاشيو من الرهبان .

ويبدو لى أن الرأى القائل بأن الطبقة المتفرغة وحدها هى التى تتولد عنها فئة ممتازة متفوقة فى المدنية وناشرة لها ، يبدو لى أن هذا الرأى تؤيده الحجج الدامغة ويتمخض عنه التاريخ . ففى أثينا وفلورنسة وفرنسا فى القرن الثامن عشر كانت هناك طبقة دنيا مأجورة تقوم بالعمل الوضيع . والظاهر أن محبى الإنسانية ينسون أن الثقافة الإثينية كان يعولها العبيد . بيد أن من يريد أن يكشف الظروف الضرورية لقيام المدنية يجب ألا ينسى ، ويجب أن يذكر أن ثلثى — إن لم يكن ثلاثة أرباع — السكان فى إتكا كانوا عبيداً ، ويجب ألا ينسى أن القبيادس كان استثناء . كانت فى أثينا قلة من الأغنياء . وليس هناك تنافر بين المدنية والاشتراكية : إن الدولة الاشتراكية إن أرادت أن تتمدن لابد لها من أن تعول طبقة عاطلة عن العمل كوسيلة من وسائل الخير ، كما لا بد لها أن تعول المدارس والمعامل . والسؤال الوحيد هو كيف ننتقى هذه الطبقة . إنها فى الوقت الحاضر تختار بالوراثة ، وهو نظام فيه إسراف شديد . ليس هناك

ما يدعونا إلى الفرض بأن أبناء الأغنياء أفذاذ فى الذكاء والحساسية.
والواقع أن نسبة الطبقة المتفرغة الحالية التى يمكن وصفها « بالتفوق فى المدنية » ضئيلة إلى حد بعيد . إن انجلترا الحديثة تعول جمهورا من العاطلين ليس من بينهم عدد من الرجال والنساء المتفوقين فى المدنية يمكن أن تتألف منه نواة تمدين . ومن الواضح أن مثل هذا النظام غير اقتصادى . ونستطيع أن نفترض — دون أن يكون تفاؤلنا فى غير موضعه — أن المستقبل يمكنه أن يبتكر طريقة من الطرق تستبعد من من الطبقة المتفرغة على الأقل ثلثى أولئك الذين تحمل أسماؤهم أسمى الألقاب والذين تتحلى بصورهم المجلات الأسبوعية . وأعتقد أننا نستطيع أن نخفض تكاليف الإنفاق على نواة العاطلين إلى حد كبير دون أن نضحى بما هو أثمن من آسكت وكاوز . وليس من شأنى هنا أن أرسم الوسيلة لذلك : فالمشروعات فى ذهن كل فرد . ونستطيع أن نقول كلمة عن امتحانات المسابقة ، نستطيع أن ننقل إلى الطبقة المتفرغة التى تنفق عليها الدولة أوائل الطلبة والطالبات فى مدارس الدولة كل عام . وإن كنت مثلى تعتقد أن من المهم أن يبدأ إعداد أبناء الطبقة الممتازة منذ ميلادهم ، فليكن الاختيار بالاقتراع . إنك لو اخترت الطفل الذى يكون ترتيبه الألفين بين أقرانه وجعلته عضوا ، فإنك سوف تحقق بالتأكيد نتيجة تفضل ما تحققه من النظام الحاضر . وأذكر كذلك أنه ليس من الضرورى أن يكون العاطلون عن العمل جميعاً الذين يقع عليهم اختيارك من الطبقة الرفيعة . غير أنه من الضرورى أن تكون النسبة المختارة كافية . فإن أية طريقه تسلكها لا بد أن تؤدى بك إلى أفراد يثبت فيهم

سوء الاختيار . بيد أن ذلك ليس بأمر ذى بال . فالعدد مهما انخفض لا يؤثر فى الهدف الأساسى ، وهو أن تكون هناك طبقة من الرجال والنساء الذين لا يطلب منهم شيء ما — حتى أن يبرروا وجودهم ، ذلك لأن كثيرا من أصحاب الفضل على الإنسانية ، وأكثر كبار الفنانين والمفكرين ، وأكثر المبشرين بالمدنية ممن لا تذكر أسماؤهم من غير شك ، أكثر هؤلاء لم يبرروا وجودهم فى أعين أغلب معاصريهم . إن عصرهم لم يستطع — على وجه العموم — أن يقدر خدماتهم . ولم يمكنهم من البقاء سوى وجود طبقة متفرغة كانوا ينتمون إليها أو وجدوا من بين أفرادها من يرعاهم . ومن ثم كان وجود طبقة متفرغة مستقلة تمام الاستقلال ليس عليها أى التزام ، الشرط الأول ، لا للمدنية فحسب ، ولكن لأى مجتمع له نوع من الكرامة . إن أعلى الأمور قيمة وأشدها مشقة لا يؤدى بالإرغام ، بل ولا يؤدى بدافع من الاحساس بالواجب . ولكنك إن خلقت طبقة لا تتطلب منها شيئا ، فكن على يقين أنه سيخرج من بينها أولئك الذين يقدمون لنا الكثير .

وأرجو ألا تحسب تلك الفئة التى تتقاضى أجوراً مرتفعة من هذه الطبقة المتفرغة . فإن أولئك الذين يكسبون الألوف العديدة من الأموال كل عام عن طريق تجارتهم ، أو مهنتهم ، أو خدماتهم ، لا يفضلون فى شيء العبيد الذين تغدق عليهم الأجور . وهنالك بطبيعة الحال لهذه القاعدة استثناء ، ولكن هؤلاء الذين يشذون عن القاعدة يصبحون — عادة — بطبيعة حياتهم عاجزين عن بلوغ كمال المدنية شأنهم فى ذلك شأن العامل اليدوى الذى يعجز كذلك بطبيعة عمله . والواقع أنه إذا

ما أمسى من أولئك الذين يطلق عليهم « قادة الصناعة» أو « كبار مستخدمى العمال» فانه كسيد يكون أقل مكانة من الرجل العادى . لأن مستخدم العمال، والصانع الكبير ، بل والصانع الصغير ، يميل — فى هذا الشأن — إلى اكتساب شهوة الحكم . والاعتقاد فى النجاح كمعيار للقيم ، وإحساس بأهمية ما يقوم به من عمل ، مما يباعد بصفة خاصة بينه وبين التفكير الواضح والشعور الدقيق . ومن ظريف التعليقات على التفكير السياسى الحديث أننا نميز فى فرض الضريبة بين الدخل المكتسب والمال غير المكتسب ، ونؤثر الأول فى المعاملة . إن الرجل الذى يكتسب ماله يستعمله عادة وسيلة للاستزادة منه ، ووسيلة للنفوذ ، والاعتبار ، والتظاهر ، والملذات الحيوانية والمتع البربرية . يجب أن تبحث عن تلك الطبقة المتفرغة التى تستخدم المال وسيلة للخير بين أولئك الذين يتناولون دخلا غير مكتسب . إن الرجل الذى يكسب المال يميل إلى الجود ، وقسوة القلب ، وضيق الأفق ، وانقباض النفس . إنه يتمسك بما يحصل عليه فى عنوة وشراسة ، ولا يكف عن محاولة الاستزادة . إن أكثر نظريات الحرية والاشتراكية والثورة صدرت عن الرجال المتفرغين ، بل عنهم كذلك صدر ذلك التشكك فى حق الفرد فى الملكية أو النفوذ الذى يكاد اليوم أن يكون صفة من صفات الثقافة . وقلما يكون للدخل المكتسب أى نفع كبير لغير صاحبه — وهو كذلك كرأس مال مجرد فى يد الدولة . فى حين أن جانبا كبيرا من الدخل غير المكتسب كان دائما يخصص لعول أولئك الذين يقدمون للبشرية أكبر الفوائد من عملهم الذى لا يعود عليهم بالربح الوافر . فإذا كان

المبدأ الأساسي فى فرض الضرائب هو امتصاص دخل الطبقة المتفرغة لمصلحة كاسبي الأجور — صغارا كانوا أو كبارآ — فإنما يدل ذلك على أن العصر ناقص المدنية .

يشير رينان فى مقال شهير له — بما يدلى من أسباب مقنعة كعادته — إلى أن الوظيفة الحقيقية للطبقة المتفرغة هى أن تبتعد عن مجرى الأمور وتكرس نفسها للاحتفاظ بالمعايير السليمة وذلك بتضحيتهم بالنافع فى سبيل الحسن ، وبمحافظتهم على كرامة ما فى الحياة من أمور رقيقة عسيرة المنال. الطبقة المتفرغة التى تشب على عادة الاستقلال ، هى فى رأيه شرط ملازم للمدنية . وإنى بطبيعة الحال إلى هذا الحد أتفق معه : غير أنه فى رأيى لا يقف على أرض صلبة حينما يخلص من ذلك — تلميحا لا تصريحا — إلى أن الطبقة المتفرغة — إن كان لا بد من بقائها — يجب أن تحكم . ولست أرى لذلك ضرورة . بل على العكس من ذلك يبدو لى من العسير إن لم يكن من المستحيل لأى إنسان يشغله السلطان مباشرة وبدرجة قصوى أن يكون كامل المدنية . أليس من تناقض العبارة أن تقول « الطبقة الحاكمة المتفرغة » ؟ إنى أرجح إن ما كان بذهن رينان أرستقراطية تنقسم قسمين : طبقة متفرغة وطبقة حاكمة ، تنشآن على تقاليد واحدة ، وتختلطان فى كل موقف من المواقف . وليس من شك فى أن هذه الطبقة تؤدى إلى المدنية ، فهى تمهد السبيل لقيام طبقة متفرغة وأخرى حاكمة تعطف عليها . وقد كانت فرنسا تقوم على هذا النظام خلال المائة وثلاثين عاما من مدنيتها العالية — بالرغم من أن لويس الرابع عشر قد استمد أكثر رجال إدارته من طبقة لم تكن نبيلة إصطلاحا.

ويمكننا بسهولة أن نقسم الارستقرطية إلى طبقة عاملة وطبقة مفكرة . والطبقة الأخيرة هي التي تمدنا بالمدنية ، وأما الأولى فتمدنا بالحكومة . بيد أنه مما يفتقر إلى إثبات أن يكون الارستقراط العاملون خير الحكام — ولست أقطع فى هذا برأى يؤيد أن يعارض . ومن الواضح أنه يجدر بالفئة التى تنشر المدنية ألا تكون لها كلمة فى الحكم . ما دامت السلطة — كما رأينا — يحتمل أن تعبث بقدرات المرء الدقيقة . وهناك من ناحية أخرى خطر ارتآه رينان من أنه مالم يكن للحكام تقاليد ومعتقدات وتعاطف ومصالح مادية يشتركون فيها مع ناشرى المدنية ، فإن الإنسان بحقده وغبائه ، — وفى ثورته على هذا الاعتراف العام المكشّف بالتفرقة بين الناس — يرفض أن يقيم أود الطبقة المتفرغة ، فيسمح للمجتمع أن ينزلق إلى الهمجية التى يتساوى فيها الجمع ويحكم فيها الجميع . ومن ثم ينشأ هذا السؤال : أى أنواع الحكم أكثر ملاءمة للمدنية ؟ وهو سؤال تكاد أن تستحيل إجابته .

إن أى نظام للحكم قد يكون ملائما بشرط أن يمد عددا كافيا من الأطفال بالتعليم الحر الكامل من جميع الوجوه ، وبشرط الإنفاق على هؤلاء الأطفال طوال حياتهم ، وأن تضمن لهم دخلا يكفى حاجاتهم الثقافية ، وبشرط — قبل كل شيء آخر — ألا تطلب اليهم أداء أى عمل . إن القول بأن ما نسميه : « النظم الحرة » ضرورى للمدنية ، قول يناقضه العقل والتاريخ . فإننا نعلم أن مدنية النهضة قد أينعت وأثمرت فى عصر الطغاة — ولست فى حاجة إلى أن أذكر فى هذا الصدد شيئا عن الشرق — عن الصين والفرس ، فقد اتفقت معكم على ألا أذكر عنهما شيئا . لأن « العجز السياسى » — كما يلاحظ بركهارت بحكمة فى

كتاباته عن الطغاة الطليان « لا يعوق الميول المختلفة ومظاهر الحياة الخاصة عن الانتعاش بأقصى درجة من القوة والتنوع »[1] . ولكن حتى بعد أن تقرر الحكومة ، أيا كان نوعها ، أن تقيم أود طبقة متفرغة ، فإنه لابد لها من تقدير التكاليف وتوزيعها . يستحيل علينا أن نقدر بكم تماما يستطيع المرء — رجلا كان أو امرأة — أن يحافظ على مدنيته ، لأن التقدير يختلف باختلاف الظروف . لا أعتقد أن الشخص فى الظروف الراهنة يستطيع أن يفعل ذلك بأقل من سبعمائة أو ثمانمائة فى العام الواحد ، والدولة — بطبيعة الحال — هى المسئولة عن الأطفال . وكذلك يستحيل علينا أن نقدر أية نسبة من السكان يجب أن تبلغ ذروة المدنية كى تمدن بقية السكان إلى درجة معتدلة . كل ما يعرفه المرء أن النسبة فى انجلترا غير كافية . ويبدو أن الأمر يحتاج إلى إيضاح : إن مقدار الدخل غير المكتسب فى البلاد جسيم . وعدد المنتفعين به عديد . وقد يرجع أحد الأسباب إلى أن عددا ضخما من أولئك الذين يتناولون دخلا غير مكتسب — ويجب بناء على ذلك أن ينتموا إلى الطبقة المتفرغة الناشرة للمدنية — يؤثرون أن يضاعفوا دخلهم بالإنتاج ، ومن ثم فإنهم يصبحون — على أحسن الفروض — نصف متمدنين . وسبب آخر هو أن مقداراً كبيرا من الدخل غير المكتسب يحشر فى جيوب قليلة . هناك إذن إجراءان عمليان واضحان لابد منهما للنهوض بالثقافة البريطانية ، قانون يرغم الأغنياء على التعطل عن العمل ، وقانون يلغى تلك الظاهرة الشاذة البربرية ، وهى زيادة دخل الفرد عن ثلاثة آلاف جنيه فى العام .

---

(١) النهضة لبروكارت — الجزء الأول — صفحة ١٨٤ .

وقد تكون هذه نصيحة سياسية طيبة ، غير أنى أخشى ألا تقربنا كثيرا إلى الإجابة عن سؤالنا هذا : أى نوع من أنواع الحكومة يكون أكثر ملاءمة للمدنية ؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال ونحن واثقون ينبغى أن نوجه أولا سؤالا آخر ، سؤالا سيكلوجيا : لما كانت الطبيعة البشرية على ما نعلم من حقد وارتياب ، فهل يعقل أن يعول الناس بمحض إرادتهم وبعيون متفتحة — من أجل الخير الروحى ، ولكن بما يبهظهم ماديا — هل يعولون جماعة من الناس المتفوقين فى المدنية يكون لها امتياز خاص ، ولكنها فى ظاهر الأمر عاطلة عن العمل سعيدة ؟ لا يستطيع إلا رجال السياسة وضباط البوليس أن يذكر على وجه التأكيد ما تستطيعه ومالا تستطيعه الطبيعة البشرية ، ولهؤلاء أترك هذا الواجب راضيا . ولكنى أعرف أمرا واحدا : ذلك أنه مالم يكن الناس قادرين على بذل هذا السخاء المستنير ، فان الديمقراطية لا يمكن أن تتفق والمدنية .

لم تكن هناك قط ديمقراطية متمدنة ، ولكن من الحق كذلك أنه حتى القرن العشرين لم تقم فى العالم ديمقراطية . أما فيما نسميه ديمقراطية فى اليونان وإيطاليا فلم تكن سوى طبقة صغيرة ممتازة هى التى تمارس السلطة . وبرغم ذلك ، ولأنه كانت هناك خلال القرن التاسع عشر حركة مطردة نحو الديمقراطية — ولو أن جميع السكان البالغين فى أى بلد من البلاد لم يظفروا حتى القرن العشرين من النفوذ السياسى بالقدر الذى يهيىء السبيل له نظام التصوت — برغم ما ذكرت ، ومن أجل ذلك ، فانى لو كتبت هذه المقالة عقب تخطيطها مباشرة — منذ عشرين عاما —

لقلت إن مناقشة مستقبل المدنية فى ظل أى لون من ألوان الحكم غير الديمقراطية
عمل علمى بحت ربما لا يعود بأى نفع . غير أن الحرب قد غيرت كل
ذلك . إن الحرب — وما استتبعته من كوارث — قد أثبتت لأبناء هذا
الجيل تلك الحقيقة المرة ، وهى أن الاستبداد الحربى صورة من صور
الحكم لا زالت ممكنة ، بل إنها محتملة خلال الخمسين سنة المقبلة . ذكرتنا
الحرب أن المصدر الحقيقى للسلطان لم يزل كما كان فى الماضى : لا إرادة
الشعب ، ولكن هيئة من الناس كاملة التسليح والنظام يمكن أن يوكل
إليها تنفيذ أوامر الضباط دون تساؤل . وفى الفترات التى تتوفر فيها
الراحة — كما حدث فى أخريات القرن التاسع عشر — يميل المرء إلى
التغاضى عن هذه الحقيقة ، لأنه قلما ينشأ فى أمثال هذه الفترات موقف
يعقد الناس فيه العزم على أن ينفذوا إرادتهم بأكملها بأى ثمن . فإن بين
ما يحتاج زيد من الناس وما يؤثر عمرو فى فترات الهدوء مجال لضروب
لا تنتهى من التسوية والتوفيق ، ولكن بجمال الحرب العظمى — كما
عرضه ساسة الحلفاء — ينحصر فى أن التوفيق أمر لا يجوز التفكير
فيه . ومن ثم فإنى أعتقد أن ساسة الحلفاء يجب أن يكونوا أقل دهشة
مما يبدو عليهم حينما يجدون أن عددا كبيرا من الناس قد أدرك أخيرا
أنك إن أردت أن تفرض إرادتك بأكملها على غيرك من الناس ، فإن
الطريق إلى ذلك هو أن تحمل الآخرين على أن يدركوا أن الأمر إما
أن يكون طاعة عمياء أو عذابا وموتا . الحرب أقرت فى نفس كل امرىء
ما عرفه الفلاسفة السياسيون فى جميع العصور السالفة ، وهو أن أقوى
حجة هى الخوف والقوة . أولئك الذين يستولون على أعظم قسط من

القوة ويستطيعون بث الرعب الشامل فى نفوس الآخرين يمكنهم دائما — إن أرادوا — أن يحكموا .

وقد رأينا الألوف من الرجال — طبقا لقانون الخدمة العسكرية — ينزعون من بيوتهم ومن أعمالهم وملاهيهم ، ويدفعون إلى حياة يمقتونها يعقبها بعد وقت قصير موت يخشونه . وقد التحقوا بالجيش للأسباب عينها التى يدخل من أجلها الغنم المذابح . وأطاعوا لأنهم كانوا يخشون العصيان . وكان الأمر كذلك فى كل البلدان المحاربة التى كان التجنيد فيها إجباريا . ولم أقابل قط رجلا أرغم على الالتحاق بالجيش خلال العامين الأخيرين من الحرب لم يقرّ بأن الدافع الوحيد له إلى القتال هو خوفه من الامتناع عنه . وعلى أية حال ، فما إن حل عام ١٩١٧ حتى فقدت القضايا التى كان يحارب من أجلها الجندى العادى كل معنى لها . فإن صدر إليه الأمر أن يتقدم إلى نيران الأتون المقدس الذى كانت تضحى عنده الأطفال (نيران ملوك Moloch) بدلا من أن يتقدم ضد عدوه ، كان الأمر لديه سواء . ولو أن هؤلاء الضحايا المروّعون نودوا فى تلك السنين من بين صفوفهم لخدمة الالـه — وقد نودوا فعلا لذلك — لأدوا ما عهد إليهم من واجبات . وإذن فالحكومة المركزية — التى تعتمد صراحة على الصحافة الموجّهة ، وعلى المحاكم العسكرية ، وذلك الفزع الذى تبعثه فى النفوس المحاكمات وأحكام الإعدام — الحكومة المركزية التى تملك النفوذ الذى يحمل الرجال على أداء ذلك ، تحمل أيضا النفوذ الذى يحملهم على أداء أى شيء — وقد وجد فى روسيا وفى إيطاليا وفى

غيرهما من البلدان عدد من الحكام ذوى البصائر النافذة الذين أدركوا هذه الحقيقة .

إن أصدق أصدقاء البلشفية لا يزعمون أنها تقوم على أساس من الرأى العام والعطف . كما أن شعبية الفاشية أمر يبعث على الشك . ومع ذلك فالحكومة الروسية والحكومة الإيطالية تستطيع أن تمنع الإضراب وترغم العمال العصاة على الإنتاج، وهو ما لا تستطيعه أية حكومة ديمقراطية . إنها تستطيع ذلك لأن لنين وموسولينى يملكان الجرأة على تنظيم الحرس البريتورى واستخدامهم دوما استخداما معقولا . وإن النجاح الذى على أساسه أقامت قلة من الرجال القادرين من ذوى العزم والتصميم السلطان المطلق فى روسيا وفى إيطاليا — وما يزالون يمارسون هذا السلطان — هذا النجاح لا بد أن يثير الحقد ويجتذب خيال الحكام فى البلدان الأخرى ممن لم يصيبوا مثل هذا الحظ . ومن الممكن أن يُحتذى فى العالم أجمع مثالهم بأية طريقة من الطرق . ولست أعرف أن المدنية تفقد شيئا من قيمتها فى نهاية الأمر من جراء هذا التبديل . فإن الثورة فى أول مراحلها قد تكون هدامة ، لأن الطبقة الصغيرة المتفرغة التى تنشر المدنية هى عادة أول من يهلك . ومن الطبيعى أن من يبقى من المجاهدين يحس إحساسا قويا بهاتين الحقيقتين . أولاهما أنهم متمدنون ، وثانيتهما أن الدمار قد لحق بهم . فنراهم لهذا يشكون مر الشكوى من وحشية النظام الجديد . ومهما يكن ما تنتهى إليه التجربة فيما بعد ، فإن نتائجها المباشرة سيئة بالنسبة إليهم . وهؤلاء المنبوذون المحطمون المجردون من تراثهم لا يمكن أن نتوقع منهم أن ينظروا إلى الموضوع نظرة فلسفية ، أما

نحن الذين لم يمسسنا سوء تقريباً فليس بوسعنا — إن كنا حقاً على شىء من المدنية — أن ننظر إلى الموضوع من وجهة نظر أخرى . وعند النظر إلى الموضوع نظرة فلسفية لا نملك إلا أن نعترف بأنه ليس هناك مبرر قوى يحملنا على الاعتقاد بأن الاستبداد العسكرى الروسى سيسير فى اتجاهات تختلف كثيراعن الاتجاهات التى سارت فيهاحكومات أخرى عسكريةمستبدة . ويبدو أن إعادة تنظيم الطغمة الحاكمة هو النتيجة المحتمة للثورة فى نهاية الأمر . فإن رأس الدولة — سواء كان أغسطس أو لنين أو موسولينى أو نابليون — لابد له لكى يحكم ويدير أن يجمع حوله جماعة من الزعماء المدنيين والعسكريين . ولهؤلاء نفوذ ورغبات ، وما يرغبون فيه هو بعينهما كان يستمتع به المنبوذون والمحكوم عليهم بالإعدام . ولما كان لديهم من النفوذ ما يمكنهم من إشباع رغباتهم ، فلا مفر من أن يشبعوها ، وتنشأ طبقة جديدة من الملاك ، تتفرع منهم الطبقة المتفرغة ، ومن هؤلاء قد تنبثق مدنية جديدة .

ويحتمل جداً أن تتم العودة من الرحلة عن طريق أقصر . قل من الأمور ما تشتهيه الحكومةالناشئة أكثر من الجاه . وباستثناء السلطان الحربى ليس هناك ما يضفى عليها تلك الجاذبية الغامضة ما هو أنصع من الثقافة (ولنذكر عرضا أن تكاليف الإنفاق على الثقافة الرفيعة لا تقاس إلى ما ينفق على بضع حملات صغيرة) ومن أجل هذا كان من أولى الأمور التى تشغل أذهان أكثر الطغاة الغاصبين رعاية الفنون والعلوم وتشجيع نمو الجماعة المثقفة . ومثل نابليون الأول ونابليون الثالث ماثل فى جميع الأذهان ، وأكثر الأذهان تعلق بها ذكرى عصر

أغسطس وزعيمه الذى منحه هذا الإسم التاريخى . إن تلك المدنية التى حققتها روما ، إنما حققتها تحت حكم الأباطرة الأوائل ، ومن بين هؤلاء كان أكفأهم — كوسيلة من الوسائل — ذلك الحاكم العسكرى المستبد النموذجى هادريان . ويظهر أن كبار الغزاة ، كورش والاسكندر وشرلمان وتيمور وأكبر ، كانوا جميعاً يتعالون بإيمانهم بالثقافة . ولم يكن الأمر يقتضى إلا فترة يسيرة من النضوج حتى يحقق خلفاء جنكيزخان ما حققه الأمراء الرومان ، أو أن يبلغوا ما بلغه مديشى فى حكم الامبراطورية الرومانية . ومن المؤكد أن العذوبة والضياء كثيراً ما شعت من بلاط الطغاة والغاصبين ، لأن الحكام — وإن كانوا لا يستطيعون أن يخدموا الفنانين المبدعين خدمة مباشرة أكثر من توفير النظام والأمن لهم ثم يتركون حبلهم بعد ذلك على غاربه — بوسعهم أن يقدموا للمدنية خدمة كبرى . فهم يستطيعون أن ينعموا على طبقة تنشر المدنية ويدفعوا عنها . ومن أجل هذا أفكر فى إرسال نسخ من هذا المقال للرؤساء الروس ، وللسنيور موسولينى وللمستر ونستن تشرشل .

إنى لا أحب الاستبداد ، فليس فيه خير أو جمال . بيد أنى أدهش لتفاهة أولئك القوم الجادين الذين يفترضون — دون أن يفكروا فى الأمر لحظة — إنه لا يمكن أن يكون وسيلة للخير ، وإذا كان الاستبداد وما يلازمه من استرقاق دائماً وفى وقت من الأوقات وسيلة للخير الأعظم — أى إلى الذروة من حالات العقل الطيبة — فلست أعتقد إلا أن الأشرار من الرجال هم الذين ينفرون من استخدام الاستبداد والرق . والواقع أنما يميل أولئك المحبون للانسانية الذين لا يفكرون — إن ما يميلون

إلى القول به هو أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون خيراً، ولا يمكن لمدنية أن تكون جديرة بهذا الاسم ، مالم تقم على أساس من الحرية والعدالة والديمقراطية ، إلى آخر ذلك . إنهم يجعلون هذه الصفات غايات فى حد ذاتها ، فيضعون أنفسهم موضعا يثير الضحك ، لأن الديمقراطية والعدالة وما إليهما ليست لها قيمة إلا كوسائل . إن العالم الذى تسوده الحرية الشاملة أو العدالة الكاملة ولا يتصف بشيء غير ذلك يكون فى تفاهة العالم الذى يتلون كله باللون القرنفلى أو اللون الأزرق . ولكى نحكم على مدنية من المدنيات بالتجرد من المزايا لا يكفى أن نبين أنها تقوم على الرق أو الظلم ، بل ينبغى أن نبين أن الحرية والعدالة لا بد أن يتمخضا عن شيء أفضل من هذا .

إذا تساوت جميع الظروف فإنى أفضل مدنية تقوم على الحرية والعدالة ، من ناحية لأنه يبدو لى أن وجود الرقيق قد يكون هادما لتلك الطبقة الممتازة نفسها التى تنبثق منها المدنية ، ومن ناحية أخرى ، لأن العبيد إذا انحطوا إلى درجة كبرى يصبحون عاجزين عن تقبل أدنى لون من الألوان التى تحاول الطبقة الممتازة أن تضفيه عليهم . إن الرجل الحساس الذكى لا يسعه إلا أن يدرك الظروف الاجتماعية التى يتعين عليه أن يعيش فيها ، فإن أدرك أن المجتمع يتوقف فى وجوده على رقيق غير طائع فلا بد أن يعود عليه ذلك بإحدى نتيجتين : إما إحساس بالقلق ، أو برودة تامة . وإنه ليبدو لى أن الفتور العقلى الذى يؤدى إما إلى الانصراف عن جانب من جوانب الحياة الهامة أو إلى جمود العقل ، لا بد أن ينتهى بانخفاض قيمة الإنسان المتمدن كغاية وإضعاف كفاءته كوسيلة .

وأنا أعلم أن أحسن الآراء الدينية لا تتفق معى فى هذا ، فإن قداسة لا تكمل دون تلك النشوة التى تصدر عن التأمل فى آلام الآثمين . وكان القديس أغسطين يؤمن بأن من الشر المطلق عند النخبة المختارة أن تشفق على من يلحق بهم غضب الله . ولكن معدتى أضعف من معدة الأسقف : وإنه ليزعج فؤادى فى الواقع أن أضطر إلى إلقاء اللوم على الطاهى . ومن ثم فإنى أوثر ديمقراطية اجتماعية تسند وسائل المدنية من تلقاء نفسها على حكم الاستبداد الذى يكفل وجود طبقة متمدنة بتنظيم الرق ، وعلى حكومة الأغنياء التى تخشى أن تعرض مصالحها للخطر فتلق على زملائهم فى المدنية درعا واقيا من رجال الشرطة لحمايتهم . بيد أن الديمقراطية المستنيرة التى أوثرها لم نسمع بها بعد .

إن كل المدنيات التى سمعنا بها فرضتها إما إرادة حاكم مستبد أو سندتها أوليجاركية حاكمة . وما نطلق عليه خطأ اسم « الديمقراطية الإثينية » كان أوليجاركية تعتمد على الرقيق فى وسائلها للمدنية . ففى اتكا — ويبلغ سكانها زهاء نصف مليون — يقدر العلماء أن من كان له حق التصويت أو ممارسة السلطان على أى لون من الألوان لم يزيدوا عن اثنين وعشرين ألفا : وإذا أضفنا إلى هؤلاء المواليد الأحرار من النساء والأطفال ، كان عدد الأثينيين الأحرار زهاء مائة وخمسين ألفا . ومن بين الرقيق الذين كانوا هناك أقل شقاء منهم فى أى مكان آخر عدد كبير من الصناع المهرة يؤجرهم أصحابهم ، وكثيرون آخرون كانوا يخدمون فى البيوت . ويبدو أن هؤلاء كان يحسن استخدامهم ويستمتعون ببعض فوائد الثقافة الأثينية . كانوا يرودون المسارح . وإذا كانوا يقدرون هذه المزية فلابد أنهم كانوا يفوقون أبناء العامة فى مدارسنا الإلزامية

ذوقا وذكاء وتربية . ولو لم تنشب حرب بلبونيز ، بل لو أنها انتهت عند صلح نكياس ، لكان من المحتمل أن يكتسب هؤلاء العبيد المتفوقون تدريجا حقوق المواطنين . ولكننا نستطيع أن نؤكد أنهم كانوا يبقون عبيدا ، إذا قصدنا بالعبد ذلك الرجل الذى يحرم النفوذ السياسى ويرغم على العمل للآخرين . ودون هؤلاء الخدم المهرة المتعلمون نجد قطيعا من الحيوانات البشرية التى تحمل الأثقال . ويمكننا بالتأكيد أن نستبدل الآلات بهؤلاء فى هذا القرن العشرين .

ومن ثم ترون الجهل الذى يطبق على أولئك الذين يزعمون أنهم سياسيون مثقفون ، الذين يوردون أثينا مثالا للمدنية التى تقوم على الحرية والعدالة والديمقراطية . إن ما يستطيعون الإصرار عليه بصورة مجدية هو وجود المساواة الاجتماعية والسياسية التامة ، والمساواة المالية التى تكاد أن تكون تامة ، بين أفراد الطبقة المالكة المتمدنة — أو فى الواقع بين المواطنين . ويخيل إلى الناظر لأول وهلة أن طبقة المواطنين هذه تشبه فى الكثير تلك الديمقراطية الاجتماعية المتمدنة التى داعبت طويلا أحلام كثير من أفذاذ الرجال . فى ظل هذا النظام تجد طبقة تعيش إلى حد كبير على كسب غيرهم ، ويعيش جانب كبير منها أساسا — لا كلية — من أجل الأمور العقلية والملذات الدقيقة الرائعة . من بين هؤلاء يتيسر لنا أن نجد نواة ناشرى المدنية ، كهان وكاهنات الثقافة الكبار ، تليهم مباشرة كتلة المواطنين المشربين تماما بروحهم إلى درجة لا تبعدهم كثيرا عنهم . وبقى أن توحد الثقافة بين الطبقة العليا من العبيد ، وهذه الطبقة الدنيا من المواطنين .

وبالنسبة إلينا — نحن أبناء القرن العشرين ، المحصنين بالمكتشفات العلمية والمخترعات التى تمت خلال القرنين السابقين — لا يحتاج الوصل بين هاتين الطبقتين إلى وثبة بعيدة الاحتمال . فما الذى يمنع إذن مجتمعا حديثا من التمدن ؟ والجواب على ذلك لا يحتاج إلى تفكير . كانت أثينا ممكنة لأن الأثينيين كانوا يحبون أن يتمدنوا ، ولم تشته « الحياة الطيبة » الطبقة المتفرغة فحسب ، بل كان كذلك يشتهيها الصناع والعاملون . أما فى انجلترا فلا يزال لدينا الدخل غير المكتسب الذى يعول طبقة ضخمة من المتفرغين . وقد حقق المنتجون لأنفسهم — بتوجيه من المفكرين المتمدنين — قسطا كبيرا من الأمن والطمأنينة ، ولكن الأكثرية من الطبقة التى كان ينبغى أن تكون النواة الصغيرة التى تنشر المدنية ، هذه الأكثرية تؤثر أن تتبربر بالعمل المكسب الذى يهدم الروح وبالملذات التى تتصف بالخشونة ، فى حين أن الصناع والعمال يكرسون مالهم الذى اكتسبوه حديثا للانفاق فى سبيل محاكاة هؤلاء .

إن خير العقول تتجه نحو أثينا دائما تلتمس عندها قبسا من الأمل . ومن ثم يجدر بنا أن نذكر أن أثينا كانت أوليجاركية كبرى ، وأن جميع المواطنين من الذكور البالغين كانوا متساويين سياسيا واجتماعيا ، وأنه لم يكن بين المواطنين فقير مدقع ، وقل من كان ثريا ، وإن النساء لم يكن جميعا من الرقيق ، وإن لم يكن لهن حق التصويت . إن مركز المرأة — فى أثينا خاصة — وفى المدنية عامة لا يمكن إغفاله ونحن بصدد البحث فى وسائل المدنية ، لأن النساء — بطرق واضحة وأخرى خفية — من وسائل المدنية . حقا لقد كانت الزوجة الإثينية العادية تعامل إلى حد كبير

كأنها رقيق له احترام كبير ، وكان ذلك طبيعيا ، لأن الزوجية رق .
وفى هذا — كما فى غيره من كثير من الأمور — كان الإثينيون يحاولون
أن يروا الأشياء كما هى . كانوا يواجهون الحقائق ويشحذون الذهن
لمعالجتها ، فشيدوا بذلك مدنية تتقدم على كل ما سبقها وما لحقها . إننا
نعترف عادة أن المرأة فى الحياة المعاصرة فى مركز لا يرضى . لقد ظفرن
بحق التصويت ، وبدأن يكتشفن قيمة هذه المنحة التى اكتسبنها بشق
الأنفس . إلا أنهن ما زلن فى موقف لا يحسدن عليه . وسوف يلزمنه
حتى يتساوى عمل الأم والزوجة تماما مع عمل الميكانيكى والمحامى . لأن
الزوجة عاملة ، وكان يُعترف للزوجة الإثينية بهذا الوضع . وكانت تعامل
بالاحترام الذى يستحقه كل عامل مخلص كفء . ولكنها لم تنتم إلى
الطبقة الممتازة المتمدنة التى تنشر المدنية ، لأنها لم تستطع ذلك بطبيعة
مصالحها وأعمالها . وكان الإثينيون يقررون لها أهميتها ، ولكنهم كانوا
كذلك يقدرون أهمية المرأة المتقدمة فى المدنية — كانوا يقررون أهميتها
كوسيلة من وسائل المدنية . كانوا يدركون أن المدنية إذا خلت من
وجهة النظر النسوية ومن الاستجابة النسائية ، وإذا خلت من الذوق
النسوى ، وبصر المرأة ، وإلهامها ، وفطنتها ، ودقتها ، وإخلاصها ،
وعنادها ، وريبتها ، إذا خلت من ذلك كانت مدنيـة ناقصة عرجاء .
ولوجود هذا العنصر النسوى اعتمد الإثينيون على نظام الهتيرا (المحظيات) .
أو هكذا على الأقل أدرك الموضوع . هناك خرافة سائدة : نشرها فيما
أظن بعض أساتذة الجامعات ، إن الحياة فى أثينا كانت تشبه الحياة فى
كلية أو فى دير ، لا تلعب فيها المرأة دورا ، أو تلعب دورا تافها . وكل

ما أستطيع أن أقوله لهؤلاء الأساتذة المسنين أنهم قرأوا الآداب القديمة قراءة جزئية ، وأحب أن أوجه أنظارهم أولا إلى كتب « بكر » التى بدأت تختفى ، ثم إلى الثقاة الذين ورد ذكرهم فى هذه الكتب . ويقينى أن أكثر من كتب من المحدثين عن المجتمع القديم يظهر أنهم رجعوا إلى « بكر » واطلعوا فيه على قائمة بأسماء الثقاة ، ولم يفعلوا أكثر من ذلك. وأرجوا أن يتابعوا بحوثهم ، لأن هؤلاء الثقاة سوف يدلونهم على الأقل على الدور العظيم الذى لعبته طبقة خاصة من السيدات العصريات .

. . . .

لو كنت حاكما مستبدا لتنازلت عن حكمى فورا . ولكنى لو ورثت مع السلطان تذوقا لفعل الخير ، لوجهت أطماعى نحو نشر المدنية . وكخطوة أولى فى هذا السبيل أقيم طبقة متفرغة وأمنحها المزايا ، على ألا يتناول أى عضو من أعضائها أكثر مما يكفيه . كما أنى أجعل من المستحيل على كل فرد من أفراد هذه الطبقة ـ رجلا كان أو امرأة ـ أن يضاعف دخله بأية وسيلة من الوسائل . ويهمنى بعد ذلك أن أنظم المجتمع بحيث يتوفر للطبقة الدنيا ، طبقة العمال ، قدر كاف من الفراغ وراحة العيش يمكنهم من الإفادة من وجود طبقة المتفرغين . ولابد أن أوفر للطبقة الممتازة تربية كاملة وكل وسائل الثقافة المعروفة ، وأن أوفر لبقية أفراد المجتمع من التعليم ومن فرص الاستمتاع بما يهيئه التعليم بقدر ما تسمح به خزانتى .

ولكى أهيىء الوسائل لفراغ مجموع الشعب وراحته أتطلع مستبشراً فى اتجاهين : أتطلع إلى المخترعات ، التى تمكن رجلا واحدا يشرف على

آلة من الآلات من أن يؤدى ما يقوم به مائة من الرجال من خدمات، وأتطلع كذلك إلى الإقلال من السكان . وقد تقدمنا كثيرا فى ناحية توفير العمل ، إلا أن الثروة التى نجمت عن ذلك لم تخصص فى أكثر الأحيان لتزجية الفراغ ، وإنما خصصت ـ إلى حد كبير ـ لمضاعفة الثراء ، ولإشعال الحرب ، وصنع السلاح ، وللمتع الدنيا (مثل دور الصور المتحركة ، والجولف ، والسيارات ، وسباق الكلاب ، وكرة القدم) وتربية الأطفال . وسوف يزداد عدد السكان ، إذ أن العلم عندنا يعطيهم آلة يستطيع المرء أن يؤدى بها عمل مائة رجل ، فإن المائة بأسرها ، تستطيع ـ دون أن تهوى فى مستوى العيش ـ أن توفر لنفسها وقتا أوسع . بيد أنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك تراهم ينجبون تسعة وتسعين طفلا يستهلكون الفائض ، ويبقون هم فى مكانهم لا يتزحزحون، أى فى حالة من الهمجية الشاقة . وقد سمعت بعض الخبراء يقول إن ثروة العالم حتى فى الوقت الحاضر يمكن — لو نظم الإنتاج تنظيما يقوم على العقل — أن ينتجها نصف السكان ، ومعنى ذلك أننا لو نصّفنا عدد السكان استطاع كل امرىء أن يضاعف أجره أو دخله مرتين — ولكن الخبراء يؤكدون كل افتراض. وفى دولتى يُنفق نصف فائض الثروة الممكنة عن الحاجات المعقولة فى الرفاهية المادية — اللهو والسلع — ويُنفق النصف الآخر فى الفراغ . وعندما يقل عدد السكان إلى الحد الذى يوفق توفيقا طيبا بين الإنتاج والفراغ ، يثبت عدد السكان على ما وصل إليه . أما الأمر كما هو الآن فمؤداه أن كل اختراع جديد يعنى مجرد زيادة الإنتاج لكى يكفى زيادة السكان مع إضافة وسائل قليلة للراحة . وما دام ازدياد

السكان يلاحق المخترعات الجديدة فلن يفيد منها أحد شيئا . و تبقى المدنية — على الأقل — كما كانت دائما بعيدة المنال[1] .

وإنى لأعطى لرعيتى حرية كاملة فى التفكير والتعبير، كما أعطيهم حق إجراء ما يرون من تجارب فى حياتهم الخاصة ، ولكنى لن أعطيهم حرية كاملة فى العمل — لأن العمل لاعلاقة له بالمدنية ، فهى تتعلق بالحالات العقلية. وسيقع ذلك موقعا شديدا على أولئك البرابرة المنكودين الذين لا يستطيعون أن يعبروا عن أنفسهم إلا بالعمل . على هؤلاء أن يقنعوا بإلقاء الخطب ، والاشتراك فى اللجان ، ومحاولة إقناعنا — لا إرغامنا — بأداء ما يرغبون . وأستطيع أن أتخذ منهم رجال الشرطة . وفى دولتى أحبس اللصوص المطبوعين والسفاكين والفضوليين وأصحاب النزعة النابليونية والمتحمسين لتفسير القانون غير المكتوب . إن حرية العمل بغير قيد لا تتفق والمدنية. ففى العالم أناس يتدخلون فى شئون غيرهم ، متعصبين، شرهين ، مستهترين ، فى قلوبهم قسوة الحيوان ، لو أتيحت لهم الفرصة سلكوا مسلكا يجعل الحياة غير محتملة والمدنية مستحيلة . وفى دولتى لن تتاح الفرصة لهؤلاء . وربما تصور تولستوى عالما كل سكانه طيبون، فهو لا يحب أن يتدخل فى شأن أى فرد سواه ، عالم متطهر من الشراهة

---

(١) استطاع الاثينيون كعادتهم أن يجابهوا هذه الحقائق بشجاعة ، فعالجوا الأمر بتعريض الأطفال للموت ، وهو اجراء يتنافى مع ذوقنا فى العصر الحاضر . ومن ثم كان ازدياد المواليد فى أثينا يقابله ازدياد فى وفيات الأطفال . وقد جعل العلم هذه الوسائل العتيقة أمرا لا ضرورة منه ، أو لعل العلم كان يستطيع ذلك لو أن المعرفة العلمية امتدت الى منال أولئك الذين هم فى أشد الحاجة اليها .

والبغضاء ، والحقد والأطماع، عالم لو وجدفيه من يتصف بهذه الصفات فلن يعمل قط بدافع من ميوله الشريرة . والأرجح أن تولستوى كان يعتقد أن العالم لا يخلو قط من المتوحشين الذين يتصفون بالعنف والفضول والشراهة والحقد ، الذين يتبعون غرائزهم مهما بلغت سفالتها ، ولكنه لم يحسب لوجودهم حسابا ما دام الآخرون يحتفظون بطهارتهم ناصعة من غير سوء . يزعم تولستوى أن طهارة النفس يمكن الاحتفاظ بها إذا استسلم المرء استسلاما سلبياً وعن طيب خاطر . وبقاء طهارة النفس ممكن ، بل ممكن أيضاً أن تزيد أضعافا مضاعفة ، ولكن المدنية لابد أن تهلك ، إن عبد الهمجى الذى يعذب ويساق سوق الأغنام يمكن أن يكون قديسا أو رواقيا ، ولكنه لن يكون إنسانا متمدناً . إذ ينقصه الفراغ الذى لابد منه ، والأمن ، وفرص الحياة . ومن ثم كانت السيطرة على العمل ، التى تعنى قوة بوليسية قادرة — فيما يبدو لى — ضرورة فى كل مكان إلا فى مجتمع من الملائكة أو الحيوان — الحيوان الذى يهبط إلى درك لا أمل البتة فى انتشاله منه ، ولا يهمنا قط لذلك أن يسىء أحدهم إلى الآخر أو يتسلط عليه .

. . . .

ولا مناص للمتقدمين فى المدنية من أن يعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم . ومهما يكن إملاء العقل ، فإن حساسيتهم تجعل من المستحيل عليهم أن يكيلوا الضربات قاصدين أو أن يوقعوا العقوبات عامدين . إنهم لا يستطيعون البقاء مالم يعتقد زملاؤهم المواطنون أو السلطة الحاكمة — أيا كانت — فى ضرورة عونهم والدفاع عنهم . إذ أنه فى اللحظة التى يشرعون فيها فى الدفاع عن أنفسهم يفقدون كمالهم . ولم أنس

أن كل أثيني كان عرضة لاستدعائه للخدمة العسكرية . وكان ذلك السبب الأول فى عدم استقرار الثقافة الاثينية التى تدهورت تدريجا خلال الحرب، وربما هبطت فى نهاية الأمر إلى المستوى الأسبرطى لولا أن موقعة ايجوسبوتامى كانت نعمة عظيمة . وإذا كان التنظيم من أجل الدفاع يعبث بمدنية الدولة فكيف يكون أثره الهدام على إنسان حساس كالفرد المتقدم فى مدنيته . كان سقراط جنديا حسنا : بيد أن سقراط كان فيلسوفا إلى جانب أنه سقراط وحسب . وقد رمى هوارس درعه فى فلپى .

. . . .

أريد فى دولتى قوة بوليسية لحماية المدنية لا لكى تفرضها فرضا على الناس . فالمدنية لا يمكن أن تفرض بالقوة . ولو كانت تنحصر فى الإيمان ببعض الأفكار لاقتضى الأمر حشرها حشراً فى حلوق العازفين عنها . أما وهى تنحصر فى موقف معين من الحياة ، وفى طرق التفكير والشعور ، فيجب نشرها . إن من يريد أن ينشر المدنية بين زملائه يجب أن يسمح لهم بأن يكتشفوا بأنفسهم أن للحياة أسلوباً أفضل من أساليبهم : وهكذا كانت المدنيات العليا تنتشر دائماً . وكثيرا ما حدث فى التاريخ أن أمما همجية عرفت بالسلب والنهب بدأت زحفها وهى تؤمن بتفوقها من جميع الوجوه على الشعب المسالم الذى توشك أن تخضعه وتتمثله . كم مرة أعاد التاريخ نفسه ؟ إن بلاد الإغريق التى استولى عليها غزاة الرومان غزت هؤلاء الأجلاف ونقلت إلى سهل لايتوم الريفى فنون الحضارة .

يرى زعماء الغزاة أولا أن الشعوب المغلوبة تملك أسراراً يجهلونها

يقلبون بها ما يبدو لهم خبرة تافهة إلى متعة غزيرة . وسرعان ما يتأثر الملك الهمجى بنفوذ الثقافة الأعلى ويغرى بها فيبدأ فى الاعتماد فى لهوه — ثم فيما بعد فى مشورته —على النساء والرجال من العنصر «الأحط».
ثم سرعان ما يحتل هؤلاء — بسبب تفوقهم فى الإدراك والمعرفة — مكان الثقة والشرف والمنفعة ، حتى يصبح الملك فى النهاية نصف متمدن، ويتحول معه إلى المدنية الأذكياء من رفاقه القواد وكبار الإقطاعيين .
وفى هذه اللحظة بالذات تبدأ الطبقة الأقل ذكاء فى تذمرها ، ويزداد تمردها ، وتنظم معارضة رجعية . عندئذ يكون الملك — لحسن حظه — والزعماء والمرافقون له الذين تأثروا بمن يفضلونهم من الشعب المغلوب، يكون هؤلاء بدورهم قد علموا عددا كافيا من الحشد التابع لهم يقابلون به المدافعين القدامى عن الوحشية التقليدية. وهكذا تفعل الخبيرة فعلها :
لقد تمدن المغول الغزاة إلى درجة ما على يد الصينيين والفرس الذين غلبوهم. ولاقت جيوش العرب نفس هذا المصير فى فارس والهند ومصر.
وكذلك تمدن الفاتحون الميديون الأوائل فيما بين النهرين ، ونستطيع أن نراقب فى روما خلال القرن الأول النزاع بين سذاجة الرومان ومدنية الشرق المغلوب . فكاتو وتيبريوس لم يرتفعا إلى مستوى أوفيد وجوليلى، ومع ذلك فإنا نجد فى القرن الثانى شيئا أشبه بالحضارة مما كان يتوقع المرء صدوره بهذه السرعة عن الهمجية المظلمة التى خيمت على تلك الجمهورية المروعة . وقد بذل الزعماء حتى فى تلك الشعوب التى دخلت الامبراطورية واستوطنتها فى النهاية بعض الجهد — ولكنه جهد متأخر ضعيف — لكى يفيدوا من الثقافة الأعلى التى عرف بها الرومان الاقليميون . بيد أنهم فشلوا ، ويرجع السبب الأول فى ذلك إلى أن

الى أن رجال الأقاليم لم يكونوا متمدنين ولم يكن عددهم كافيا للقيام بهذه المهمة . ومن أجل هذا فلم يكتسب البرابرة سوى أهداب من الثقافة براقة يتزين بها بلاط شرلمان والملوك من بيت أوتو الذى يدعو إلى الرثاء . ولو أنهم تثقفوا ثقافة حقيقية لجنبوا أوربا العصور المظلمة .

وقد تنشأ وسائل المدنية ، وقد توجد الحكومة المحسنة التى تنفق على طبقة متفرغة مثقفة ، وتكفل الأمر ، وتبيح حرية التعبير فى الفن والفكر والحياة ، وتنهض بالتعليم وتحد من العمل ، ولكن يبقى أمر واحد لابد منه لكى تخرج المدنية إلى حيز الوجود. وذلك هو الإرادة — إرادة المدنية . وهى قد لاتعدو أن تكون الرغبة فى المتعة بعد تهذيبها وسيرها فى اتجاه ذهنى . ومن الحماقة أن نفترض أن هذه الرغبة عميقة الجذور بعيدة الغور فى الطبيعة الإنسانية ، وليس أقل من ذلك حماقة أن نعتقد أنها لم توجد قط . وإذا كانت إرادة المدنية لم توجد قط ، فكيف خرجت المدنية إلى الوجود ؟ هل كان ذلك بالحظ ؟ هل خرج الناس من فوضى الهمجية إلى نوع من أنواع النظام بالحظ؟ ولماذا يخرجون؟ إذا كانت هناك حالات قريبة من المدنية ، وإذا كانت هناك مدنيات رفيعة، أليس من الحماقة أن ننسب ذلك كله وما يتطلبه من مجهود جبار أليم إلى المصادفة ؟ ومن ناحية أخرى ، لما كانت المدنية فى بعض الأماكن لم تتقدم قط ، وفى أماكن أخرى ارتفعت عن مستوى التأخر لتغوص فيه ثانية ، وفى أماكن كثيرة نراها تقطع من الشوط بعضه ثم تعجز عن مواصلة المسير ، وقلما كان الدافع قويا مستمرا إلى درجة يتمكن بها من رفع المجتمع إلى مقربة من المثل الأعلى المتواضع المعقول ، إذا كان الأمر

كذلك فمن الحماقة أيضاً أن نفترض إن إرادة المدنية التى ذكرناها ظاهرة موحدة فى كل مكان ، ثابتة ، أساسية فى الطبيعةالبشرية . هناك أسباب عدة تحول دون اعتقادنا فى استمرار التقدم . وهناك كذلك أسباب عدة تحملنا على الاعتقاد بأن المستوى الحالى لما نسميه عامة بالمجتمعات المتمدنة ينخفض كثيرا عن الحد المطلوب . وليس هناك من الأسباب ما يدعونا إلى أن نفترض بأن المجتمع سوف يصل إلى هذا الحد أو يعلو عليه ، أو أنه لن يبلغه . كل ما نؤكده هو أن الناس لرغبتهم الدائمة فى الاستمتاع بالملذات ، يوجهون رغبتهم هذه أحيانا توجيها ذهنياً ، ويعتقدون أحياناً أخرى أن الملذات أندر وأبعد وأدق من تلك التى تسوق إليها الغرائز ، وإنهم أحيانا يحققون هذه الملذات . ومن الجلى أن المدنية لم تكن هدف ذلك الهمجى الذى أخذ الأرنب إلى بيته وطهاه . بيد أنه تصور واشتهى متعة أدق وأبعد من متعة التهامه نيئا . وهكذا نرى أن الناس بتصورهم واشتهائهم قد يحققون المدنية فى نهاية الأمر .

ليس من شك فى أن إرادة المدنية قد وجدت ، وأنها ربما لم تختف قط من الوجود ، ولكنها اختلفت من مكان إلى مكان ومن وقت إلى آخر اختلافا شديداً من حيث قوتها وكفايتها . وهذه الإرادة — من الوجهة النظرية — يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع إرادة الخير ، التى يزعم بعض الفلاسفة أنها موجودة دائما وأنها وجدت فى كل مكان . ومن سوء الحظ أنه من العسير أن نميز بين الغايات والوسائل حتى إن رجال الأخلاق العمليين يخطئون دائماً فيحسبون وسائل الخير العتيقة غير المباشرة الخير ذاته ، ومن ثم فإن إرادة الخير لا تعين إرادة المدنية

دائماً فحسب ، بل إنها تعرقل سيرها أحياناً عرقلة إيجابية . إن إرادة الخير كثيرا ما توجه نشاطها إلى ما كان فى وقت ما وسيلة بعيدة ، وهى بذلك تقف عقبة فى سبيل الوسائل المباشرة والقريبة . فى لحظة معينة من تاريخ أى مجتمع قد يكون شكل الحكومة ، أو الدين ، أو الناموس الخلقى ، وسيلة للخير وللمدنية . ولكنه بعد أن يؤدى غرضه بوقت طويل ، وبعدما يصبح أداة تعطيل بوقت طويل ، ترى كثيرا من دعاة الخير لا يزالون يكرسون حياتهم للإبقاء عليه . فقـــد كان الإصلاح البروتستنتى فى شمالى أوربا — من غير شك — وسيلة الخير بمقدار ما كان وسيلة لتطهير العالم من مجموعة من الخرافات . بيد أن هذه الوسيلة، التى بولغ فيها حتى أصبحت غاية من الغايات ، وأمست فى نهاية الأمر حركة بيوريتانية (تطهيرية) — تركز جهدها فى بعض العقائد الدينية والخلقية — وربما وقفت فى انجلترا عقبة وحائلا فى سبيل إرادة المدنية أكثر من أى شيء آخر . إن البيوريتان — برغم كل نواياهم الطيبة — أعداء الخير ، لأنهم يجعلون الاستمتاع بالحالات العقلية الطيبة أشق على أنفسهم وعلى غيرهم مما ينبغى . إنهم يعلقون على ما كان فى وقت من الأوقات وسيلة للخير أهمية لا تتعلق إلا بالغاية ، ثم يصرون على هذه الوسائل العتيقة فيعوقون بذلك انتشار الوسائل التى تفضلها فى تحقيق الأغراض لأنها أكثر منها ملاءمة . ومن ثم فان العفة التى ربما كانت من الفضائل فى عصر الحيوانية القصوى حينما كان القوم يخرجون للرعى وللغزو والنهب مسلحين ، وحينما كانوا لا يمتطون الدواب الاغتصاب النساء — هذه العفة لا يزال لها فى القرن العشرين من يصرون على أنها

وسيلة للخير تفضل مزايا عيادات الأطباء الشائعة التي تقوم بالتحكم في النسل . ولا يمكن الناس أن يأملوا في التفريق بين الغايات والوسائل أو بين الوسائل المباشرة والوسائل البعيدة إلا بعد أن يتكون لديهم إحساس بالقيم ، بشرط أن يكون ذلك في جو من التجرد العقلي . إن الوسائل غير المباشرة تختلف من عصر إلى عصر ومن قطر إلى آخر ، وقيمتها محدودة وموقوتة ، وتطبيقها محلي . وإلى أن يدرك هذه الحقيقة المحبون للخير فلا بد أن ينصرف جانب كبير من نشاطهم الخلق إلى الحث على وسائل تناقض ما يهدفون إليه من غايات . وتمسي إرادتهم للخير إرادة سيئة لتلك الوسيلة التي هي أدنى إليهم — وأعني بها المدنية .

ما أكثر ما في انجلترا من نشاط خلق أميل إلى وصفه بإرادة للخير منحرفة ، ولكن هل هناك إرادة للمدنية ؟ إن قدرا كافيا من الدخل غير المكتسب يعول عددا عديدا من العاطلين ، بيد أن هذا الدخل يساء انفاقه ، والعاطلون جاهلون ، ومن ثم فإن مجموعة المتمدنين في انجلترا المعاصرة — وإن كنت لا أشك أن بها بضعة آلاف بلغوا من رقي المدنية ما بلغه أي عدد فيما مضى — هذه المجموعة أصغر من أن تكون تلك النواة الفعالة التي تحول الثقافة السلبية إلى قوة ممدنة . وهذه المجموعة — على قلتها — يتضاءل عددها تدريجا . إن روح العصر تقف في وجوههم ، ويعترض سبيلهم الإيمان بالعمل ، والرأي الذي ينادي بأن الناس إنما أتوا إلى هذا العالم لجمع المال ، ولمباريات اللعب ، وارتياد دور السينما وحلبات السباق ، وسوق العربات ، وإنجاب الأطفال . ذلك هو مذهب المنتجين . ومن يؤمن به لا يفيد من العمل الذي لا ينتج

اقتصاديا ، أو من الملذات الدقيقة الشاقة . من يؤمن به لا يريد المدنية ، ولكنه يملك النفوذ والسلطان .

إن حكومة انجلترا تقوم على أساس التوفيق الاعتباطى بين كبار أصحاب الأجور وصغارهم . هى حكومة الأغنياء يخفف من غلوائها نقابات العمال . وحكومة الأغنياء هى صاحبة الكلمة الفصل فى السياسة فى الوقت الحاضر ، وهى التى ترسم طريق الحياة . ولا يعرف هذا الطريق تمام المعرفة إلا أولئك الذين يطالعون الصحف المصورة اليومية والأسبوعية . وهذه الطريق هى مايريده الناس ، وهى أيضا ما يسمونه المدنية . وهى التى حاربوا من أجلها لإرضاء الأغنياء ، والتى قد يحاربون من أجلها لإرضاء أنفسهم . لأن التوفيق المنشود بين كبار الكاسبين وصغارهم أمر اعتباطى . ولا يفتأ الصغار يخالفون الوصية العاشرة : ومن ثم كان هذا الحديث الذى لا ينقطع عن الثورة . والأمر العجيب أن هناك دائما متفائلين ممن يحبون البشرية يتوقعون خيرا من مثل هـــذه الثورة . إنهم يلومونى جهرا ، لأنى لا أميل إلى التخلى عما أملك أملا فى الحصول على ما يظنون أنه ربما كان وسيلة لما هو أحسن . إنهم يؤكدون لى « أن الناس لو تركوا وشأنهم لتحققت كل آمالك فى المدنية فى لحظة . وينبغى لك أن تعلم أن الناس دائماً يحبون الخير والجمال ـــ يحبون الأرقى حينما تقع عليه عيونهم : وهنا تقع الطريق التى تبحث عنها » .

وإن كنت برغم هذا النداء لم أتخل عن الدرس لأنصرف إلى الحياة العادية ، فإنما يرجع ذلك إلى أن العامل الراقى ـــ الذى يترقبون تطوره

عن العامل المعروف فى انجلترا من قديم — لا يبدى أية رغبة ملحة للإفادة من وسائل المدنية التى تقع تحت يديه . بل إنه ليبدو لى أن مطامعه تتجه وجهة أخرى . وبدلا من أن أكتشف بين العمال أية إرادة للمدنية ، أجدنى مساقا إلى الظن بأن العامل البريطانى يحب همجيته حبا جما . بل إنه ليريد المزيد منها . إنه لا يجد مغمزا فى جنة المنتفعين حتى إنه ليود لو كانت له . وهو لا يتطلع إلى ثورة مجيدة لكى يعيد تشكيل الحياة فيقربها من المثل الأعلى ، بل لكى يسلك مسلك الأثرياء . والواقع أن العمال المأجورين وأصحاب رؤوس الأموال على اتفاق تام فى كل أمر من الأمور إلا فيما يتعلق بتقسيم الغنائم . إن العامل فى منجم الفحم الثائر لا يتطلع إلى حياة أفضل من حياة صاحب المنجم الرجعى . إنه يتطلع إلى شرب الروم واللبن قبل الفطور ، وإلى فطور من أربعة أصناف ، وإلى يوم يقضيه فى الصيد والقنص ، أو فى لهو لا تسفك فيه دماء ، وإلى الشمبانيا فى العشاء ، والسيجار الطويل بعد العشاء ، وإلى مساء يقضيه فى دار الصور المتحركة أو فى قاعة الموسيقى ، إلى أن يقرأ بين الحين والحين لمس كورلى وميخائيل آرلن ، وفى صحيفة « مرور » و « جون بل » أو مجلة « ستراند » . وهو يعتقد فى كل حين اعتقادا نظريا ثابتا فى قداسة رباط الزوجية وفى بغض الأجانب والفنانين والمتحذلقين بغضا صادقا . وإن هذه الحياة لتلائم بل جونز كما تلائم لورد ميدنهد . إنها الحياة التى يعجب بها ويفهمها ، ولذلك فهو — بطبيعة الحال — يحبها لنفسه . ومن أجل ذلك كان ثائرا . وإنك لتقدر مركزه ، وإنك لتدرك تمام الإدراك أنه يود لو استطاع أن يتبادل مع اللورد

مكانته . وإنك كذلك لا ترى مانعاً من ذلك . بل إنك — أهم من ذلك كله — لا ترى سبباً يدعوه إلى أن يتوقع العطف والإعجاب من رجل يقف موقف الحكم المحايد إزاء ما يود أن يسميه « بالنضال من أجل الحرية والعدالة » . إن الشد والجذب بين جونز وسيده على ثمار الهمجية أمر يخصهما وحدهما دون سواهما . وليس هناك من الأهداف العامة فى هذا النضال ما يتعرض للخطر فيثير أولئك الذين يقفون خارج حلبة النضال . إن من يهتم بالمدنية وما إليها لا يهمه البتة من يحصل على السيارات وحفلات الكوكتيل ، وسواء عنده من ينتمى إلى نقابة العمال ومن ينتفع . كلاهما تافه ، عامى ، ساذج ، عاطفى ، شره ، عديم الإحساس ، وحيث أن كليهما يسعده أن يبقى كما هو ، فلا ينتظر لأحدهما أن يتحسن . إن إرادة المدنية قد توجد بين الشدا فى سيلان أو بين الميجى فى ساحل الذهب ، ولكن بادرة منها لا تظهر فى سوق الأوراق المالية أو فى مؤتمر نقابات العمال .

انتهى

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

ما المدنية؟ هل هى احترام حق الملكية؟ أو ديموقراطية الحكم، أو حب الوطن، أو الوحدة العالمية، أو التمسك بالدين، أو مكانة المرأة فى المجتمع، أو الخضوع المطلق لقانون الطبيعة، أو التحلى بالفضائل الخلقية والعادات الحسنة، أو تقدم العلوم، أو توفير أسباب الراحة للجميع...

يحاول المؤلف أن يصل إلى تعريف للحضارة يستخلصه من أهم ما يميز الجماعات المتحضرة، وهى فى التاريخ ثلاث: أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وإيطاليا فى عصر النهضة، وفرنسا فى القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية. والصفات المشتركة التى تنفرد بها هذه الجماعات هى: "تحكيم العقل" و "الإحساس الصحيح بالقيم" و "تقدير الفن".

وهى مقاييس للمدنية متداخلة وإن تنوعت، وتنبثق منها مميزات حضارية كثيرة.

تصميم الغلاف: نسرين كشك